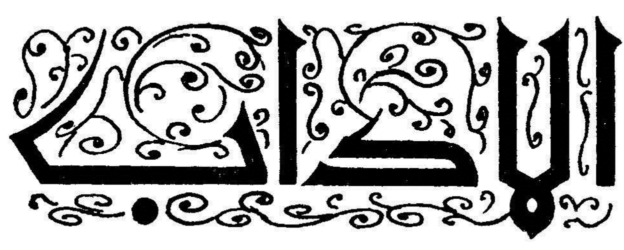
العدد الرابع
نيسان (ابريل)
السنة الثامنة

8ème ANNEE
No. 4 Apr. 1960



مجلة شهرية تعنى بشؤون الفكر
بيروت
ص.ب ٤١٢٣ – تلفون ٣٢٨٣٢
AL-ADAB REVUE MENSUELLE CULTURELLE
BEYROUTH. LIBAN B.P. 4123
Tél. 32832

رئيس التحرير
والمدير المسؤول
الدكتور سهيل ادريس
Rédacteur en chef et
directeur
SOUHEIL IDRISS

التاريخ بين القومية والانسانية

بقلم الدكتور عزت قرني

ما أكثر ما ينهمر الحديث في دنيا العرب اليوم عن القوم والقومية والعرب والعروبة والانسان والانسانية، سواء في المعترك السياسي ام على المستويات الادبية والفلسفية.

ولا نكران ان هذه القضايا من التشعب والتشابك بحيث تبرر خصب البحث وتنوع القول. على ان وضوح المفاهيم لا يتناسب في الغالب مع وفرة الشروح.. وقد توغل الفكرة في الغموض بقدر ما يطرح عليها من الحواشي والتفاسير ولست اطمح ان اخرج عن هذه السنة..

والموضوع، ليس جديدا، ولعلي لن آتي فيه بشيء جديد، فيما خلا اثارة المزيد من التساؤلات. واذا كان لا مفر من البدء بالبداية، اي بالتعاريف، فلنقدم المثال قبل الاحكام:

في وطننا الكبير شعوب تناثرت اوصالها، وتحكم فيها الاعاجم والاتراك والافرنج مئات السنين، وبقيت رغم ذلك وفية للغتها او مثلها وتراثها. في كل بلد للعروبة ظلت قلوب تهفو الى معانقة قلوب، ووجوه ترنو الى لثم وجوه وايد تسعى الى مصافحة ايد شقيقة حانية..

القومية ليست الا هذا... مهما عمقت الفلسفة جوانبها، وضخم المجهر عناصرها. والانسانية في داخل القومية تعني بكل بساطة ان نعامل ابناء قومنا بما نحب ان يعاملونا به، وفي الاطار الخارجي ان يتعامل قوم مع الاقوام الاخرين بمثل ما يودون ان يكون التعامل معهم.

يجهد الفلاسفة ان يثبتوا نزعة الانسان الطبيعية الى الوحدة والشمول، فهو يسعى عن شعور او غير شعور الى الخروج من المغلق الى المفتوح ومن الخاص المحدود الى العام المطلق. بذلك انتقل من عصبية الاسرة والقبيلة الى قومية الامة وهو مسير في الطريق نحو عالمية الامم او اممية العالم.

فما هو موقف التاريخ كعلم من هذه المسبقات؟ الا يمكن ان يكون طور الامة هو طور الاكتمال، والبلوغ اليه اشبه بالتطور من الطفولة نحو سن الرشد؟

الفلسفة تقول عن تصور والتاريخ يقول عن تثبت.

ماذا يروي التاريخ عن محاولة سحق القوميات في ظل الامبراطوريات؟ هل كان ذلك طبيعيا ومطابقا لسنن الكون؟ واذا كان طبيعيا فلم لم يستمر في الوجود؟ بينما خرجت القومية دوما ظافرة مكينة البقاء.

والمحاولات الروحية للمؤاخاة بين البشر والوصول بهم الى المدينة الفاضلة التي حلم بها الطوباويون، هل نجحت في محو القوميات؟ ام على العكس كان الدافع اليها تثبيت القوميات وتعزيزها عن طريق القضاء على مهدداتها؟

تجربة الاجابة عن بعض هذه التساؤلات هو موضوعنا. وشاهدنا هو علم التاريخ.

سنحاول اولا التدليل على أهلية هذا العلم للتشهادة وتبرير وجوده وتأكيد ضرورته للقومية والانسانية بالذات. وسنعمد ثانيا الى عرض فيلم كلامي عن تاريخ تلك القومية والانسانية.

التاريخ ضرر ام ضرورة

ولعلي استبقت الامور ووضعت المحراث امام الثور كما

يقول المثل الفرنسي فجزمت بوجود شيء اسمه علم التاريخ قد لا يكون له في نظر العارفين اي كيان حقيقي ، والواقع ان التاريخ مدون عند جميع الشعوب ان لم يكن في الاسفار ففي الصدور على أضعف احتمال. ولكن تدوين الحوادث شيء وتدوينها على حقيقتها شيء اخر . والشك يطرأ على التاريخ من هذه الجهة .

ويطرأ عليه ايضا من جهات اخرى ، وهي بالذات الجهات المتصلة بالقومية والانسانية .

يقول المرتابون : ما جدوى معرفة الماضي ؟

ويخلص بعضهم من الشك الى اليقين فيقرر بان التاريخ يديم الاحقاد ويحفظ حرارة البغضاء بين طوائف الامة الواحدة وبين الامة وغيرها . وبذلك يمنع السلام من ان يستوي على الارض .

واقل المنددين ضراوة يأخذون على التاريخ تجميد الامم على مواريثها العتيقة ، وخنق الاحياء تحت كابوس الملايين من الاموات، وتعطيل قوى التقدم والابداع، وبالتالي تعريض المجتمعات الى التخلف ثم التهافت ..

واخيرا هنالك الذين يتساءلون : هل يمكن الحياد في التاريخ ؟ وهل يستطيع المؤرخ ان يتحرر من عاطفته الوطنية والقومية بل والشخصيه ؟ واذا أمكن كل ذلك فهل هذا التحرر شيء مرغوب فيه ، ولاسيما في التربية والتعليم ؟ ولقد تصدى للدفاع عن التاريخ علماء في كل امة من الامم . وكتب بلسانهم الاستاذ (لويس هالفن) في مؤلفه (المدخل الى التاريخ) المنشور عام ١٩٤٦ فقال :

« لم تؤلف كتب في التاريخ بعدد مايؤلف في ايامنا ،ومع ذلك لم يجحد نفع الدراسات التاريخية بقدر مايجحد في زماننا . لقد اصبح رائجا ان يهزأ من المؤرخين في عبث الجهود التي يبذلونها ، وان تنكر كل قيمة علمية لاعمالهم . »

ورد الاستاذ هالفن على ذلك يتكشف في هذه الجملة المعبرة :

« انه لمن الاسهل ان يشتم التاريخ من ان يستغنى عنه » .

وقد يتخذ الطعن في التاريخ شكل العبث الهازل ، وهو يخفي وراء الابتسامة العريضة اقتم الوان النقد والتجريح . من ذلك ماكتبه عن المؤرخين الاديب الاميركي الساخر (مارك توين) .

زعم ذلك الاديب انه دعي الى القاء محاضرة على جمع مهيب من شيوخ المؤرخين ، فاختار عنوانا لمحاضرته « فن الكذب في انحطاط » وقال فيها :

« لست ازعم ان عادة الكذب تعاني ضعفا او تشكو انحطاطا ، فالكذب هو مبدأ خالد وفضيلة ازلية . وفي الكذب تسلية للمكروب وعزاء للعاني وملجأ امين للبائس . ان الكذب صديق الانسان الاول ورفيقه الامثل ..

ولا خوف على الكذب من الزوال وانتم في الوجود ،معشر المؤرخين ، وان كنت اشكو فما اشكو سوى انحطاط فن الكذب ... واذا عالجت هذا الموضوع امامكم فانا اعالجه على تهيب واستحياء ، فانتم معشر المؤرخين سادة هذا الفن واشياخه .. ومثلي معكم كمثل العانس لم تلابس الحياة تتصدى لتدريب قهرمانة عركها الدهر من بنات اسرائيل ... وفي الحق لو كان لفن الكذب – اجمل الفنون الجميلة – انصار مخلصون مثلكم كثيرون يشجعونه ويرعونه ويغذونه ويمارسونه ممارسة دائبة صادقة ... لو أتيح له اندية كثيرة كناديكم هذا لما اعتراني الجزع وغلبني الدمع .. ولا اقول ذلك ممالأة ونفاقا ، وانما هو الحرص على تقدير الناس حق قدرهم ... »

الانسان حيوان مؤرخ

وبعد لا يعنيني هنا الدفاع عن التاريخ كعلم . فالحقيقة في التاريخ يجب ادراكها . ومن الممكن ادراكها ، عن طريق جمع الوثائق ومقابلتها وعرضها على ميزان الفكر ، وتعريضها للجرح والتعديل .

والذي يعنيني تاكيده الان هو ان التجني على التاريخ لايريحنا منه ، لانه في نفوسنا قبل ان يكون في الكتب التي نقرؤها طوعا ، او تفرض علينا بطريق التعليم المدرسي .

اللغة التي ننطق بها والنغم الذي نهتز لسماعه ، والمنظر الذي يعجبنا ، والعادات التي تتحكم فينا ، وشكل الحكم الذي يسيرنا ، والثوب الذي نرتديه والغذاء الذي نقتات به .. كل ذلك تاريخ لانه نتاج تفاعل الحاضر مع ارث الماضي . وما دام للمرء ذاكرة يستند اليها في سلوكه ، فهو مؤرخ شاء ام ابى ، والتاريخ هو عنصر التوازن في شخصيته ولعل من ابرز صفات الانسان انه حيوان مؤرخ ....

وموضع الفرد من اسرته ورهطه ودولته وامته ، وموضعه في العالم انما تحدده ظروف البيئة الزمنية التي وجد فيها . ولذا فان القومية هي ذاكرة قبل كل شيء ، وبتعبير اخر ان التاريخ هو ذاكرة المجتمع .

حياتنا صيرورة مستمرة ، هي نهر له نبع ومصب ، ولا يمكن ان يستغني المصب عن المنبع . كل شيء في هذه الحياة هو تسلسل ، ونحن مدفوعون بغرائزنا الى تعليل الحوادث التي نشهدها او تقع لنا بهذا التسلسل .

ان تعليل الحاضر ، بل ان فهم مشاكل الحاضر منوط بملابسات ما قبل الحاضر مباشرة ، وما قبل الحاضر مباشرة هو التاريخ .

التاريخ والقومية العربية .

بعض المجددين منا يدعون الى الثورة على التاريخ وقطع جذور الماضي وبناء مستقبلنا الجديد على ركائز جديدة .

واني لاتساءل كيف يمكن ذلك ؟ هل نثور على ما نجهل ؟ ولقد رد على هؤلاء صديقنا الدكتور قسطنطين زريق في كتابه الرصين « نحن والتاريخ » .

حتى الثورة على التاريخ – اذا كان فيه مايثار عليه – تقتضي اولا معرفة ذلك التاريخ . ان اكثر المجددين تجددا واشد الثائرين ثورة ، لا قبل لهم بمحو الماضي ، كل الماضي ، بل لا مفر لهم من الاستناد اليه .

قد يظن ان الثورات هي فصل ما نحن فيه عما كنا عليه

والواقع هو العكس . ليست الثورة سوى نتيجة لتخمر طويل . فهي حلقة وصل لانها في وقت واحد بداية ونهاية : نهاية عهد مذموم وبداية عهد مرجو فيه . ولولا العهد الماضي لما كانت الثورة ولما بدأ العهد الجديد .

لولا القيصرية الروسية لما كانت البلشفية . واذا محي تاريخ القيصرية ، كانت جمهوريات الاتحاد السوفياتي لغزا من الالغاز .

وفي تاريخ امتنا . وفي تاريخ كل امة ، محامد ومثالب وليس دور المثالب باقل شانا في عبرة التاريخ من الامجاد والمآثر .

تذكر الخصومات والمنازعات الحربيه والطائفيه ضروره . لبيان اثرها في تفكيك القوام العربي ، وبالتالي دعوة الى التنكب عنها في الحاضر والاتي .

معرفة التفرقة الغابرة بدء المسير على درب الوحدة العتيدة .

ادراك عوامل التخلف التاريخيه نقطة الانطلاق في التجديد .

وليس من دروس التاريخ الجهر في كل مناسبة بان الاستعمار الاجنبي سبب تجزئتنا السياسية . لقد كان التفتت ثم كان الاستعمار . او بالاحرى كان الاستعمار بسبب التجزئة ، فادامها وثبتها وعمق جذورها .

ونحن نغالط في التاريخ حين ننسب ضعفنا وتخلفنا الى المستعمرين الغاصبين . الحقيقة ، اننا ضعفنا وتخلفنا فاستعمرونا ، ثم امعنوا في اضعافنا وصدونا عن التقدم .

تاريخ العرب سجل لانتصاراتهم ولتراخي عزائمهم . والقومية العربية ، المنطلقة اليوم على درب القمم ، تعرف طريق النصر لانها ذاقت قبل ذلك مرارة الهزيمة .

قصدت الى القول بان التاريخ القومي كل متكامل . فيجب ان لاتبتر منه صحائفه السود . وان لاتصطنع فيه الامجاد وتضخم البطولات ..

التاريخ هو قبل كل شيء مدرسة للصدق . وليس من القومية في قليل او كثير بناء تلك القومية على اسس موهومة او مفتعلة . والحقيقة هي دوما انفع للعبرة الوطنية من اختلاق الحقيقة .

والتاريخ العربي مزدحم بالمآثر . وليس من ضروره لملئه بالاساطير . ومن الخطر على القومية العربية بالـذات التعويض عن نقص الحاضر باوهام الماضي .

تقديس ام تجديد ؟

واذا قلنا ان التاريخ القومي موضع عبرة واداة حفز وموئل اطمئنان ، فاننا نقول في الوقت ذاته : قد يكون ذلك التاريخ خميرة تجميد وعامل وقوف ووسيلة حجر على القوى المتفتحة للخلق والابتكار ..

عبادة الاجداد وتقديس كل قديم والحفاظ على معالم القرون الاولى في ظهيرة العصور الحديثة .. كل ذلك قاد امة الصين الى الانهيار .

والواقع ، ان في كل حضارة اسسا خالدة واخرى زائلة كما اثبت العالم برديف . والمهم في بناء القومية تمييز العمد الثابتة عن المظاهر المتغيرة .

وما يصح في النظم واساليب الحياة يصح في الاشخاص.

ذلك ان التاريخ القومي كان ، ويجب ان يكون على الدوام . كنزا من التجارب المتجددة . كل كائن يتمثل اولا ماصنع اسلافه . وهذا هو معنى التأهيل الاجتماعي بالتاريخ . ثم يبدأ هو رسالته كانسان ، فيضيف شيئا جديدا الى التراث القديم .

ولعل خير مانستوحي من الماضي تلك الطاقة المعنوية التي دفعت المصلحين الى الاصلاح والمجددين الى التجديد.

من ابطالنا الشجعان نستلهم شجاعتهم لا أساليبهم في الطعان .

ومن علمائنا الافذاذ نستمد قدرتهم على البحث والغوص لا ماوصلوا اليه بالفعل .

من الماضين تبقى لنا حماسة نبيلة وهيجان خلاق ..

ولا يعني الاديب الفرنسي « موريس باره س » سوى ذلك حين يقول :

« ان من واجبنا بل من ضروريات حياتنا ان نحب امواتنا . فأية قوة تنبعث عنهم . ايها الاموات كم انتم أحياء ! ... »

ان الفرد اذن هو امتداد لامته لا تكرار لها وهو متضامن مع الاجداد على اتمام مهمتهم لا على اعادة سيرتهم .



من الافتئات على التاريخ الزعم بانه يتكرر بينما هو يتطور .

ومن الجهل بالحضارة الوهم بانها اعادة مستمرة . بينما هي خلق دائب لايفتر . التاريخ ، على راي المؤرخ « توينبي » هو حضارة لا اقل ولا اكثر . الحضارة تنشأ عن تحدي البيئة الطبيعية المستمرة للبشر ، واضطلاع الاقلية المبدعة في الامة برد الفعل على ذلك التحدي .

الاساس ان تكون لدى طائفة من القوم عقدة نفسية تراكم التصميم وتحفز دوما على التجديد . وتتفكك الحضارة حتما حين تفتقد الاقلية المبدعة وتبقى تحديات الطبيعة دون ردود فعل .

وبالاستناد الى هذه الحقائق الواضحة يستنتج توينبي دستور ضعف الامم . فيقرر ان الغزو من الخارج لاينال من الامة اذا كانت حضارتها مستمرة في النمو ، والحضارة تزول بالانتحار ولا تزول بالقتل .

قومية ام اممية

والحضارة اوسع نطاقا من القومية ، كما ان اشعاع الشمس ابعد مدى من الشمس . واذا كانت القومية لاتتعارض مع تبادل الحضارات او تلاقيها ، فانها تابى ان تحل الاممية السياسية محل الحضارة الانسانية .

ان من هبات التاريخ لنا اقامته البراهين تلو البراهين على ان الصلة القومية كانت ولا تزال اثبت ظاهرة اجتماعية.



منذ القديم ظهر عند الانسان النزوع الى العالمية سواء كان ذلك في المجال الحضاري والديني ام في الميدان السياسي . قامت الامبراطوريات في كل مكان على الارض، تسلطت دول على دول وشعوب على شعوب ، فماذا كانت النهاية ؟

في كل مرة كانت الغلبة للقومية لا للعالمية السياسية .

زالت من الوجود امبراطوريات الحث والفراعنة والفرس والمكدونيين والرومان والبيزنطيين والترك . ودالت امبراطوريات شارلمان وشارلكان ونابليون وهتلر وموسوليني. وستنقرض امبراطوريات مكملان ودغول دون ظل من الشك .

ماذا بقي من جميع اشكال الحكم الاممية ؟ لا شيء .

لانها ارتباط صنعي موقوت يفرض من الخارج بينما القومية ارتباط طبيعي دائم ينبع من الداخل .

الانسانية العالمية لن تكون شيئا الا اذا كانت على اساس التوازن القومي والتعاون الحضاري اي التعايش الايجابي. ذلك ان القومية محبة والانسانية صداقة والاممية فرض مشيئة .

والذين يتوهمون ان اذكاء القوميات يزحزح اركان السلم العالمي هم مغالطون ، لانهم يعرفون أكيد المعرفة، ان السلم العالمي مزحزح الاركان بسبب اذلال القوميات .

والمشفقون على الانسانية الذين يتمنون نسيان التاريخ ، لينسوا البشرية احقادها ويمهدوا للصلح بين شعوبها ، واهمون ايضا ، لان الذي يزيل الاحقاد هو التعرف على اسبابها ، والتاريخ هو سبيل ذلك . التاريخ وحده يكشف السوابق المرضية للانسانية المريضة ، وبذلك يعد التشخيص ويوجه الى الدواء .

انني مع القائلين بان التاريخ القومي المدون لدى جميع امم الارض لايساعد على ارساء الاخوة الدولية ، لانه مدون على شكل وحيد الطرف،يكال فيه المجد كيلا للاصحاب، وتجمع الذنوب والسيئات في كفة الخصوم والاغيار . هذا صحيح . ولكن ذلك تسميم تاريخي وليس بتاريخ . والسبيل الى ترسيخ المناعة ضد هذا النوع من التضاليل هو ان يقوى الوجدان التاريخي عند المؤرخين .

ثالوث التاريخ .

وفي الحق ان التاريخ ثلاثي المعنى :

هو اولا مجرى الاحداث بالذات

وهو ثانيا تدوين تلك الاحداث .

وهو اخيرا اجتلاء معناها وكشف اثارها في مصير الناس .

ونحن ، بالبداهة ، لانستطيع تبديل مسير التاريخ في الماضي ، ولا نملك ان نفرض سلوكا معينا على من فات من الغابرين . وحين ندون هذا السلوك وذلك المسير تقتضينا رجولة الامانة ان نتقيد بالحقيقة . ولا بد في التدوين من اصطفاء . وقاعدة الاصطفاء اختيار الاحداث ذات الاثر في حياة القوم والبشرية .

وقد درجت في ايامنا هذه تعابير جاهزة تدعو الى الالتزام في الادب والفن وفي العلم والتاريخ وجميع صنوف المعرفة والابداع .

والداعون الى الالتزام يعنون به استجابة المفكر والعالم لضرورات مجتمعه ، والمشاركة في تسديده وتجديده والنهوض به . ولا اعتراض لي على الالتزام من حيث المبدأ ، بل قد اكون من اوفى مؤبديه ، ولكنني في تدوين التاريخ على وجه التخصيص لااری في الالتزام شيئا اخر غير التزام الحياد والنزاهة .

اما الانتفاع بالتاريخ في اغراض التوجيه القومي والاجتماعي ، وفي تمريس النفوس بالحرية ودفعها الى التمرد على الظلم والاستعباد ، وفي غير ذلك من صور النبل والفضيلة ، فهذا هو الوجه الثالث من التاريخ ، اعني بذلك تفسيره وتخطيط محصلته وتكثيف عبره والسمو من جزئياته الى مغزاه الكلي الشامل ، على نحو ماصنعه ابن خلدون في مقدمة تاريخه ، وعلى نهج من تبعه في ذلك من الغربيين كشبنجلر وبردييف وتوينبي وكارل ياسبرز وغيرهم .

هذه مرحلة مغايرة لمرحلة التدوين . في التدوين التقاط امين لمحصول الزمان بمثالبه ومحامده . اما المرحلة اللاحقة ففيها حكم على هذا المحصول وتقويم له وتفريق بين ثمراته الناضجة والفجة . ومآل هذا كله انتقاء بذور جيدة لمحصول جديد معجب .

فاذا كنا لانستطيع تبديل التاريخ في ماضيه فنحن بكل تأكيد نستطيع التحكم في آتيه ، مستخدمين ذلك الماضي بالذات .

ان هذا الوجه الاخير من ثالوث التاريخ هو أجدرها بالاهتمام والصقها بمفهومه الاصيل . فلا جدال ان القيم في التاريخ هو عصارته لا عصوره ، وحديثه لا حوادثه ، وعواقبه لا تعاقبه . والتاريخ في اتجاهه التركيبي هذا ، المتجرد عن الزمان والمكان ، يلتقي بعض الطريق مع علم الاجتماع .

هذا المنهج الاستقرائي يرسم سبيلي في الشطر الثاني من هذا البحث .

التجربة اللاتاريخية قبل الانسان :

استميح المؤرخين العفو اذا بدأت التاريخ قبل التاريخ ، وجمعت الاضواء على البشر الاوائل ، بل والعضويات القديمة ، لان عناصر القومية والانسانية تكاد تكون ازلية الميلاد .

ان مانسميه عرفا التاريخ لايتجاوز في المدى خمسة الاف سنة ، ثلاثة الاف منها سابقة للميلاد ، وما قبل ذلك ضباب كثيف ، من وجهة نظر المؤرخين الوثائقيين على الاقل ..

وتحدد التوراة عمر الارض من لدن خلق ادم الى اخر الدهر بستة الاف سنة ، وانتقل ذلك الى تراثنا العربي ، فافاض الطبري مثلا في روايته والتدليل عليه . واذا تحققت تلك النبوءة تكون الحقبة التاريخية كلها متناهية القصر بالنسبة الى مئات الالوف من السنين التي استغرقتها ازمان ماقبل التاريخ .

وحياة البشر قبل بدء التاريخ تعتبر وجيزة ايضا اذا قيست بعمر الحياة العضوية ـ حياة النبات والحيوان ـ التي دامت نصف مليار سنة قبل خلق الانسان .

نصف مليار سنة ، هل لها محصول بالنسبة الينا ؟

لا شك .

هذه القواقع المتحجرة والهياكل المنطمرة ، والنباتات المتفحمة ، الراقدة اليوم في الاعماق تحت اقدامنا على شكل جماعات متميزة كانت تنبض بالحياة في يوم ما .

وكان بين القوقعة ومثيلاتها ، والسمكة واضرابها ، والفصن واشباهه، كان هنالك مايصح ان نسميه بالتجاذب الاجتماعي ...

كل بيئة لها مجموعة تتبعها ، فلا وجود للكائن المنعزل ، ولا بقاء لمن يخرج عن المجموع . بيئة ، تماثل النوع ، حياة مشتركة .. الا يكفي كل هذا لان نتكلم عن وجود قومية متميزة لكل طائفة من جماعة النبات والحيوان ؟!.

علماء الاجتماع الحيواني والنباتي يؤكدون ذلك . ومن المشاهد ان الامر باق الى اليوم . الى اليوم للنحل قومية ، كما للنمل والفيلة ، وللاشجار لنخيل قومية ، كما للورود والرياحين .

الفيل الاسير في حديقة الحيوان يرمضه الحنين الى اهله ، والسنبلة الشاردة تذوي في حقول البقول والخضروات ..



قد يقال : ليس في الامر اكثر من ارتباط باجواء مادية .

ليكـــن .

أليس حب الوطن في الاصل ارتباطا بجو وارض ؟

ذلكم درس عظيم من دروس التجربة اللاتاريخية السابقة للانسان .

التجربة اللاتاريخية للانسان

ثم كـان البشر علـى الارض .

ولسنا نعرف شيئا محققا عن طفولة الانسان الاولى . هل درج في عش واحد ثم انساح أنساله في طول الدنيا وعرضها ، ام كان لكل بقعة من الارض آدمها الخاص بهـا ؟

العلمـاء يميلون مع ابي العلاء حين يقـول :

جائز ان يكون ادم هذا قبله ادم على اثر ادم ...

والعلماء يميلون ايضا الى الظن بان نشأة البشر متعددة لا متوحدة .

ولا يعنينا الخوض في صحة هذه المزاعم او بطلانها ، وانما يعنينـا الوقوف على احوال الاجداد لنزن ما ابقوا للاحفاد .

وبقليل من التبصر نجد ان الحياة قبل بدء التاريخ مذهلة الغنى بالعبر والمفاهيم .

مـن ذلـك :

١ ـ ان الانسان منذ وجد ، شعر بالشبه بينه وبين مثيله الانسـان وبالفروق الضخمة التي تميزهما عن الحيوان .

فكانت هنالك معيشة متضامنة بين جماعات الناس ضد طوائف الحيوان وعناصر البيئة الطبيعية . هذه الحقيقة التي آمن بها الانسان الاول هي التفسير العقلي لما ورد في الكتب المقدسة وقبل الكتب المقدسة عن قصة الخليقة : الانسان اخ للانسان لانهما يفترقان عن الحيوان ، آدم وحواء رمز للمجتمع الانساني في تباينه الكلي عن الزمر الحية الاخرى .

٢ ـ مهما تعمقنا في اغوار ماقبل التاريخ نجد فروقا ظاهرة في السلالات ، بيضاء وصفراء وسوداء ذات رؤوس عريضة او مستطيلة . غير انه منذ ذلك الزمن السحيق تفاعلت السلالات وانتشرت التصالبات بالتمازج والهجرات . فما يكاد يطل وجه التاريخ حتى تكون قصة العرق الخالص اسطورة لا وجود لها في الواقع الا كحالات نموذجية .

وهكذا تكون ادوار ماقبل التاريخ قد حررت الانسان من تركيز العيش المشترك على الخصائص البيولوجية الواحدة .

٣ ـ وقد حررته ايضا بعض الشيء من عبودية المحيط . بـدأت آلة عقله بالدوران فاستخدم الخشب وصقل الحجر واذاب المعادن ، وغالب الطبيعة وبدأ ينفلت من قيدها . ومآل ذلك انه اصبح من معاني الوطن والقومية منذ ذلك الزمن الابعد ـ شعوريا اولا شعوريا : عصبية الجهود المشتركة لقهر الطبيعة . وهل يعني هذا شيئا اخر غير الحضارة او الثقافة بمعناها الاوسع ؟

فمما لا ارتياب فيه ان اول حرفة للانسان كانت سلبية ، تقتصر على التبديد والاتلاف : اتلاف رأس مال الطبيعة بقطف ثمرها وحرق شجرها وقتل حيوانها . لكنه انتقل بعد دأب صبور الى مرحلة ايجابية ، وهي مرحلة الاستثمار ، باغناء الطبيعة عن طريق تربية الانعام وزرع الارض والعيش من ريع رأس المال لا من استهلاكه .

خطوة عملاقة كانت اذن الخطوة التي جازها انسان ماقبل التاريـخ على درب الحضارة . وكان لنا في هذه الخطوة تعريف سليم للقومية : هي المشاركة في الخلق والابداع للنهوض بمستوى العيش . فاذا استمرت هذه الجهود المشتركة تثمر اجيالا واجيالا يتحصل من ذلك تاريـخ طويل ، تاريخ العرق المشترك والظفر المشترك . ولا شيء اثمن من ذلـك في توثيق العرى القومية .

٤ ـ تلك الحضارة الحابية عند اللاتاريخيين كان لها مقوم اخر : هـو الشعور الغيبي ومظاهره الخارجية .

نحن قد نجهل الاساسي عن عقيدة اجدادنا الاول ، لكننا نقـدر استجابتهم لافاق ماوراء الطبيعة ، واستكانتهم للسحر واطمئنانهم الـى الطلاسم والتعاويذ وتصورهم لنشأة الكون ونظامه .

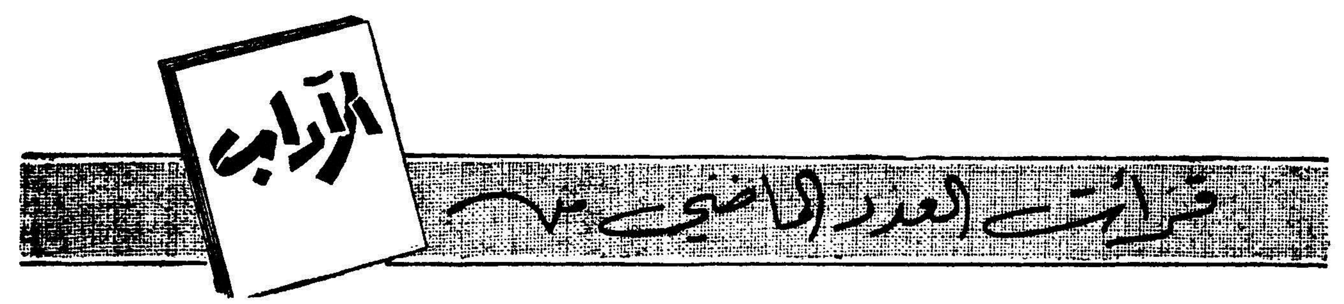
اننا لانعدم حجة للحدس بان التدين على شكل ما عريق في الانسان . والا فلمن أهدى انسان المغاور تلك الصور الفنية الرائعة التي بقيـت منقوشة على الجدران الى اليوم ؟

الفن في خدمة الدين . كان هذا شعار الانسانية الاول ، وظل شعارها حتى بدأة العصور الحاضرة . ومقطع افقي للزمان قد يغني احيانـا كثيرة عن مقطع طولاني له ، أعني ان قياس الاحوال الغابرة بما يماثلها من الاحوال المشاهدة من شأنه الوصول الى اجتلاء الماضي . والجماعات المتخلفة اليوم شأنها شأن المجتمعات الراقية ، تنتظمها مقدسات ومحرمات وتصورات غيبية توجه السلوك الجماعي وتفرض قانونها على الافراد .

وسواء عبد الناس الشجر ام النبع ، العاصفة ام البحر ، الشمس

ـ التتمة على الصفحة ٧٥ ـ





بقلم الدكتور سهيل ادريس

حفل الجزء الماضي من « الاداب » بعدد من القصائد لم يعرفها واحد من الاجزاء السابقة . ولم يكن ذلك عن قصد من التحرير ، فانه لايجب ان يرسم او يخطط للاعداد العادية من « الاداب » ، وانما يدع للادباء انفسهم باستجاباتهم الواعية او اللاواعية ان يرسموا ، ولا تفعل المجلة غير ان تنقل هذا الرسم وتغني ذلك التخطيط ، وتترك للنقاد ان يرصدوا المظاهر الادبية ويدرسوا الاتجاهات والنزعات الجديدة . وليست بي حاجة الى الترديد بان المجلة الادبية لاتستطيع ان تخلق ادبا او ادباء ، وانما هي تتيح للادباء ان يتنفسوا ليلتقط الدارسون انفاسهم ويبوتقوها في مظاهر ونزعات . وعلى هذا ، فليست المجلة مسؤولة عن الانتاج الا بمقدار الاجتهاد الذي يتيح به رئيس التحرير ظهور هذا الانتاج . وقد يكون في هذا الاجتهاد خطأ او سوء تقدير ، ولكن ذلك يظل اضعف من ان يؤدي الى تشويه حقيقة الوضع الادبي .

اقول هذا وفي ذهني بعض عبارات وردت في رسالة صديق من الادباء اثق بذوقه الادبي ، وهي تشير الى « انخفاض » في مستوى المنشور في بعض اعداد «الاداب » الاخيرة . وليس يجدينا ان نخفي هذه الشكاوى ، بل يجدينا ان نتدارسها وان نلجأ الى النقد الذاتي حين تدعو الحاجة ، حرصا منا على مستقبل الانتاج الادبي كله .

وانا اقر بان بعض الاسماء الادبية الكبيرة قد غابت عن المجلة ، ولكني لست على يقين من ان هذا قد ادى بالضرورة الى انخفاض المستوى . ذلك ان ذوق القارىء العربي يزداد رهافة وعمقا ، وان المقاييس النقدية بالتالي تزداد صرامة ودقة . فليس يكفي بعد ان يكون الاسم كبيرا ليفرض على القارىء الاحترام . وينبغي ان نعترف ، الى ذلك ، بان كثيرا منذوي الاسماء الكبيرة باتوا مطمئنين الى ما كسبوه من شهرة ومكانة . فراحوا يتابعون انتاجا يكاد يخلو من الضمير الادبي ، ويعوزه الجهد والجد . والقارىء الواعي لا يغفر للكاتب مهما علا كعبه ان يستخف به .

والحق ان « الاداب » تؤمن بادب الشباب ايمانا كبيرا ، وتفسح في صفحاتها لكل من تستروح في انتاجه وعودا خيرة . ولست لابالغ حين اقول ان القراء قد عرفوا عن طريق هذه المجلة جيلا جديدا من الادباء له خصائص مميزة ، وهو الجيل الذي يتسلم منذ الان مقدرات الادب العربي الحديث .

ولكن اذا اعترفنا بنقائص جيل الشيوخ ، فلن يأخذنا الادعاء اخذا نتغاضى معه عن نقائص جيل الشباب ، وليس اقلها الغرور والتهور . على ان روح الاخلاص ورغبة الصدق والصراحة هما ميزتان تجعلاننا نتفاءل بانتاج ادبي يفرض به الشباب وجودهم وقيمهم الجديدة .

واحسب ان القراء المخلصين يغفرون لنا بعد ذلك ان ننشر بعض الاثار التي تحتاج الى نضج وتفتقر الى تمرس ، فان روح التشجيع لادب واعد ، ولو كان يعتوره بعض ركاكة او ضعف ، خير من خنق هذه الاثار التي قد تفقدنا مواهب كثيرة تغني ادبنا الحديث .

وليسمح لي ، بعد تدوين هذا الاجتهاد ، ان اعود الى العدد الماضي .

القصائد

خمس قصائد من وحي مأساة العراق العزيز في عهده الجديد . وهي جميعها تصور ـ على تباين ـ الزيف الذي ألحقه الشيوعيون بثورة ١٤ تموز ، والانحراف الذين انحرفته بتشجيع من الحكام الانتهازيين .

ولا ريب في ان قصيدة نازك الملائكة « ثلاث اغنيات شيوعية » خير هذه القصائد تعبيرا عن هذه المأساة ، واروعها اداء شعريا . وهي قصيدة اخرى تسجل خطا جديدا من خطوط التطور في شعر شاعرتنا المبدعة في المضمون والشكل . ان الشاعرة لا تستطيع ان تظل بمعزل عن الاحداث ، ولا يمكن لهذه الاحداث الا ان تترك فيها أثرها . وقد وضحت في انتاج نازك الملائكة الاخير تلك النزعة القومية التي كانت غائبة في كتاباتها السابقة . وهذا ظاهر في شعرها وقصتها ودراستها جميعا . انها تشارك شعبها الاهتمام بمصيره ومهمة كشف اعدائه ، وتوضيح الطريق الصاعد امامه . ولكنها تظل محافظة على فنية الاثر الادبي ، وتبعده عن اسلوب الدعاية والوعظ ، وتمارس أثرها فيه ممارسة غير مباشرة هي ابعد في النفس وافعل في الروح من اي اسلوب مباشر .

وهذه القصيدة الرائعة تعتمد اسلوبا ساخرا لا نجد له مثيلا في ادبنا، قديمه وحديثه . وتقوم هذه السخرية على استعمال طائفة كبيرة من الالفاظ والعبارات التي يتداولها الشيوعيون شعارات لهم . وهم يؤمنون بانها ذات مدلولات معينة ، غير ان الشاعرة تفضح زيف هذه المدلولات بالقرائن المختلفة التي تلحقها بها ، فتكشف بهذه الطريقة اسلوبا معروفا من اساليب النفاق الانتهازي . فان كلمتي « الجاسوسية » و «الرجعية» مثلا كثيرتا التداول في قاموس العملاء الشيوعيين . ولكن الشاعرة تجعلهما صفتين لموصوفين لا يوحيان الا بالطهارة والبراءة حين تقول « جاسوسة زنبقة » و « رجعية الياسمين » فتوحي بان ذلك يدل على منتهى الظلم والعدوان ، وتفضح نية الشيوعيين الذين يتهمون الابرياء الطاهرين بالتجسس والرجعية . وقريب من هذا المعنى حديثها عن شقائق النعمان التي هي اشرف الورود ، لانها « رمز الدم المراق ـ وباسمه نقتل حتى الربيع ـ ونذبح الاطفال » وغاية الاستهزاء بالمنطق الشيوعي تبدو في قولها على لسان أحدهم « جززت الورد من خديه حبا للسلام . » كما ان احدهم يكشف عما يبيتونه للعروبة اذ يقول ، وكأنها زلة لسان «وهذا الشذى روحه عربية . » ومن الطريف ان نرى ان الشاعرة قد جمعت في هذه القصيدة عددا من المفردات المتداولة في قاموس الشيوعيين : يعد مؤامرة ، عملاء ، نفضح ، دبرت ، روحته ، رجعية ، تزوير ، دسائس ، اراجيف ، كل ذلك في سياق شعري بارع لا نحس فيه بانها كلمات مختارة مقصودة .

غير ان لهجة هذه السخرية تتحول الى رد عنيف عميق يرد به الشيوعي نفسه على نفسه اذ يصحو ويتهاوى حلمه الاحمر حين يوقن بان الغلام الذي ذبحه ، وهو هنا رمز الشهيد العربي ، يعكر امنه وحياته،

لانه تكاثر حتى اصبح تسعين مليون عربي ، أي انه اصبح العرب جميعا. وروعة هذه الخاتمة تكمن في ان الشاعرة لم تورد هذا المعنى كاسقاط وتدخل منها ، بل اوردته محفورا في ضمير الشيوعي ، يعذبه ويؤرق نومه، فتفادت الوعظ المزعج الذي نجده في كثير من شعرنا الحديث .

وقد لا حظنا في شكل هذه القصيدة ، بعد ، تطورا واضحا في طريقة التعبير . ففيها ابتعاد عن التعقيد المعنوي واللفظي ، وفيها سلاسة وانسياب وتلقائية لا نجدها كثيرا في شعر نازك الملائكة الذي يعنى بالفكرة وظلالها عناية فائقة .

ونجد احدى صور هذه القصيدة تشكل الفكرة الرئيسية في قصيدة عدنان الراوي « آذار وانصار السلام » ، نقصد فكرة البراءة الذبيحة المتجسدة في طفل يضحى بهعلى مذبح الانتهازية والاستغلال: « لا تتركوا الطفل الرضيع - ففدا سيكبر ثم يهتف بالترانيم الوفيه » وخاتمة القصيدة هي ايضا بارعة بكلماتها البسيطة المحملة بالايحاء : « يكبر الطفل الرضيع » . ولعل القاريء قد لاحظ الشبه الواضح بين هذه الصورة وصورة وردت في قصيدة نازك الملائكة ، ونكاد نجد شبها لها في قصيدة « صلاة » لشفيق الكمالي . فاذا ذكرنا ان هؤلاء الثلاثة هم شعراء عراقيون ، حق لنا ان نتنبأ بأن انحراف الثورة العراقية سيتخذ في اذهان هذا الجيل من شعراء العراق صورة طفل تغتاله ايد أثيمة ، وان بوسع التاريخ الادبي ان يضع منذ الان فصلا هاما عن هذه الفترة تحت عنوان « ثورة ١٤ تموز والطفل الذبيح » .

هذا وقد حفلت قصيدة « صلاة » ، وهي ابتهال حار صاعد من الاعماق ، بصور غنية واستعارات وتشابيه معبرة : « والمنجل يحصد في اصرار - زهرا انبتناه من الصخر . » - « الدرب تجرحه اقدام الجند الريح رصاص . » وصورة محزنة عميقة الدلالة هي صورة خلو بغداد اليوم من العذارى « في كل صباح تمضي للجدول عذراء قربانا للتنين الاصفر . » الا اننا لاحظنا غلطتين نحويتين في هذه القصيدة : اولاهما قوله عن الزهر « أسقيناه ندى العمر » والصحيح سقيناه ، والثانية جعله همزة « الاسمر » همزة وصل في قوله :

« والشارع الاسمر تخنقه القضبان » وهي همزة قطع اذا قرئت كذلك انكسر البيت .

وفي هذا السياق من المعنى تندرج قصيدة « الهرة السوداء » لعلي الجندي ، وقد رمز بقصة هذه الهرة التي أكلت صغارها الى الثورة التي أكلت نفسها . ومقدمة القصيدة تصوير بارع لترقب اطلالة الفجر وما عقب ذلك من خيبة ترمز اليها الاشباح التي لا تنام . وبعد سرد قصة تلك الهرة ، تأتي دعوة الى مواصلة الكفاح والصراع، ولكن هذه الخاتمة تبهت بالنسبة لمطلع القصيدة ويزول منها التوتر ، وتنتهي ببيت لم يكن التشبيه فيه موفقا ، ولعله سيق بالقافية « وتضحك الحياة والشفاه كالطفوله . » وقد ورد في هذه القصيدة بيت غير مستقيم ، هو قوله « اني اسليكم عن الجهد الذي تحملون » وهو يستقيم اذا جعلناها « تتحملون » (1)

وتبقى قصيدة « الكلمة اقوى من الموت » لماجد حكواتي ، وقد أهداها « الى جلادي الكلمة في بغداد من الشعراء الذين خانوا رسالتهم » فذكرنا بعدد من هؤلاء الذين ضللهم الشيوعيون او الذين وهنت قلوبهم

(1) لعل ذلك خطأ مطبعي . ونحب ان ننتهز هذه المناسبة لنعتذر الى الشعراء والى سائر كتاب العدد الماضي عن الاغلاط المطبعية الوافرة التي وقعت في مقالاتهم ، ونعدهم ان نتجنبها قدر المستطاع في المستقبل .

فانساقوا في التيار ، وفقدوا معنى الصمود الذي هو عنوان الاديب الحر. وفي القصيدة وصف موفق للكلمة النذلة التي تجري على قلم امثال هؤلاء: « الكلمة تخرج مجروحه ـ تنسل على درب مظلم ـ يجلدها من اقسم للكلمة بالاخلاص . » على اني ارى ان البيت الاخير قد سقط دون مبتغاه معنى ولفظا « لتعود حقيرا مرذولا في دنس الحماة تتمشى . »

واذا واصلنا مراجعة قصائد هذا العدد ، كان علينا ان نولي قصيدة « مدينة الغرب » لعبد الباسط الصوفي اهتماما خاصا . فهي قصيدة طريفة وعميقة في الوقت نفسه ، وهي تهز القاريء بما تثير فيه من مختلف المشاعر والصور والافكار . والشاعر يروي فيها ، عبر صورة هذا الشجر الرخو الذي اسمه « الغرب » ، قصة حياة مدينة بكاملها ، حياة شعب في مدينة ، له اخطاؤه ، ولكن له ايضا مزاياه . وفي القصيدة اثارة لقضايا هامة وعميقة منها ما يتصل بالفكر والفن ، ومنها ما يتصل بالحياة اطلاقا وكلها موضوعات موحية تدل على عمق ثقافة الشاعر وعمق حسه الفني . والحق ان كل مقطع من القصيدة يعالج قضية قائمة بذاتها ، وتبدو صورة الغرب بالنسبة اليها كاللازمة في الاغنية . والبؤرة التي تنبثق منها كل ايحاءات القصيدة هي تشبيه بعض الرجال بالغرب ، فكما ان « الغرب فن الارض » ، كذلك « بعض الرجال فن الحياة » . ويبدو الغرب كالفن شيئا كماليا قد لا تكون له قيمة اساسية ، ولكنه من الحياة في صميمها. شانه في ذلك شان هؤلاء الرجال المعذبين الذين يعيشون القلق والرتابة، ولكنهم مع ذلك يكونون الطليعة ، ويقفون في خط النار عندما يدعو الواجب . وهذا الغرب نفسه يصبح ، في نهاية المطاف ، حطبا للشتاء يتدفأ به المبتردون ، كما يتدفأ الشعب بنار الشهداء .

وما اغنى هذه القصيدة بالصور الرائعة ، وما أحفلها بالاستعارات الجديدة والتشبيهات الفنية المثيرة : « كل الحقول جمرة من الذهب ـ من أشعل الحرف واطعم اللهب ؟ وزوق الالهام في مجرى القلم ؟ ـ كان المساء لوحة نارية ـ وانفرزت اصابع وحشية ، في مقل الشوارع القفراء فانفجرت مصابح شوهاء ـ واغمدت نصالها الاضواء »

واذا رحت انقل صورا اخرى ، فاني اوشك ان اعيد نشر هذه القصيدة ولكني اود ان اشير الى هذه الصورة التي بلغ فيها الشاعر ذروة التوفيق باوجز الكلمات حين يتحدث عن شرفات النساء فيقول « شرفاتهن رحلة الشباب » كما ان اومىء الى نهاية القصيدة التي تستقطب ثورية هؤلاء الذين يحلمون في الصحراء بالبعث العظيم ، وينطلقون يجرفون الحدود في طريق الوحدة الكبرى : « رسالة الجيل يهز الجيل ، رسالة الصحراء والحرية ، هادرة بالبعث امة العرب ، على سنا المشاعل الثورية ، تجرف في طريقها الاسوار ، ويرقص الاحرار ، وانتظمت قوافل الثوار، وانت احطاب الشتاء يا غرب »

على ان هذه القصيدة مكثفة تكثيفا يكاد يضر بها . وظاهر ان الشاعر اراد ان يحملها مادة ملحمة كبيرة ، ولا شك في ان هذا هو الذي حمله على ان يشرح رموزها بهذه المقدمة الطويلة الرائعة التي ينبغي ان نعترف اننا كنا لولاها سنتخبط في تفسير الرموز والمدلولات الشديدة الغموض.

اما « اغنية الميناء » لعبد الرشيد الصادق فقصيدة عذبة ، حافلة بالصور البارعة ، واحاسيسها ذات نكهة ، ولهجتها ذات صوت خاص فريد. وهي تعبر عن مشاعر فتى يودع حبيبته المسافرة الى فرنسا ، فيخاطبها ملهوفا ، ويعيش مراحل الرحلة بدلا منها ، ويتوقف لدى كل مشهد ليحدث نفسه او يخاطب حبيبته على البعد ، يستولى عليه الحزن للفراق تارة فيشمله اليأس والاسى ، وطورا يتخيلها تذرف الدمع لفراقه فيستعيد طمانينته . ويورد الشاعر في اثناء ذلك صورا تعبر خير تعبير عن حالته النفسية ، من مثل صوت البحار المبحوح يغني اغنية تستجيب لشعوره هو : « ما اكثر ما في العالم من مدن ومواني ـ لكني لا اهوى الا ميناء حبيبي ـ وحبيبي ليس له ثاني . » وكذلك تشبيهه لبركان فيزوف تشبيهات عديدة يستلها كلها من رعشاته النفسية : « منار في الظلمة ، مصباح يخفق في العتمة ، شفق واصيل لا ينضب ، هو باقة ورد يرفعها البحر التواق الى اعلى ، هو تاج من ذهب منصوب فوق جبين مشرق .. » انها قصيدة متوترة نابضة ، نتوسم لشاعرها غدا مشرقا .

ومثل هذا النبض نجده في « غرباء » لحسن فتح الباب ، وهي قصيدة حزينة يعكس فيها لاجيء مأساته بالضياع والغربة ، وتنثال مشاعره في اسى دامع . وتكرار كلمة غرباء في المقطع الاخير « ان تطلع شمس غرباء ، ان يهو شعاع غرباء ، غرباء في واديهم غرباء » يحمل لهجة تمزق لاذع يصور المدى الملحمي لهذه المأساة المريعة .

وتمتاز قصيدتا « لا تنتظر يا قمري القبيح » لهاني صعب و « اللقاء الاول » لمختار عبد الباقي ببساطة الفكرة وسلاسة التعبير وصدقه . والاولى تسجل تطورا بينا لدى الشاعر (وهو نفسه هنري صعب الخوري) يتجلى في اختيار الموضوع وتناوله واسلوبه . وهو حديث فتاة الى حبيبها ان يطرح الجبن ويسارع الى طلب يدها ، وفي الحديث عنف اللهجة المعبرة عن نقمة متحببة تجعل الفتاة تصف الفتى بالقمر القبيح ، وفيه صورتان بارعتان شبهت المتحدثة في اولاهما نفسها بانها اذا اكرهت على

مذكرات ايدن في كتاب

اشترت « دار مكتبة الحياة » لصاحبيها يحيى وكاظم الخليل مذكرات السير « أنطوني ايدن » رئيس الوزارة البريطانية السابق .

وستصدر « دار مكتبة الحياة » المذكرات في كتاب انيق ضخم ليتسنى للقراء في العالم العربي الاحتفاظ به كمرجع سياسي هام لأحداث هزت منطقة الشرق الأوسط .

ومعروف ان ما نشرته بعض الصحف في العالم العربي من المذكرات هو جزء ضئيل منها .

وسيكون لصدور المذكرات بكاملها في كتاب عن « دار مكتبة الحياة » أهمية كبرى .

« ودار مكتبة الحياة » هي وحدها صاحبة الحق في ترجمة ونشر وطبع وتوزيع هذه المذكرات ، ولا تتسامح في اي اعتداء قد يقع من جانب أي مؤسسة او فرد بالنقل ، ولو جزئيًا ، الى اللغة العربية ، ليس في العالم العربي ، بل في العالم اجمع .

الزواج ممن سترحب به والدتها فستقعد تحت سقيفه « كآهة مديدة ». وكذلك تشبيه قلبها بالسمندل ، وهو طائر بالهند يمكث في النار ويستلذ بها . غير اني وجدت تعبيرا نثريا ضعيفا في قوله « خمسة احلام ... يخبرنني انك في الاخير .. لي » واما القصيدة الثانية فجدتها في انها تستخرج من لقاء عيون خضراء سلسلة من المعاني تدل كلها على مولد خلقته هذه العيون ، وهو معنى مبتكر .

اما قصيدة « الافعى الغادرة » لنذير الحسامي فهي تفيض حقدا على امرأة مخادعة غادرة ، وتلتزم لهجة هجائية لاذعة تنفث الكراهية نفثا لا يقل عن نفث تلك الافعى لسمها . وهي قصيدة كلاسيكية تحتفظ بافضل مزايا الشعر العمودي من عبارة محكمة وصورة بليغة ولفظ مختار ، ولكنها لا تنجو من بعض نقائص ذلك الشعر من حيث ايراد بعض الصور التقليدية المكرورة .

بقيت قصيدة « الشمس والنمل » وصاحبها خليل الخوري شاعر له شخصية وفن . وهذه القصيدة تجربة شعرية جديدة آثرت «الاداب» نشرها ليبدي الشعراء والنقاد رأيهم فيها ، بالرغم من ان مراميها قد غمضت علي . واحب ان اسمع رأي الشاعر نفسه ، او رأي من فهمها وقيّمها .

الابحاث

تناولت الشاعرة سلمى الخضراء الجيوسي في مقالها « قضية الشعر العربي الحديث » دراسة شعرنا الحديث بلهجة متحمسة مؤمنة ، ليست لهجتنا اقل ايمانا منها بهذا الشعر ، وقد وضعت يدها على مزايا الانتاج الشعري الحديث في ادبنا ، وفصلت خصائصه ودافعت عن قضيته دفاعا رصينا واعيا . ومقالها جامع على قصره ، واضح كل الوضوح لا تنفذ منه اية لهجة عدوانية بالرغم مما يحيق الان بقضية الشعر الحديث من اخطار، ككل تجربة حديثة .

اما دراسة الانسة نازك الملائكة لرواية « الخندق الغميق » فنادرة هي الدراسات العربية المعمقة التي تضاهيها .

وهي دليل اخر على ان هذه الاديبة المبدعة ذات ضمير ادبي فذ ، فهي لا تستخف بأي موضوع تعالجه ، سواء اكان شعرا ام قصة ام دراسة ، وتبذل له قصارى جهدها ، فتبدو بذلك نموذجا للرصانة الادبية الجادة . وذلك يشتمل ، في دراساتها خاصة ، على جانبي التقريظ والتجريح جميعا ، اذ هي لا تطلق اي حكم من غير ان تقدم بين يديه ادلته وبراهينه ، مستقاة من الاثر نفسه ، ومن الحياة عامة .

وانا اشهد انها تعمقت رواية « الخندق الغميق » وعاشتها وحللتها كما لم يتعمقها ويعشها ويحللها كاتب ، على احترامي وتقديري لجميع ما كتبه عنها النقاد . وقد اشعرتني دراستها الواعية بشيء من الندم على اني لم اطلق لانفاسي العنان حتى اخره في هذه الرواية ، وانه كان بوسعي ان اضيف اليها اشياء كثيرة تلقي اضواء وظلالا اخرى على نفسية بطل القصة الرئيسي. وحسب الناقد ان ينبه الكاتب الى مثل هذا ليؤدي دورا خطيرا في الانتاج الادبي.

ولن اكشف جديدا اذا ذكرت بان كثيرا من المعاني والاحكام التي استنتجتها الدراسة من الرواية لم تخطر ببالي . ولكن ذلك لا يضيرها ولا يضيرني . فانا احسب اني كتبتها بصدق واخلاص ، وهذا كل همي . وللنقاد والدارسين بعد ذلك ان يحللوا ويستنتجوا ما شاءوا ، لاسيما وان مفهوم النقد قد تطور كثيرا بحيث تعدى التقريظ او التجريح الى توضيح الرموز وكشف الدلالات ، ولو كانت هذه الرموز والدلالات قد صدرت على غير وعي من المؤلف .

واقدر للانسة نازك ملاحظتها الهامة في التمييز بين دائرة الحياة ودائرة العمل الفني، فهذا دليل حسن مرهف في ادراك الحياة والعمل الفني جميعا وليس لي بعد ان اوافقها او اخالفها في تحليلاتها ، ولكن عندي بعض ردود توضيحية على بعض احكام لها احسب ان التوفيق قد جانبها فيها.

فهي تنفي مثلا ان يكون هناك صراع بين سامي وابيه . وتذكر دليلا على ذلك ان الاب لم يحل دون ان يترك سامي المشيخة او دون ان تخلع هدى الحجاب . والحق ان ترك المشيخة وخلع الحجاب ليسا الا نهاية او تتويجا لهذا الصراع الذي كان يقوم بين الاب وولديه في ميادين كثيرة تسردها الرواية . على ان اثبات هذه الحقيقة لا ينفي ان يقوم ثمة صراع بين سامي ونفسه ايضا .

وعلقت الناقدة تعليقا طويلا على اشارة المؤلف الى الحرب العالمية الثانية ، على اعتقاد منها بان هذه الاشارة لا قيمة لها ، بل هي تخالف الضرورة الفنية . وارى ان الانسة نازك لم تتابع ذيول هذه الاشارة . فقد وردت العبارة في السياق التالي : « وقسره ابوه قسرا بعد يومين على ان يرافقه الى حلب . وكان قد مرت عليهما ثلاثة ايام حين اعلنت الحرب العالمية الثانية ، فلم تتيسر لهما العودة الى المصيف الا بعد يومين وهناك وجدوا ان معظم المصطافين قد غادروا القرية ، والفى منزل سميا مغلقا .. »

ويتضح من هذا ان اهل حبيبته قد غادروا المصيف في اثناء غيابه بحلب ، في شهر آب (الشهر الثامن كما اشارت الى ذلك الناقدة) والمعروف ان المصطافين في جبال لبنان لا يغادرون المصايف الا في آخر ايلول . افلا يعني ذلك ان قيام الحرب هو الذي فصل بين الفتى وحبيبته،

وحرمه من رؤيتها طوال شهر على الاقل ، مما كان يمني نفسه به ؟ والحق ان هذا الفراق المفاجيء قد قصّر مدة شهر كامل اجمل فترة عاطفية في حياة الفتى ، لان هذا الفراق كان شبه ايذان بانتهاء الحب ... وعلى هذا تكون الحرب هي التي جنت على هذا الحب .. أفليس هذا مبررا كافيا للتوقيت وللاشارة الى الحرب ؟

ثم ان من المفهوم ان قضية الحرب وتأثيرها على الوطن وما الى ذلك ، خارج كله عن منطق وعي الفتى المراهق . ان كل ما همه ان هذه الحرب حرمته من حبيبته ، فكانت حدثا هاما في تاريخ عاطفته . ولعل خير تفسير لذلك ، العبارة التي تلي فورا العبارة المذكورة اعلاه ، ونصها : « وحين استقلوا السيارة ، القى على الشرفة العليا نظرة اخيرة اغرورقت لهـا عيناه بالدموع .. » وذلك ارهاصا منه بضياع هذا الحب الرائع ، من جراء قيام الحرب .

واحسب ان النص على اصابة سامي بالتيفوئيد لم يكن ، هو ايضا ، شيئا نافلا لاضرورة له . فقد ادت هذه الاصابة الى دفع « رفيق » لزيارة صديقه في بيته ، ولتكرار هذه الزيارة في اثناء مرض سامي وبعده . وقد كان ذلك فرصة لقاء رفيق بهدى وقيام ذلك الحب الذي شغـل حيزا ذا شأن في القسم الثاني من الكتاب .

ولا ادري كيف وجدت الانسة نازك ان استعراض ذكريات حيـاة سامي المدرسية في المعهد الديني « لايضيف الى احداث الرواية شيئا ، ولا يلقي حتى لمسة تحليل على سيرة سامي نفسه » الا توحي الصور التي رسمها بفكرة كافية عن ضحالة التعليم الديني وانعدام قيمته على الشكل الذي كان يعطى فيه ، وعدم جدية الدراسة اجمالا ، مما سيزهد سامي بالدراسة الدينية ، وييسر له ، الى جانب عوامل اخرى ، خلع الجبة والعمـة ؟

وذكرت الناقدة ، في معرض التساؤل عن دافع المؤلف لتغيير لهجة الحديث بين القسمين الاول والثاني ، ان القسم الاول كان « يتبع الاسلوب المسمى بالمونولوج الداخلي ، وفيه تابع المؤلف عـواطف سامي وافكـاره بضمير الغائب ... » واعتقد ان في هذا الكلام خلطا واضحا . فالمونولوج الداخلي هو الذي يتحدث فيه البطل مع نفسه ، ويحللها ويسائلها ويرد عليها ، وهذا ماتعنيه كلمة « مونولوج » اساسا . والمعروف ان المؤلف حين يعمد الى هذا الاسلوب ، يتنحى عن الرواية والسرد ليجعل البطل نفسه يروي ويسرد ، وليس الامر كذلك في القسم الاول الذي يروي فيه المؤلف الاحداث بضمير الغائب . وتأتي هنا المناسبة لتوضيح قصدي مـن جعل القسم الثاني مكتوبا على لسان هدى . فانا اعتقد اولا بان ضمير المتكلم اقدر والصق بطبيعة الحياة من ضمير الغائب على التعبير عـن الخلجات ، ثم اني اردت ان القي الضوء على سامي من جهة منحازة ، مشاركة ، هي جهة هدى ، بعد ان كانت اللهجة في القسم الاول محايدة ، بعيدة . وتسليط الضوء بهذا الشكل يكشف جوانب اخرى من نفسية البطل ، وهذا ماتنبهت اليه الانسة نازك . وقد احسست بعد ذلك ، حين فرغت من كتابة القسم الاول ، بان سامي ، على كونه يظل البطل الرئيسي في القصة ، مدعو ، بعد هذه الفترة من تاريخ تكونه ، الى امرين متوازيين : ان يتابع تطور نفسه ، وان يعي وضعه في اسرته . والحق انه قـد بدأ يعي ، فاصبح يفهم ـ ولو فهما غامضا ـ بان عليه ان يؤثر علـى محيطه وعلى افراد اسرته ، ولا سيما على هدى التي كانت بطبعهـا وشوقها للعلم اقرب الناس اليه ، ومن وجهة نظر فنية محض تراعي حرارة اللهجة في الحياة ، فضلت ان اجري الكلام على لسان هذه التي «تتعرض» للتأثير ، فتكون اقدر على تصويره وتقديره ، وهي التي تعيشه ، مـن راو محايد .

وقبل ان افرغ من هذه النقطة ، اود ان اعلق على قول الناقدة : « ومن الحق ان نلاحظ ان ذلك يفاجيء القاريء مفاجأة غير هينة « .... » وقد كانت المفاجأة تهون لو ان المؤلف تحدث عن هدى بالمونولوج الداخلي كمـا تحدث عن سامي . »

وأقول متسائلا : متى كان المطلوب من الروائي الا يفاجيء قارئه ؟ وهـل من المرغوب فيه ان يحاذر المؤلف مفاجأة قارئه ، وان يراعي كل مايحدس به وكل مايتوقعه ؟ وايا ما كان ، فاني احاذر شيئا اخر ، هو الذي تمنته الانسة نازك لتهوين المفاجأة : ان اتحدث عن هدى كما تحدثت عن سامي. فانا اعتقد بان افسد ما يفسد التكنيك في رواية اوتوبيوغرافية ان يتحدث المؤلف عن ابطاله واحدا واحدا . وانما ينبغي ان يبرز الابطال جميعـا من خلال البطل الرئيسي ، عبر افكاره ومشاعره .

بقي امر اخير الحت الناقدة عليه الحاحا شديدا في اثناء حديثها العميق عن مراحل التطور لدى سامي ، وهو امر الصراع بين داعي الواجـب وداعي الحياة في النفس . فانا لا افهم اصرار الانسة نازك على نصب هذا الصراع ، واقامة سد منيع بين الواجب والحياة . فهل يمتنع على انسان ان يوفق بين داعي الواجب وداعي الحياة ؟ اليس ثمة من يؤمـن بان الحياة الانسانية الحقة الرائعة هي في ان ينقاد للواجب عن طـوع واختيار ؟ وانه حين يقصر في الواجب ، يلح عليه ندم وتبكيت ضميـر تبدو الحياة نفسها معهما شيئا لايطاق ؟ ان الانسة نازك تجعل الحيـاة نقيض الواجب ، كما لو ان الحياة لاتدعو الا الى عدم الاضطلاع بالواجب ، والى الاستسلام للضعف والنزوة . ولست ادري ان كانت الحياة هـي هـذا ، وليست غير هذا !

وكذلك الرأي في وضع المثالية والانسانية على طرفي نقيض ، كأنما يستحيل على المثالي ان يكون انسانيا ، والعكس بالعكس .

ولا بد لي اخيرا من ان اعود فأدعو النقاد الى احتذاء هذا النموذج الرائع في الضمير الادبي الواعي ، ازاء كل عمل من انتاجنا الحديث . فما احوجنا الى مثل هذه الدراسات ، وكم سيكون لها من شأن في تاريخ النقد الادبي عندنا .

الناقد : ضمن محمد عبد الله الشفقي هذه الدراسة خواطر متناثرة عن الناقد ، فبين انه فنان ازداد ادراكه وفنه بوعيه ، ففقد السذاجة والغرابة والجهل المفروضة في كل فنان ، وتحدث عن المجاملة التي تؤدي الى حاجة الناقد الى العزلة والترفع ، وعن موقف نقادنا من نظريات النقاد الاجانب ، وطالب بان يقول النقاد العرب رأيهم في الآثار الاجنبية . ولكن الكاتب انكر على الناقد ان يستخرج ماليس في الاعمال الادبية ، وهذا موضع نقاش . فانه يحق للناقد في رأينا ان يستوحي الاثر الادبي م شاء، والناقد الحق هو الذي يعني باثارة الاثر وكشف جوانب الغموض فيه وتعليل الاحداث وربطها بالمعطيات المادية والنفسية للكاتب واستيلادها واستخراج الجمالات اللاواعية في الاثر الادبي . والمقال طيب بالاجمال ، رغم افتقاده الخيط الذي يلم البحث في هيكل متناسق .

واشير اخيرا الى بحث بعنوان « الادب بين الواقع والوجدان » بقلم يوسف حوراني ، وقد وجدت فيه اطلاقا للاحكام غير مبرر . فهو مثلا يشجب الواقعية الحديثة كليا من غير ان يقدم لهذه النزعة تعريفا بسماتها ومظاهرها . ولسنا ندري كيف استنتج الكاتب بان هذه الواقعية تطلب من الفنان ان يصبح انسانا عاديا في نظرته للاشياء والاحداث ، كما اننا نرى قوله « ان الفن هو بطبيعته هروب من الواقع » امرا قابلا للنقاش ، فالفن ليس هو الواقع حتما ، ولكنه ليس هروبا من الواقع كذلك . انه قد يكون تجاوزا له ، ولكن هذا التجاوز ينبغي الا يتناقض ومعطيات الواقع حتى لايفقد صلته بنسغ الحدث الانساني ، فيسقط في الخيال المحض . وقد كنا نود من الكاتب ان يوضح لنا مفهومه الحقيقي « للوجدان » لنتمكن من تقييم دعوته الى ما سماه «الواقعية الوجدانية».

القصص

قصة سليمان فياض « اللص الحارس » قصة غير عادية ، قصة غريبة ، ومن غرابتها تنشأ قيمتها . ثلاثة اشباح يتحركون في الظلام : لص يسرق ليعيش ، وسائق لوري يساعده ليعيش ، وحارس يحرس ليعيش . انه صراع من اجل اللقمة . ويقتل الحارس اللص ، لانه لو لم يفعل ، لقتله اللص ، اما السائق فيفر بسيارته . ومقتل اللص هو الذي يثير فكرة القصة : بشاعة هذه الحياة التي تبعث على التقزز والاشمئزاز . لقد اخذ الحارس ، بعد ان قتل اللص ، يتأمل عينيه المفتوحتين بلا معنى ... وشعر بحنان نحوه ، وقال لنفسه : « أهذا هو الموت اذن ؟ » ومن هذه العبارة تنبثق فلسفة القلق الوجودي الذي يحس به كل انسان تمزقه مفارقات الحياة . فنحن نشعر بعطف خاص على اللص الذي كان بوسعه ان يقتل الحارس ، ولكنه لم يفعل لانه لم يكن يقصد الى الشر ، وان كان يريد السرقة ليعيش . وهكذا ينبعث من القصة في نهاية الامر ، لهجة تشاؤم من هذه الحياة الظالمة المؤسة .. كل ذلك ، من غير موعظة او خطاب اخلاقي . انك تحس به احساسا باطنيا صادقا .

وقد كتب سليمان فياض هذه القصة بلهجة واقعية جافة ، حادة ، صارمة . وكانت الاحداث هي التي تتكلم . ونحسب انه لو لم يتحدث تارة عن نفسية اللص وتارة عن نفسية الحارس ، فبرز كمؤلف يرصد الاحداث ويصفها ، واشعر القاريء بوجوده ، لولا ذلك ، ولولا ان اللغة كانت تقصر احيانا وترك ، بالنسبة لمتانة البناء ، لخلت القصة من اي مأخذ .

ومن الغريب والطريف ان نقرأ في العدد الماضي نفسه قصة اخرى بعنوان « حادثة نشل » بقلم صابر الحضري تشبه شبها عجيبا قصة « اللص والحارس » بما توحيه من تفكير وتأمل . وهي حكاية نشال في اوتوبيس ينشل محفظة نقود رجل عجوز كان عائدا على التو من العمل الذي اقيل منه وصرفت له في ذلك اليوم مكافأته . وحدث بعد ان نشل عزيز العجوز حامد ، ان سمعه يحدث نفسه بصوت منخفض عن اسرته وفقره ومشاريعه لانفاق المال وانقاذ افراد عائلته ، فتأثر لذلك وقرر ان يعيد له المحفظة ، « فيفعل الخير لاول مرة في حياته » ولكن حامد تنبه فجأة لضياع محفظته ورآها في يد النشال المرتجفة فانقض عليه ، واستعدى عليه الناس الذين اخذوا يضربونه ، واستاقه شرطي الى القسم وهو يصفعه .. « فأحس وهو يصفع ويضرب بدمعة حائرة تهبط من عينه ، وما لبث ان ابتسم في شماتة وهو ينظر الناس .. »

ان هذا الموضوع يثير ابتسامة سخرية من نزعة الخير لدى الانسان : فلو لم يتأثر النشال لحال حامد لفاز بالمحفظة وانقذ نفسه من الاعتقال والاهانة . ولهذا نراه يبتسم بسمة شماتة .. شماتة من نفسه لانه ترك لعاطفته ان تشفق على ذلك المسكين الذي نشله .. والحق ان القارىء يتنازعه شعوران وهو يقرأ نهاية هذه القصة : شعور انساني بالعطف على النشال الذي تأخذه الشفقة على ضحيته ، فيستعد للعدول عن النشل ، وشعور سوداوي يزيل ذلك الشعور الانساني اذ يحمل القارىء على تصور بشاعة هذه الحياة التي لاتتيح حتى للاشرار ان يعدلوا عن ارتكاب شرورهم .. وفي هذا سخرية من الحياة نفسها . وانا اعتقد ان القارىء يؤثر لو انهى الكاتب قصته عند الاحساس الاول ، لينتصر الشعور الانساني ، وان كانت الحياة حقا تخلق احيانا لدى الانسان مواقف غير انسانية . ولكن متى كان القصاص ملزما بتصوير معطيات الحياة تصويرا فوتوغرافيا ، وبعدم تجاوزها ؟

والمأخذ الذي لاحظناه على القصة السابقة ، نلاحظه على هذه القصة، وبصورة ابرز ، فقد كان الكاتب يظهر ظهورا مزعجا حين يتحدث تارة عن حامد ، وتارة عن عزيز ، فيشعر القارىء بان عينه ترصد الحركات ، وقد كان بوسع الكاتب ان يصف كل شيء عبر نفسية النشال عزيز ، وكان بوسعه ليشرح وضع حامد ، ان يجعله يتحدث مثلا مع زميل له صعد الاوتوبيس بصحبته ، فسمع النشال قصته بصراحة ، من غير ان يفطر الى جعله يتحدث مع نفسه ، وهو موقف لايخلو من غرابة .

واما قصة « الثلج والشرف » لعثمان سعدي فتصور بعض مايعانيه الجزائريون الابطال من ظلم المستعمرين الفرنسيين وعدوانهم ، فتاة يطاردها الجنود بين الثلوج ،فتشل قدمها من شدة البرد والجري هربا من ان يعتدي الجنود على شرفها . غير ان تناول الموضوع ضعيف ، والجانب الفني فيه باهت ، لان لهجة التقرير والموعظة غالبة عليه .

سهيل ادريس

كلنا ... في «الخندق الغميق»

بقلم سميرة عزام

لعلنا لا نتجنى على الحقيقة لو نحن قلنا بان الرواية والقصة العربيتين لم تنالا من عناية النقاد ربع ما منحه هؤلاء للشعر وقضاياه في السنوات العشر الاخيرة ، فقد برزت قضايا الشعر بصورة باتت معها محور هذا الجدل الادبي الذي يدنو من هذه الموضوعية ، في حين ظل الانتاج الروائي والقصصي عموما بعيدا عن هذا المجال ، لاسباب لا يمكن تعليلها بشكل مقتضب باكثر من القول بانه لم يملك ان يطرح قضاياه ببداءة مثيرة كقضية الشعر الحر ، التي كانت مفتاحا لكل هذه الدراسات والمحاكمات التي انصبت على الشعراء وانتاجهم الشعري ، لذا فظهور دراسة رصينة قيمة لعمل روائي ، كدراسة الانسة نازك الملائكة لرواية الدكتور سهيل ادريس « الخندق الغميق » ، خليق بان تعقبه دعوات تلح على ضرورة المزيد من الاحتفال بالعمل الروائي ، فالجهل باي عمل ادبي - كما يرى الناقد الاميركي (راي وست) - لا يكون نتيجة افتقاره الى خاصية معينه، اذ انه لا يملك ان يشق طريقه الى العالم من تلقاء نفسه ، بل يتلبث هادئا في انتظار الاعتبار الذي يستحقه ، فاذا ما فشل في الحصول على هذا الاعتبار، كان مبعث ذلك ظروف عدم الادراك المحيطة به .

وليس من شك في ان دراسة كهذه قد اقتضت جهدا يكاد يدنو من جهد كتابة الرواية نفسها ، ولكن ايفاء اي عمل حقه ، والخروج به من جو « عدم الادراك » ، يقتضي بالطبع مثل هذا التوافر الدقيق .

وبعد، ليست هذه دراسه اخرى للرواية بالمعنى الشامل، فالتقائي مع نازك في كثير من النقاط في مجال الموقف النقدي للرواية ، يجعلني ابدو بمظهر من يحاول السطو على اجتهاداتها ، ولكنني احب ان اقف وقفة خاصة على احدى المراحل التطورية التي قسمت نازك نمو شخصية « سامي » ، بطل الرواية ، على اساسها

لقد حددت نازك مرحلة تطور سامي من نقطة «الواجب» الى نقطة « الحياة » باربع مراحل :

ا - مرحلة الانقياد الكامل لاراء ابيه

ب - مرحلة التأمل غير الواعي

ج - مرحلة التمرد غير المدروس

د - مرحلة التمرد الفكري المدروس الذي ينبع عن تصميم وارادة وادراك واع وتتمثل في خلع سامي للجبة والعمة .

والواقع ان هذه المرحلة الرابعة تحتمل مزيدا من المناقشة حول اصالة هذا التمرد ، وهل جاء بالفعل نتيجة تمرد فكري مدروس ، وهل كان الحظ الفكري في عملية الصراع الذي ادى الى هذا التمرد مساوقا لردود الفعل الاجتماعية من عمته وجبته ؟

للاجابة على هذا السؤال يتعين علينا ان نتتبع خطين في حياة سامي قبل لبس الجبة وبعدها . خط ردود الفعل النفسية لصورة الشيخ الظاهرية ، ثم خط المؤثرات الفكرية المختلفة التي ادت الى نوع من هزة الكيان العنيفة ، التي جعلته ينبذ صورة الشيخ هذه .

والحقيقة ان الحافز الانفعالي ، انفعال سامي بالجو العام لبيئته ، وبيته بصورة خاصة ، كان دافعا لدخوله المعهد الديني بشكل يكاد يفتقر الى ارادة الوعي . فهو ابن شيخ اعتاد ان يقيم السهرات الدينية في بيته ، حيث تتلى السيرة النبوية والقرآن باصوات « ذات ارنان ذهبي » ، تدفع الفتى سامي الى ترقب تلك السهرات ، ليعيش ثانية في ذلك « الجو الذهبي العجيب » . وهو حساس ينفعل بالصوت الجميل فيقف دقائق يرهف اذنه ويتمايل مع انغام الاذان حين يصعده صوت جميل .

ولعل سامي احس لنفسه باهمية خاصة حين افسحت له (الجماعة) التي تترد على سهرات ابيه الدينية مكانا بينها ، بل وحثته على أن يحفظ عشرا من القرآن يرتله في سهرة قادمة .. ثم كافاته ، اذ نجح، بمصحف صغير مذهب الحواشي . ورغم انني من رأي نازك في عدم اعطاء حادثة الشيخ ذي العكازين الذي طارده اهمية معينة ، واعتبارها سببا مباشرا لدخوله المشيخة ، الا انني لا استطيع أن اغفل تأثيرها النفسي عليه في تكثيف انفعالاته ، ومن ثم انجذابه الى ذلك الجو الغامض المسحور. كل هذا الى جانب ترحيب ابيه بالفكرة وحثه عليها كلما رأى مناسبة لذلك (لقد قدر عليه وكتب على جبينه ان يكون شيخا مثل ابيه) و(العمامة تاج العرب) ثم ان سيطرة فكرة«الواجب» على مسلكة العام قد دفعته الى دخوله المعهد راضيا متلهفا لساعة يبدو فيها شيخا رصينا ذا جبة وعمامة .

ثم تبدا مشكلة مع الجبة والعمامة ، ويبدا احساسه بانه مع هذه الجبة والعمة لا يحيا الحياة الطبيعية التي يحياها ابناء جيله ممن اختاروا لانفسهم غير الطريق التي اختار . والشواهد التي ساقها المؤلف على احساسه هذا كثيرة، فقد جندها ببراعة لتفرض علينا التعاطف مع موقف سامي حين قرر نبذ الجبة والعمامة .

موقف اخوانه - وهم طلبة دين مثله - حين لبس جبته وعمته فبدا منظرها على سامي الضئيل الجسم مدعاة للضحك ، احساسه بثقل الجبة على كتفيه والعمة على راسه واضطراره الى ان يكون رصينا فلا يمشي على عجل مثلا ، او يحاول القفز الى الترام .

نظام المدرسة الذي يقضي بحلق الرؤوس فلا تكون للمشايخ شعور صقيلة .

انفصاله عن رفاق طفولته بهذا الحاجز الضيق ،واحساسه بالوحدة . معابثة صبية الحي له وهم يلاحقونه بندائهم « شيخ صغير ، شيخ صغير » حادث المراة التي تراه ماشيا بالجبة والعمة فتستمهله حتى تدعو اختها فتتفرج عليه» .

حرمانه مما تفرضه الغريزة من التلفت الى الجنس الاخر .

هذه العوامل كلها وغير ذلك مما لايتسع المجال لايراده قد ضغطت روحه بشكل زهده في التصدي لهذه الانظار التي تتجه اليه « مستفهمة او مشفقة او ساخرة » كأنما هو ظاهرة غريبة . ثم تأتي عاطفته لجارته « سميا » فتزيده احساسا بوطأة تلك القيود « ارجوك ، لاتذهب معي فانت شيخ » .

ودفاعه المفتعل بقوله « ان الشكل لايؤثر على الجوهر » لم يكن يملك الاساس العقلي ، بدليل انه هو نفسه لم يكن مقتنعا بهذا الكلام ، والا فلماذا حرص على ان يخلع الجبة والعمة ، قبل ان اتجه الى منزله في المريجات ، المجاور لمنزل سميا ؟

هذا **المظهر** كان سر عذابه ، وكان الرمز لكل ردود الفعل الاجتماعية المعاكسة التي سحقت انسانيته .. وانتهت به الى التمرد على هذا الرمز .

بتتبعنا لهذا الخط نستطيع ان نلمس ببساطة ان تمرد سامي كان تمردا **انفعاليا** يمتلك من البعد النفسي اكثر بكثير مما يمتلك من البعد الفكري ، ولكننا لانستطيع ان نفرض هذا ببساطة قبل ان نعود فنتتبع المؤثرات التي يمكن ان تنهض كعوامل لتكوين اي موقف فكري له .

لا جدال في ان صغر سن سامي حين دخل المعهد كان كافيا ليؤكد بانه اذا كان ثمة تفاعلات فكرية فانها تكون قد حصلت في الفترة التي تلت دخوله المعهد ...

فما هو مستوى هذا المعهد العلمي اولا ؟

لقد استطاع المؤلف بفصول شائقة لعلها امتع ما في الرواية ان يكشف عن تفاهة ذلك المستوى ..

« كان يضيق ذرعا بدرس المنطق ولا يكاد يفهم منه شيئا ، وكان المدرس يحفظه فيردده عليهم احكاما وقواعد جافة لايمثل لها بشيء من حياتهم » .

« اما درس الحديث فقد كان يقذفهم في حيرة وتململ شديدين . ذلك ان المدرس كان يأتيهم كثيرا بما يشبه الخرافات على انها من صحيح الحديث » .

واما الادب العربي فقد كان مهزلة تدعو الى الرثاء على يد الشيخ الفرفور الذي لم يكن اكثر من نجار دمشقي . ولما اعفى المعهد فرفورا هذا من مهمته حل محله مدرس سوري كانت دروسه على حد تعبير المؤلف « هي التي كهربت روحه بالموهبة الادبية ورسمت له طريق مستقبله » .

هكذا كانت الدراسة في المعهد ، ولقد ابدى سامي غير مرة انه لم يكن ينفعل بها ، وانه كان يتلقاها غير حفي ، وانها لم تكن قط قادرة على ان تروي ظمأ روحه الى المعرفة والحياة ..

فهل ثمة مؤثرات من نوع اخر ؟

لقد اشار سامي الى ان المعهد كان يدرس الفرنسية بمعدل ساعتين في الاسبوع ، فصمم على ان ينصرف الى المطالعة في الكتب الفرنسية ، ولكنه لم يكشف لنا عن حوافز الاستزادة او عن طبيعة تلك القراءات .

وكانت هناك مكتبة المعهد التي كانت تردها عشرات الكتب عربية واجنبية .. وكان هناك عزيز .

الواقع ان عزيزا في الرواية يمثل الكوة التي كشفت امام عيني هذا الفتى عالما اكثر تحررا وانطلاقا من عالمه المتزمت الضيق . ولعله بوحي من موهبته وذكائه الفطريين كان ينساق وراء مقارنات لا نهاية لها . ولعل تجربته المتمثلة في قطعة الرثاء التي كتبها اثر وفاة صديقه عزيز ، والتي بعث بها الى المجلة التي كان عزيز ينشر فيها قصصا مترجمة ، كانت اللمسة الروحية التي اكدت في نفسه الشعور بانه اكبر من هذا المعهد ، وان دنياه غير هذه الدنيا فبات يشعر بان الدروس تثقل عليه ، وانه لايجد لها مذاقا ولا لذة . وان المدرسين لم يفقهوا من الدين الا قشوره ، وانهم جلهم لايملكون اية ثقافة تمكنهم من القاء دروس مفيدة فاحس بانه ينفصل رويدا رويدا عن جو الدروس ليخلق لنفسه جوا خاصا يعيش فيه الادب والمطالعة .

هنا يحق للقارىء ان يناقش الاحداث وهو مقتنع ضمنا بان الفتى سامي قد تأثر بما يقرأ ، وان هذه القراءة قد قلبت مفاهيم كثيرة في ذهنه فيسأل ... ترى ما هو الموقف الفكري الذي اخذه سامي من « الله » حين قرر ان يخلع الجبة والعمة ، وان ينصرف بالتالي عن التعليم ؟

هل كونت له قراءاته ودراساته وتأثره بعزيز بعدا فكريا ساعده على ان يناقش « الدين » على صعيد فكري او هل هي قد خلقت فيه لونا من التشكك ـ الذي يداخل الشباب حين يؤخذون بكثير من الافكار التي تتناول الغيبيات ـ ساعد فيما بعد على اتخاذه تلك الخطوة ؟

اننا نجده يدخل المعهد ويتركه دون ان يحدد علاقته بالله باكثر من هذه العاطفة الانفعالية التي دفعته منذ البدء الى دخول المعهد ، وقد لايكون من حقنا ان نطالبه بهذا الموقف لو انه لم يتمرد على موقفه الخاص ، فمقومات الايمان لدى الاكثرية لاتقوم على اكثر من العاطفة الجارفة التي تأخذ الاشياء كمسلمات ، والتي لاتعني بان تفلسف اي شيء .

ان نزع الجبة له اكثر من دلالة تغيير الزي ، واذا كانت نازك قد عللته بانه لون من الردة على الاخلاص للاخرين ، رغبة من البطل في ان يخلص لنفسه اولا ، فاننا لا نستطيع ان ننسى ان هذا الاخلاص للاخرين كان متداخلا تماما مع اخلاصه للمثل الروحية ، فاقدامه على هذه الخطوة كان جديرا ان يثير مناقشات طويلة فيما بينه وبين نفسه ، حول هذه المثل الروحية ، وموقفه منها بعد ان قرر نبذ المشيخة .

ناحية علاقة الفتى بالله ، لا بالمعهد ، ـ التي اغفلتها الرواية ـ هي حلقة اساسية من حلقات الصراع التي تتعلق بانسان كان يعد نفسه ليكون رجل دين . اما لماذا لم تبرز بالشكل المفروض في خط الصراع ، فسؤال كان يجب ان يجد جوابه في دراسة نازك التي مالت الى اعتبار « المرحلة الرابعة » مرحلة **تمرد فكري مدروس** ، ولا شك ان الشمول الذي توحي به تسمية المرحلة كان يقتضي عدم التغاضي عن هذه الثغرة .

وبعد ، ان اقتصاري على التعقيب يجعل نفاذي الى الجوانب الاخرى المبدعة في الرواية امرا غير ذي مناسبة الان ، فلعلي اعود الى ذلك يوما ما ، ولعل غيرنا يفعل ذلك .

سميرة عزام





ان(١) كثيرا من افكار كامو السائدة تحمل السمة الواضحة لاصوله المتوسطية (٢). فمثله في ذلك مثل غرينييه ومونترلان الكاتبين اللذين أثرا تأثيرا واضحا في اوجه معينة من تفكيره - ، اذ هو يفصح في كثير من اعماله عن موقف معين حيال الحياة ، يرتبط باقطار مثل الشمال الافريقي واليونان وايطاليا التي تتمتع جميعها بمدنيات متطورة قبل عصر المسيح . فالشمال الافريقي ، بصفة خاصة ، لم يتعرض تعرضا ذا اهمية لتشنجات اللذة المادية ، او النزعة الحسية عموما ، خلال العصور الوسطى . ويؤكد كامو ، بوجه خاص ، على الحسية العفوية، في اثاره الاولى . ففي احدى المقابلات التي اجراها منذ بضعة اعوام، وصف نفسه - ومازال - (٣) بانه انسان يعي مسؤوليته الخاصة التي يتحملها لانه قد ولد في عصر مسيحي ، وفي ارض تحتفظ بقوة وعنف بالتقاليد الوثنية . فقد قال بان ظروف ولادته قد جعلته مشدودا الى قيم العالم القديم بوشائج هي امتن من الوشائج التي تشده الى القيم المسيحية . وقد بقي هذا الوجه من اوجه تكونه الاول ذا اهميه دائما . فسفره في الخارج واقامته المستمرة في فرنسا منذ عام ١٩٤٢ قد زادنا من ادراكه لانشطاره الوثني - المسيحي والجنوبي - الشمالي ، ومن الطريف ان نرى ان اوربيا يضع هذا التمييز ، فيتناوله من وجهته المعاكسة اذ يقول :

« ... في الجزائر نفسها ، وبعد الامعان في العبور الى ما وراء اطلس الى الصحراء ، يدرك المسافر بانه قد خلف اوربا وراءه بعيدا ، وهو لم يخلف وراءه الوحدة الجغرافية وحسب ، ولكنه خلف وراءه الصرح المسيحي الاجتماعي ، الاخلاقي ، الثقافي المعقد باسره ، والتنظيم والاعراف المشروعة وجميع حضارات القرون . واذ يدخل المرء عالما مختلفا بعيدا على هذا النحو ، ليست له به سوى اضأل الصلات ، وليست لشخصيته الاعتيادية سوى اضأل المعاني والمواضيع ، فانه عندئذ سيحس بالفراغ يمتلكه ، وسيستشعر بانه حر - ان صح هذا التعبير ، في ان يخلق من البداية لنفسه فكرا ودينا وقوانين واخلاقيات خاصة .

كتب هذه الكلمات البروفسور بيسون وهو بصدد تعليقه على الوثنية الحماسية المستحدثة والمصطنعة ، نوعا ما ، التي نادى بها اندريه جيد . ولعل هذه الكلمات ايضا ، تلقي بعض الضوء على الوثنية المستحدثة التي نادى بها كامو والتي هي اكثر عفوية من غيرها ، ولو انها مصطنعة ايضا الى حد طفيف .

وبعد الشمال الافريقي ، يحس كامو بشعور عنيف تجاه اليونان مواطن القيم المتوسطية التي يعجب بها كامو ايما اعجاب ، والتي وجدت تلك القيم اكمل تعبير عنها في هذه البلاد ، ولعلها ما تزال كذلك . ففي مقال موسوم بعنوان « منفى هيلانة » كتبه كامو عام ١٩٤٨ ، ضم بعد ذلك الى مجموعة « الصيف » ، يقارن فيه كامو بين الحضارة الرعوية (الباستورالية) لليونان القديمة وحضارة اوربا المتمدينة القلقة الحديثة. فهو يمتدح ذلك الاعتدال المتشكك في الفكر اليوناني القديم ، اذ يفسره على حساب ما يسميه بالمطلقية الفكرية الحديثة . وهذا الشكل الخاص من اشكال الحنين التاريخي ، لم يكن في حد ذاته ، من الامور الجديدة، اذ طالما اعرب عنه بمعايير متشابهة تشابها كبيرا . وحالة كامو هذه ليست حالة شائعة مألوفة ، اذ هو يعرض هذه النقاط من زاوية تنتسب الى العصبية المتوسطية ، بيد انها تكاد تكون غير مطروقة من قبل ، وهو يتحدث عنها حديث العارف بالاسباب ، كما يلح ، اكثر من ذلك ، على ان اهم ملامح تراثه المتوسطي قد تكون ذات قيمة واثر في العالم الحديث. وهي تلك الملامح التي تتصل اول ما تتصل بطرائق التفكير ، وباساليب التنظيم الاجتماعي على نحو غير مباشر . ويقترح اخيرا ، الاخذ بما ندعوه نحن ، بحق ، بالطريقة الاغريقية في الحياة ، التي يفضلها على التراث المسيحي الاخير ، باعتبار ان تلك الطريقة الاولى هي أفضل امل لاوربا اليوم . وهذا موضوع يثير الاهتمام والدرس ،سنناقشه فيما يلي ، بيد اننا سنحصر همنا هنا ، بالتعبير الاول عن هذه الافكار في آثار كامو الاولى .

تكشف لنا مقالات كامو الاولى عن صفحتين رئيسيتين هما : الحادية غريزية ، وتأكيد مستمر على التجربة المادية للفرد في بيئته . وفي هذه

(١) من كتاب « البير كامو وادب التمرد » .

(٢) نسبة للبحر المتوسط .

(٣) اصدر هذا الكتاب قبيل مصرع كامو .

المرحلة ، يناقش كامو اقصى الطرفين للخيبة الفكرية والاستمتاع الحسي. فهو دائم الاشارة لعلاقة التناقض القائم بين « فزع الموت » و « متعة الحياة » . وهو يبحث في ذلك عن وسيلة للمصالحة والتوفيق بين هاتين التجربتين ، وذلك عن طريق وسط بين هذين الموقفين المفرطين المسرفين فكرا وفعلا . ولقد احس الاغريق احساسا عنيفا بهذه الثنائية الحادة في الحياة ، فيما وضعوا ايضا من طرائق للفكر تخفف من حدة الصراع الفاجع بين قوى العقل . فكامو هنا يلجأ الى الاغريق بغية تأكيده واقعية معضلته ، ولكي يجد عندهم التوجيه الممكن لوضع حل لهذه المعضلة . ففي تلك المقابلة والتي سبقت الاشارة اليها يقول : « اليونان ظل ونور ، واننا نحن ابناء الجنوب نعلم حق العلم ان للشمس جانبها المظلم . » ويضيف ايضا ان الفكر الاغريقي يحدد نفسه دائما عن طريق الرجوع الى الحدود المتعارضة ، ومن ثم تهيئة ادراك واضح للحدود المتناظرة ، مع مثال من امثلة الاعتدال التي يمكن ان تضم الطرفين ، وتقلل حدة الصراع بينهما ان لم تقض عليه . هذا هو الموقف الاغريقي ، الذي انسحب على تجارب كامو الشمالفريقية التي ادخلت على مقالاته الاولى تناوبا مستمرا، بين الرغبة في الحياة ، والفزع من الموت ، بين التمجيد الحسي وصرامة الفكر ، بين الغنائية « الليريكية » والتنسك . فهذا الدمج الذي انتهى اليه كامو بين الجذل واليأس قد امده ، في النهاية ، باسس التمرد . بيد انه قد انتهى به ، اول الامر ، الى موقف يترنح بين الرضوخ والانعزال الرواقي . اما الحكمة التي نجمت عن هذه المقالة الاولى ، فقد كانت عقيدة من عقائد العزلة والاستقلال المتشامخين المريرين . وهكذا فان تلك الكبرياء المريرة هي ، في جوهرها ، نتاج البحث الفاشل عن السعادة ، اذ هي تمثل الاكتشاف الاولي عن ان السعادة لا يمكن تحقيقها بسهولة ويسر عن طريق الاخذ بخط معين من انماط التفكير الشفيف . ومن المهم ان نلاحظ هنا ان المرء لا يمكنه بسهولة ان يقلع عن البحث عن السعادة ، كما لا يمكنه ان يستبعد استبعادا كاملا الايمان بامكانية تحقيق هذه السعادة في نهاية المطاف . ولقد الح الكثيرون من قراء كامو الحاحا شديدا على القساوة التي ينطوي عليها تشاؤمه . ومن بين هاتيك الخصائص المميزة لتشاؤمه هي تلك الحقيقة القائلة ان هذا التشاؤم دائم التكون ، لكي يقف حيال بيئة متوسطية مشرقة الشمس . وهو في الوقت ذاته ، يختلف بهذه الخصائص عن تشاؤم سارتر الالماني من حيث وحيه واستلهامه ، واظن ان كامو قد اصاب في الحاحه على ان الاستجابة الشخصية هي الموضوع الرئيسي لكافة اعماله . فقد قال في تلك المقابلة التي اجراها عام ١٩٥١ : « وعندما ابحث لاستكشاف ما هو جوهري في نفسي ، اجد انه هو تذوق السعادة ... فهناك اشراقة شمس لا تقهر في قلب اعمالي.. »

ان الثنائية المتوسطية في اسس الفكر عند كامو ، لتبدو المرء منذ اول اثر نشره ، ونعني به كتاب « الوجهة والموضع » . فعنوان الكتاب نفسه يوحي بالثنائية ، بالاضافة الى ان فيه اشارة الى الجوانب الصحيحة والمغلوطة في قطعة من المادة . وتؤكد هذه الصورة الصلة الوثيقة بين حدي تجربته الشخصية . يعرض كامو في كتابه هذا ثنائية تذهب الى ثروات الشمس والبحر تؤكد الفقر الانساني ، وان لذائذ الحس تجعل الموت اشد فجيعة واعظم هولا ، وان المتعة الممعنة فيما هو مباشر وحسي ، تناظر مشهدا من ملاحظات غير مناسبة دينية لاعزاء فيها . وفي كل مثال من الامثلة تزيد « السعادة » و « المعاناة » من حدة بعضهما البعض . وان حدة الاستجابة ، عند كامو ، لكل من « السعادة » و « المعاناة »

انما تنجم من حقيقة كونهما يتعايشان في حالة التناظر . وان كامو مدرك تمام الادراك للنقائص الفنية في قصة هذه التجارب . بيد انه لا يزال متمسكا في انها تحتوي ، في رحمها ، على جوهر استنتاجاته عن التجربة الانسانية . فهناك الشيء الكثير في هذه النظرة . ومع ذلك فان قراءة كتاب « الوجهة والموضع » مرة اخرى ، وفي ضوء كتابات كامو الاخيرة لجديرة بان تعرفنا عما في مضمون هذا الكتاب من الغموض وانعدام الشكل . على ان هناك برهانا ساطعا على الذاتية القوية الآسرة التي تكمن وراء هذا الكتاب . غير ان هذا الكتاب ذاته ، يظل سردا غير ناضج لافكار كامو ، من الناحية الجوهرية . ويصف لنا هذا التشاؤم وصفا اصيلا الرغبة الفريزية لاحد الشباب في المتعة دون ان يقدم لنا اي مضمون واضح لهذه الرغبة ذاتها . اما التأكيد على الفقر والوحدة والموت ، فلم يكن سوى نتاج عرضي تقريبا ، لبحث مهدد بالفشل ، او هو فاشل فعلا ، بحسبما يظهر . فالتأكيدان المتناظران لا تربط بينهما تلك الكبرياء التي تستطيع ان تميز ، حقيقة ، هذه الثنائية دون ان تتمثل ايا من مصطلحاتها .

يتألف كتاب « الوجهة والموضع » من ستين صفحة من النثر ويتكون من خمسة اقسام،هي مزيج من السيرة الذاتية والتأمل المعمم،وكل قسم من هذه الاقسام يترنح دون ان يستقر ، بين المقالة والقصة القصيرة . فالقسم الاول الموسوم بعنوان « السخرية » هو دراسة للمناظرة بين الشباب والشيخوخة تنتظمه سلسلة من الملاحظات عن الدين والوحدة الانسانية وحقيقة الموت. فالجو والشخوص الموصوفون هناك ، يظهرون كما لو كانوا من منزل كامو واسرته ، بالرغم من انه ليس هناك اي تصريح بذلك . فهناك امرأة عجوز ـ لعلها صيغت من نموذج جدته ـ تخشى اقتراب الموت . وهناك رجل عجوز ـ يشبه عمه ـ يدهشه بل يصيبه باليأس ، هذا الشباب الحديث . وهناك ايضا شاب يفضل هو واصحابه ان يقضوا الامسية في دار السينما على ان يقضوها مع الرجال الطاعنين في السن . فالمرأة العجوز متدينة ولكن بسبب الخوف لا الحب. وهناك تعبير لباسكال يعيد تركيب كامو ، فيصف هذه المرأة بانها كائن اخذته « تعاسة الانسان في الله . » فديانة هذه المرأة هي اخر ملاذ لها . هي نوع من اليأس، او هي محاولة اخيرة لتخفيف المرارة من حقيقة الموت . ويمكن قياس قيمة هذه الديانة بالحقيقة القائلة بان هذه المرأة لو استطاعت ان تبل من مرضها الراهن ، اذن لكانت على اهبة الاستعداد لان تزور عن تمثال العذراء المصنوع من الجبس لتلقي بنفسها في العلاقات الانسانية وفعالياتها . وعندما يذهب الشباب الى دار السينما ، وتتخلف ابنتها الوحيدة ، فانها عندئذ تستشعر الوحشة بحدة وعنف . انها خائفة ، وان حديثها السري مع الله ، لم يقدم لها اي عزاء ، فهي تتشبث يائسة بيد ابنتها . وهنا يعلق كامو فيقول : « ان الله لم يفعل لها شيئا سوى انه حرمها من الصداقات الانسانية ، فتركها وحيدة . انها لم ترد ترك عالم الناس . »

اما الرجل العجوز فيتحدث دونما انقطاع ، عن شبابه وعن اخفاق الجيل الجديد في استمتاعهم على الشكل الصحيح . انه يحاول جاهدا ان يثير اهتمام الشباب ، فهو يزركش اقاصيصه ليجعلها اكثر اثارة وتأثيرا . ومع ذلك ، فهو يعلم طوال الوقت ، وهم يعلمون ايضا بانه رجل طاعن في السن ، لانفع فيه ، وسرعان ما يقلع الشباب عن الاستماع اليه ! انهم يستمهدون الراحة في تخلصهم من الروتين القاتل عن طريق لعب البليارد ولعب الورق والسينما ، لا في الاستماع الى حكايات رجل

عجوز . ثم تموت المرأة العجوز بعد ذلك ، فنحصل على وصف لعجز الشاب عن الاحساس بالحزن والفقد الاصيلين ، على نحو يذكرنا بموقف « ميرسول » حيال امه ، بعد عدة سنوات ، في قصة « الغريب». فالتناظر بين الشباب والشيخوخة ، والحياة والموت ، والمتعة والخوف ، كل ذلك موجود خلال فصل « السخرية » . وهذا التناظر القائم بين الزمر المختلفة الاعمار ، هو ايضا سخرية تسم حياة كل فرد بميسمها . ويضع كامو تعليقا يعترف فيه بذلك ، ثم يعود فيعرض عنه اذ يقول :

«.. امرأة يدعها المرء وحدها تذهب الى دار السينما . ورجل عجوز لم يعد احد يصغي اليه . وموت لا يحرر احدا . هذا من ناحية ، ومن الناحية الاخرى كل اشراق الحياة . فما الذي يهم لو ان المرء تقبل جميع هذه الاشياء ؟ فهناك ثلاثة مصائر متشابهة واضحة قد تشابكت . الموت ياتي لكل انسان . ولكن لكل انسان موته الخاص به . وبعد ذلك ، وبالرغم من كل شيء ، فان الشمس تظل تدفىء عظامنا . »

تفصح هذه السطور عن التقبل المرير لهذه الثنائية الفاجعة التي تبناها كامو في هذا الوقت . انه تقبل تخف فيه غلظة الشباب لنجدة الطراوة اليافعة . فالوحدة والشيخوخة والموت ، من حيث هي مجربة في واقعها الانساني المباشر ، جميعها تبتعث الشاب لمواصلة استمتاعه، انها جميعا تؤكد ضرورة البحث عن السعادة ، ولكنها تؤكد ايضا ضعفها وقصر أمدها نسبيا .

وفي القسم التالي الموسوم بعنوان « بين نعم ولا » ، يشير العنوان ايضا الى صراع الحياة الانسانية . فيكتب كامو عن « موطنه » في الجزائر ، ويصف بشيء من الاسهاب فقر ذلك المواطن وعتمته ، ويقارن مقارنة حادة بين الصمت المزعج من امه الصماء والصرخات الغاضبة من جدته المتجبرة الطاغية . فموقف الولد حيال امه التي يعيد صمتها للذاكرة صمت ام « ريو » في قصة « الطاعون » ، هو مزيج غير مريح من الحب والخوف ، والشفقة ، والواجب والاحساس بالفجوة بينهما . وان طبيعة العلاقة القائمة بينهما ، تجعله واعيا لنفسه ، مدركا لذاتيته المنفصلة ، على نحو لم يكن قد جربه من قبل . ومرة اخرى ينتهي كامو، الى ملاحظة « التقبل » غير ان تقبله في هذه المرة الثانية هو تقبل انعكاسي اكثر مما كنا وجدناه في فصل « السخرية » ، ولكنه غريزي واناني اقل من ذاك . انه موقف موقت يؤخذ به عندما تكون الحياة قد جربت اكثر من ذي قبل ، وفكر فيها على نحو اوسع . « وبما ان هذه اللحظة تكون بمثابة فترة وجيزة تقع بين النقض والاثبات ، فانني سأترك للحظات الاخريات ، الامل في الحياة او الياس منها .»

والمقطوعتان الثالثة والرابعة « الموت خلال الروح » و « حب الحياة » تحتويان على ذكريات كامو عن تجواله في تشكوسلوفاكيا وايطاليا وجزر الباليري . ويجد كامو ان اروع ما في السفر قوته الى تحمل المرء على ان يسأل نفسه باستمرار ويسأل العالم الخارجي . وهنا يناقش وعي ذاتيته المنفصلة نقاشا فيه تأكيد اكثر مما كان في مطقوعة « بين نعم ولا » فهو يقول ، ان قيمة السفر هي في قدرته على ازعاج الفرد عن طريق الابتعاد به عن ملاذ الروتين المريح المالوف . ويلقي السفر عن انفسنا ، ولو موقتا ، هاتيك الاقنعة التي نختبىء عادة وراءها . فبوسع السفر ان يجهزنا برؤيا جديدة مثيرة تكشف لنا عن وحدتنا الجوهرية وعن عدم الفتنا مع انفسنا ، او على الاقل يجهزنا ببعض الظروف التي تهيىء تلك الرؤيا . انه يهتك ستار العادات ليكشف لنا عن خصائص الجزع الشاحبة . فالانسان يقابل نفسا غير مألوفة لديه ، وذلك خلال صلته بعالم خارجي لا الفة فيه. ففي براغ وبالما، لم يكن يعرف طريقة الانتقال من مكان لاخر ، لجهله بنظام المواصلات في المدينة ، كما كان كل شيء يغلفه الغموض هناك بسبب عجزه عن التحدث بلغة تلك البلاد . ومن الحق ان يقال ، ان مثل هذه المعضلات سرعان ما يمكن التغلب عليها ، ان لم نقل سرعان ما توضع الحلول الناجعة لها ، وذلك عن طريق البديهة المشتركة وشيء من الاصالة الابداعية . غير ان هناك فترة اولية من الاغتراب Alienation . فنفس مغتربة مهجورة في وسط مغترب ستعاني ، ولا مراء ، ضربا من تجربة تشابه قلق الانسان الميتافيزيقي الغريب ــ الانسان المغترب . (*) فان احساسا قد لايختلف عن احساس « روكنتان » في قصة « الغثيان » لسارتر ، انما ينجم عن احساس المسافر « بالتباين القائم بينه وبين القضية » . ويجد كامو في تجربة السفر ، احدى الاشارات للعبث ، وهي تلك الاشارات التي يمحصها في اسطورة « سيزيف » .

وعندما ينتقل كامو من تشكوسلوفاكيا الى ايطاليا ، يحس هذا « الرجل القادم من الجنوب » بانه في دعة موطنه . فهو يستجيب بتهيؤ وبصورة طبيعية اكثر الى شمس ايطاليا ومشاهدها . ومع ذلك ، فانه حتى في ايطاليا ، يرافقه شعور بالقلق ، بالرغم من الدفء والجمال اللذين يحيطان به فالمشاهد جميلة ، غير ان الجمال يتضمن صفة لاشخصية

(*) آثرنا هنا استخدام لفظة « المغترب » مقابل Outsider الانكليزية ، على اللفظة التي شاعت اخيرا وهي « اللامنتمي » ، لان لفظة « المغترب » قد تدل ــ بحسب ظننا ــ على الموقف الجذري الذي قصد اليه ، وهي الاغتراب والانفصام ، وان « اللاانتماء » ما هو الا نتاج الشعور بالوحدة والعزلة والوحشة ، أي بالاغتراب .

مزعجة . وحتى الق السماء الرائق ينطوي على لون من اللامبالاة . ففيما يحدق هو في المنظر المستعلن امامه ، يجد ان بوسعه ان يفتقد في هاتيك المشاهد الوعد القاطع بخلوده . بل على العكس من ذلك ، فـــان الخصائص الباقية من ذلك المنظر الطبيعي ، ستظل تذكره بوجوده القصير الامد . ولكنه بالرغم من ذلك كله ، هو مستعد لتقبل تلك الثنائيـة الدائم الاحساس بها . فالجمال الحاد في الريف الايطالي ، يثير فيـه الارتباط الوجداني بحياة الحس ، بحيث ينكمش من صور الوجـود اللاجسماني الذي يتضمنه خلود الروح :

« اي نفع لي من حياة تعاش مرة اخرى في الروح ، اذا لم تعد بالنسبة لي عينين ارى فيهما شيئا ، ولا يديـن المس بهما كروم فسنزا ، ولا جلدا احس به مداعبة الليل على الشارع من مونت بريكو الى مغنـى فلمـرانـا » .

فالاحساس بالفناء الجسدي الذي لا تكاد تخفيه هذه الكلمات هـو الذي يشرح لنا ذلك « الحديد في الروح »(*) الذي تشير اليه القطعة الاولى « الموت في الروح » من المقطوعتين اللتين كتبهما كامو عن السفر . ومع ذلك فان سخاء ايطاليا من حيث هو سخاء ، ليجلب في النهايـة العزاء ، كما يجلب نذيرا لايخطىء . فالمسافر يمتلك قدرة يستطيع بها ان يستقبل الروعة الباقية في العالم الطبيعي ، كما يستقبل اجتيـازه العابر الخاص به من مشاهد جميلة « لاشخصية » ومن سماء غير مبالية ولا مكترثة ، ولكنها هي الاخرى متألقة ناصعة . على ان هذه القدرة على تمييز الاشياء المعروضة تمييزا هادئا ، يظل امرا مستعصيا على البلـوغ دوما . فمرور الزمن ليس بمقدوره ان يجعل قوة الزمن المدمرة للفرد اهون وقعا على الانسان . فالنضال المشتبك فيه ، هو صراع قاس ، والضرورة الملحة اليه هي مريرة ايضا ، ومع هذا ، فان رؤيا ايطاليا امر هام بالنسبة لكامو ، لانها تؤكد الحاجة للربط ما بين الشجاعة والصفاء . وهذا الضرب من الشجاعة ، سيثبت ، مستقبلا ، انه صفة جوهرية مـن صفات ذلك التمرد الذي يمارسه كامو ، ويوصي الاخرين بممارسته .

والقطعة الثانية عن السفر الموسومة بعنوان « حب الحياة » تتضمن تذكارات عن زيارة قام بها لجزر الباليري فهنا مرة اخرى ، يتأكد لدينا الصراع الفاجع المؤتلف من الحدة المرغوب فيها ومن قصر الحياة الذي لامناص منه . فالاستمتاع العفوي بالحياة في بالما والجمال الطبيعي فـي ابيزا وسان فرانسسكو يؤكد وضع الفرد من حيث ارتباطه باللحظـة الخاطفة في لا زمنية العالم . ففي هذا القسم ندفع بكامو ، تجربـة الفجوة القائمة بين الفرد والعالم الطبيعي ، الى ان يسرد حدي الثنائية مرة اخرى في تلازم فاجع اذ يقول :

« ليس هناك من حب للحياة دون يأس منها . » وينبغي ان يؤخذ هذا القول من كامو ، على اساس انه تفسير من جانبه لحقيقة ان التشـاؤم والاحساس الفاجع يراودان دوما بحثه عن السعادة .

وعنوان القسم الخامس والاخير ، هو نفس العنوان العام لهـــذا الكتاب « الوجهة والموضع » . فمن الناحية الاولى شمس وسماء ونجوم ومشاهد طبيعية ، ومن الناحية الاخرى كائنات بشرية وجميعها تترجـم الى لفظتي « وجهة » و « موضع » ، على التناظر « او الطباق » بـين ماهو ابدي ظاهر وما هو فان بحكم البرهان الدامغ ، فان مايبدو رباطا وثيقا لاينفصم ، انما هو رباط يوثق اللازمني بالموقت ، والحبور بالمـوت

(*) في الاصل تلاعب بلفظتي « حديد » و « سخرية » .
« المترجـم »

اي « الناس بعبثهم » ، ولا يستنكر كامو في هذه الصفحات الاخيـرة مبدأ « التقبل » ، غير انه يلجأ مرة اخرى للالحاح على اهمية الاستمتاع بتمجيد الحواس الوجيز العمر ، ذلك التمجيد الذي يجعل من الحياة امرا ممكنا . فهو يقول بان الحياة قصيرة ، وان الانسان يرتكب اثما ، اي انه يضيع على نفسه فرص المتعة . ويضيف كامو ايضا اعتراضا واعيا علـى الاخلاقية المسيحية اذ ينادي بان مملكته هي من هذا العالم .

ويختتم كامو هذه المقالة بما هو ، في النهاية ، قولة مأثورة في اليأس:

« لو انني اصغيت الى السخرية الكامنة في قلب الاشياء ، اذن لكشفت لي عن نفسها . وتتغامز السخرية بعينيها الصغيرتين البراقتين وتقول : « عش كما لو ان .. ، وبالرغم من البحث الطويل ، فهذه هي خلاصـة حكمتـي » .

وينبغي علي ان اوضح هنا ، من هذا التلخيص لكتاب « الوجهـة والموضع » بان هذا الكتاب في حقيقته لايحتوي على حجج موحدة ، اذ ان كل مقالة من مقالاته الخمس تتبدى مواقف عاطفية مشرقة في ضـوء تفكير اخر . وهناك ايضا غموض شديد في الطريقة التي يتوصل بها كامو الى استنتاجاته . فهذه الاستنتاجات لاتؤلف في نفسها كلا متراصا ،ولكنها تترنح دونما تثبت بين قطبي السلب والايجاب . فخصائص هذا الكتاب تجعل من السهل علينا ان نتصور لماذا اعتبر كامو كتابه الاول هذا غيـر مرض من الناحية الشكلية ، فالحقيقة ان كتاب « الوجهة والموضع » يحتوي الموضوعات الاساسية لاثار كامو ، مستقبلا غير ان عرض هـذه الموضوعات ، في هذه المرحلة ، لم يكن ملائما ولا متماسكا . علـى انـه في الوقت نفسه ، لايستطيع احد ان يقرأ هذه المقالات الاولى دون ان

يتأثر بهذا الشعر الكالح الذي بقي الصفة الذاتية الرائعة الرفيعة لكثير من اثار كامو النثرية .

اما كتاب كامو الثاني ، فهو اربع مقالات ، بعنوان « الاعراس » . نشر في عام ١٩٣٩ بعد ان باشر الكتابة الفعلية في العام الذي سبق ذلك العام . وبالطبع فان كتاب « الاعراس » قريب زمنيا من كتاب « الوجهة والموضع » . والكتابان متشابهان في كثير من النقاط ، من حيث مادة الموضوع . ففي كتاب « الاعراس » يبحث كامو مرة اخرى تلك المعضلات القديمة المزمنة ذاتها : معضلات الوجود الانساني والزوال الفردي ، ولكننا نجد هذه المعضلات متطورة اكثر مما نجدها في الكتاب السابق . انها معروضة في حدود فكرية اشد صرامة ، بيد انها تتمتع مع ذلك ، بحدة شعرية رائعة . فالتمجيد الغنائي « الليريكي » يشترك مع اشارات اكثر دقة وضبطا ، ومع وصف تفصيلي لمناظر الشمال الافريقي . واذا ماتوغلنا خلال المقالات الاربع ، وجدنا هناك دليلا يشير الى رمزية واعية للشمس والبحر والصحراء . فموضوعات الحبور واليأس التي اعلن عنها في كتاب « الوجهة والموضع » سابقا ، تخضع الان في هذا الكتاب ، الى تأمل اكثر عناية وشمولا . وبالرغم من ان كلا الموضوعين ما يزالان قائمين في كتاب « الاعراس » الا ان التأكيد ، هنا ، ينصب على مرح الوجود المادي . فالحد الايجابي من تلك الثنائية التي نلقاها في كتاب « الوجهة والموضع » يفرد هنا جانبا ، لتجري عليه عملية تأمل خاصة . وبعد ثلاث سنوات من ذلك ، سنجد ان التأكيد في « اسطورة سيزيف » ينقلب الى تأكيد على عبث الوجود الانساني . ففي هذا المقال المتأخر الطويل يحظى الحد السلبي الموجود في ثنائية « الوجهة والموضع » باهتمام خاص .

« فالاعراس » هو ايضا عمل قصير نسبيا ، اذ هو يحتوي على نحو ثمانين صفحة . ويبدأ كامو باقتباس استهلالي من ستندال يوحي الينا بان كامو سيركز همه هنا على الجانب السلبي التشاؤمي من كتاب « الوجهة والموضع » ، بخلاف ماقيل توا . وقد اقتبس كامو هذا القول من « دوقة بليانو » في كتاب ستندال الموسوم بعنوان « سجلات ايطالية » يقول هذا المقتبس « لقد خنق الجلاد الكاردينال كارافا بحبل من حرير ثم انقطع الحبل . ومرتين حاول الجلاد . اما الكاردينال فكان يراقب دون ان يتنازل فينطق بحرف . » ومن الحق ان يقال ان كامو يستخدم هذا المقتبس كرمز عنيف لحالة انسان فان في كون خبيث . ومن الحق ايضا ان يقال ان هذا المقتبس يحمل في اطوائه ، منذ بداية كتابه « الاعراس » ايحاء باننا سنجد في هذا الكتاب احساس كامو بالمأساة الانسانية ، بعد ان تذرع بتعبير حاد . وعلى اية حال ، فينبغي الا ننسى قولة كامو السابقة بان اليأس الرفيع من الحياة ، انما هو وثيق الصلة بالعاطفة الرفيعة نحو الحياة . وتبعاً لذلك ، بالرغم من ان كتاب « الاعراس » يستهل بمقتبس يوحي بتفسير تشاؤمي رمزي ، وبالرغم من ان التشاؤم يظل دائما وراء كل صفحة من صفحات هذا الكتاب ، الا انه ليس هناك اي تناقض عند كامو في سياق العالم الوجداني والفكري. فالحقيقة هي ان هذه المقالات تمضي لتؤكد لنا حبور الحياة في الجسد. وقد وضعت هناك ، بالطبع ، بعض التحوطات ، اذ ان كامو يدرك ، مثلا ، ان مثل هذا الحبور يمكن ان يجرب لفترة وجيزة من الزمن خلال امتداد حياة كل فرد من الافراد . فاذا ما وضعت هذه الصفات في موضعها ، فان كتاب « الاعراس » سيظل عندئذ ، نشيدا من اناشيد المجد والمديح لمباشرة الوجود المادي . فهو يؤكد تأكيدا وفيرا ما ذهب اليه المؤلف من ان السعادة هي موضع الاهتمام الرئيسي في جميع آثاره ، وذلك عن طريق جواب المؤلف نفسه ما يدعوه « بالتحلل العظيم في الطبيعة ».

يبدأ التمجيد المادي في « الاعراس » بدعوة حادة ذات الوان شتى لهجوم يقوم به الريف الجزائري على الحواس . فالمشهد يغتسل في الشمس ليكون بحرانا من اللون والضياء . والهواء مثقل بعطر الازاهير الساطع - أزهار البوغاني فيلاس (1) الارجوانية والوردية وازهار الخطمية الحمراء والسوسن الازرق وازهار الشاي الكثيفة كثافة القشطة . والبحر يزركشه اللون الفضي واللون الابيض ، والسماء بلون ازرق فاتح . والريف تعبره الحافلات المطلية بدهان اصفر كلون الشقائق الصفراء . وبين آونة واخرى ، يرى المرء في ذلك المشهد عربة لاحد القصابين وهو يدرج الى طيته . ذلك هو الفيض الغامر من الانطباعات الحسية المنطلقة في هذا الجو الشفيف .. خمرة كريمة تترنح منها السماء . وذلك هو المكان المثالي للاستحمام الشمسي والاستحمام في البحر . ويقول كامو ان الشواطيء الجزائرية تتجاوب بضحكات الشباب الذين تعيد للذاكرة اجسادهم اولئك الرياضيين في ديلوس .(2) وفي البحر نفسه ، هاتيك الزوارق الموسقة باحمالها من الجوز لاولئك الالهة والالهات اليافعين الذين يحس نحوهم جميعا برباط اخوي عميق. فالاحاسيس تشحذ هناك ، والدم يتوفر ، وينبغي على كامو ان ينعت كل انسان لا يستمتع بهذه الظروف بانه انسان ابله معتوه . والخجل كلمة لا معنى لها على الشواطيء الجزائرية « .. فاذا كان هناك اثم تجاه الحياة، فهو لا يكون في اليأس منها بقدر ما يكون في الامل بحياة اخرى تحاول التملص من هذه الحياة هنا والان ! » فالاثم بقدر ما تعنيه هذه الكلمة ، يجب ان يحمل على أنه هو الازورار عن الوجود المادي، لا المعانقة العفوية المليئة لهذا الوجود . ويحس كامو بانه لن يكون قادرا على الاتصال الكافي ، او الاتصال القريب لحد كاف ، بالعالم الطبيعي . ان هذه الرغبة في الالفة الوثيقة الدائمة مع الطبيعة ، او الرغبة في هذه « الاعراس » مع الطبيعة التي ينتظمها عنوان هذه المقالات الشامل ، انما تظهر مرة بعد اخرى في مقطوعات غنائية (ليريكية) حسية . فهو يهلل بشعور من احالته الريح والشمس الى نموذج من نماذج هذا الريف المترامي الاطراف . ويحس بدمه ينبض بايقاع مع نبضات الشمس وهي في السمت . واذ يقف الى اطلال « جميلة » يحس بانه قد انتزع من نفسه ، ولم يعد يعي سوى هوية هذا المنظر القائم امام عينيه .

« ... اني انا هذه الريح ، هذه العمد ، وهذا السبيل المشاد في الريح ، وهذا الجلمود من البلاط الذي يبعث الحرارة ، وهاتيك الجبال المحيطة بالمدينة المحطمة .. »

---

(1) هي الزهرة التي نسبت للملاح الفرنسي « بوغانى فيلي » الذي طاف الارض في (١٧٦٦ - ١٧٦٩) .

(2) ديلوس هي الجزيرة العائمة - بحسب اساطير الاغريق - وهي احدى مجموعة جزر « سكليد » . كان فيها معبد « ابولو » . اشتهرت بالالعاب التي عرفت باسمها « الدبلية » . وهي ايضا موطن « لاتو » ام «ابولو» .

وتذكرنا الالعاب « الديلية » والتنافس في قول الشعر ، بمنافسات العرب الشعرية وبالعابهم واقداحهم وازلامهم في الكعبة ، كما يذكرنا « ابولو » اليوناني « بهبل » العربي ، وتذكرنا « لاتو » « باللات »العربية ايضا . ولدينا ظن قد يبلغ مبلغ اليقين ، ان هناك صلات بين هذه الطقوس والاسماء ، نتركها للباحثين العرب .

« المترجم »

ولقد توحي هذه السطور ، لاول وهلة ، بموقف فيه نشوة من وحدة الوجود ـ شيء يشبه عبادة الارض واستواء الذات والاعيان Objects الطبيعية من حيث الهوية ، والتي تؤلف ، مثلا ، جوهر كتاب « قصة قلبي » للكاتب « رتشرد جيفرز » . وفي الحقيقة ان نظرة كامو الى المشاهد الجزائرية هي لاعاطفية ولاروحية من حيث جوهرها ، بالرغم من المفردات الغنائية (الليريكية) التي استخدمها لوصف تلك المشاهد. ان هذا الفيض من التمجيد الذي نلقاه في هذه السطور المقتبسة آنفا ، ليهيب بكامو ان يساوي في الهوية بين الطبيعة والانسان . وهذا التوافق من شأنه ان يترك الطبيعة في غيرتها Otherness ، دون ان يمس هذه الغيرية بشيء . ومهما تهيىء الطبيعة من متع وملذات مادية، فانها تظل مادية وغريبة على حالها . فكامو هنا لا يلعب دور الموحد للوجود الذي يجعل الجبل والحقول تعاود الحياة بالروح . غير ان ذلك يصح قوله عندما يأخذ باستخدام اللغة الشعرية بشأن التساوي في الهوية (بين الطبيعة والانسان) . فالذي يرضيه هنا ، ليس هو أسباغ الروحية على المشاهد الطبيعية ، بل هو الشعور بالتوافق بين هذه المشاهد وبين حالته النفسية ، فيما نرى الموحد للوجود يبحث عن ملاذ يهرب اليه من نفسه ، وذلك عن طريق الطبيعة التي اسبغت عليها الروح . فكامو يالم اشد الالم ، اذ يؤكد الواقع المادي الصارم للاعيان الطبيعية . فهو يقول بأن الجمال الجزائري الذابل لا يلقي الينا بأي درس روحي. انه يقدم لنا الاسراف السخي الثر في الحس ، بيد انه لا يزود الانسان الباحث عن غذاء الروح او طمانينة الفكر بأي شيء من هذا القبيل . ولكن ينبغي ان يستمتع بهذا الجمال ، ولو انه لا يشبه هاتيك المشاهد الاكثر انسانية ، في اوربا ، حيث يغري الناس بالهروب من انسانيتهم ومن فنائهم ، عن طريق البحث عن تخلصهم من انفسهم بوساطة عزاء الطبيعة ، ومن ثم العثور على ذلك التخلص عثورا ظاهريا فحسب . ان سماء الشمال الافريقي اللافحة ، لا تحمل اية رسالة من رسالات الامل او التخليص . وهنا يقول كامو في سماء الجزائر :

« بين هذه السماء والوجوه المصوبة نحوها ، لا يوجد اي سبيل للتعرف على الميثولوجيا ، والادب والاخلاقيات او الدين . ليس هناك سوى الصخور والجسد والنجوم ، وتلك الحقائق التي تستطيع ان تلمسها اليدان . » (1)

ان كامو يرى تلك المضامين الفاجعة لهذا الجلال اللاروحي الراسخ الاركان في هذا العالم الطبيعي . ففي خضم هذا السرور الحسي ، يدرك كامو ، كدابه ابدا ، تلك الثنائية المخلدة لذاتها ، والتي رأينا انها الموضوع السائد في كتابه « الجهة والموضع » ، وانها هي التي اهابت به هنا في كتابه « الاعراس » ان يذكر بان ما يمجد الحياة يزيد ايضا من حدة عبثها . فلقد وصف بالفاظ غنائية (ليريكية) حياة الحس ، وهلل لكمال هذه الحياة . على ان هذا الكمال نفسه ، وحدة التجربة ذاتها ، تنطويان على حدين مزدوجين . فالحياة التي يصفها كامو ، هي اولا ، لا يمكن ان يستمتع بها الفرد الا لامد موقوت ، ثم ان بهاءها لا سبيل الى الاقلال منه طالما كانت الحياة باقية ، ولكن الحياة لا يمكن ان تدوم الى امد طويل . اما اولئك الذين يجازفون بكل شيء من اجل الجسد ، فانهم يعلمون حق العلم ، بان عليهم ان يخسروا كل شيء عندما تحين الشيخوخة ، ثم الموت بعد ذلك . فحقيقة الموت ، اذن، هي حقيقة راهنة في المشاهد الجزائرية بصفة خاصة ، تلك المشاهد الثرية المعطاء ، والتي تحدو الاحاسيس بان تأخذ نصيبها هناك . ويعبر كامو عن حيرته هذه بقول سبقت الاشارة اليه اذ يقول : « فزعي من الموت ، يسيطر على قلقي من الحياة » ، والحد الاخر المتصل بالحد الاول ينجم عن « القلق من الحياة » ، فجوهرها المتعة المادية هو مباشرة تلك المتعة ، والمجازفة بكل شيء من اجل الجسد ، هي المجازفة بكل شيء من اجل ما هو راهن ، بصفة مباشرة . غير ان المباشر ، كما يفسره كامو هو امر يجرب على انه تناظر في المشاهد المستمرة الوجود ، والتي يمكن استخلاصها من هاتيك الجبال والسماء الابدية . اننا لا نستطيع الا ان نبحث عن المتعة في الطبيعة ، لاننا كائنات انسانية ، لا كائنات خضارية (نسبة للخضار) ، وان وعينا لانسانيتنا يشمل وعينا لفنائنا . وعلى العكس من ذلك ، فالطبيعة ليست فانية ، ولكنها تعمل على تخليد ذاتها بذاتها . ففصول الصيف الجزائرية تتتابع الواحد تلو الاخر ، والبحر والشاطىء يمضيان في غزلهما . وهذا هو الصدع الثاني في تجربة السرور الحسي ، ويجد كامو المتعة الطبيعية في الشمس والبحر والجبل والريح ، ولكن هذه الاعيان جميعها التي هي موضوع مرحه ، ستظل بعده ، وستظل بعد ان تنفد قدرته على ممارسة تجربتنا ، بل ستظل بعد جميع الكائنات الفانية طوال جميع القرون . وهنا ، وبهذا الجانب من جوانب فنائه ، يجد كامو ان السعادة قد شوه وجهها مرة اخرى.

فالاقرار بالزوال الانساني الذي تؤكده ديمومة الارض والسماء ، هو أحد الموضوعات المألوفة . وبوسع المرء ان يربط ، فورا ، هذا الموضوع بعواطف الاشفاق على النفس وبالتعبير عن الكبرياء السوداوية والبحث عن حل روحي فيه عزاء . ومهما يكن من شيء ، فاني اظن ان كامو يعمد لادخال تأكيدات جديدة علىهذا الموضوع . فهو لا يضيف صرامة جديدة الى هذا الموضوع وحسب ، بل هو يرفض المواقف التقليدية ، وذلك عن طريق الحفاظ على ما يحتويه نصيبه من صفات مزعجة متعبة. وبكلمة اخرى ، « فالتقبل » بالنسبة لكامو لا يشمل اية خطة واعية او غير واعية تستهدف تخفيف حدة الحيرة الانسانية . لذا فاننا نراه يلح على صراع لاسبيل الى وقفه ، هو صراع قائم بين الرغبة في الحياة وحقيقة الموت ، بين « الهنا » و « الان » اللتين يعرفهما من جهة وبين « الما بعد » التي لا يعرف عنها شيئا ، وكل ذلك من اجل ما يؤمن بانه هو نقاء الفكروشرفه . فهو يرى في الحياة الموقتة الفانية ، الحقيقة الوحيدة والسعادة الوحيدة اللتين يستطيع التثبت منهما . وهو يرى في هذا الموقف ولاء لوضعه الانساني ، اذ هو يذهب الى ان اي شكل من اشكال العزاء ، لا يتعدى كونه فرضية مجردة لا تقدم اي اثبات . ففي هذا العالم اليافع ذي اليقين الحسي والريب الروحي ، يصبح الايمان مرتكزا على المشاهدة لا غير . وهنا يقول:

« واني اذ ارفض كل « الما بعد » لهذا العالم ، فان ذلك يرجع الى اني انا ايضا لست مستعدا لان ابرأ من جميع ثرواتي المباشرة . انني لا اؤثر الايمان بان الموت يفتح المغاليق لحياة اخرى . انه بالنسبة لي باب مرصود .. وكل مايقترح علي انما هو محاولة لالقاء عبء الحياة عن كاهل الانسان . »

فكامو هنا ، ينص ، بدقة وتعيين ، على ما هو جلي فعلا في كل حالة من الحالات : فقراره الذي يتخذه للمجازفة بكل شيء من اجل

---

(1) من حق كامو الفرنسي ان يحس هذا الاحساس حيال الجزائر العربية . فهو نبتة اقتلعت من طينتها ـ على حد قول زفايغ ـ اذ فارق وطنه النمسا ، واستوطن امريكا اللاتينية .

« المترجم »

الحياة المادية المباشرة ، ان هو الا نتاج الاختيار التعسفي . اما ان هذا الخيار يقع ، بشكل طبيعي على الشمال الافريقي ، فلا يعني ذلك انه سيكون اقل تعسفاً وجورا . وبما ان كامو قد واجه حيرة كتلك الحيرة التي واجهها باسكال من قبل ، فانه يجازف بالاتجاه المعاكس . فرفض النظر في اي احتمال لوجود ما بعد الحياة ، هو وجه من اوجه الاعتراض العام على اي مطلق او تجريدات قد يتعلمها من المشاهد الجزائرية . فهو يشد الى حواسه كل ما هو راهن ، ويتعامل مع كل شيء جميل ، وليس هناك من خلاص فيما وراءه ، او بعيدا عنه . وهذا الجحود المباشر اللامتردد امر مثير وغير طبيعي من كاتب في قامة كامو وسمعته . انه يفصح في كتاب « الاعراس » عما يمكن تسميته « بالالحاد الساذج » طالما كان ذلك يحتل مكانا في التأمل الفلسفي ، قد يقابل ما يسمى بالواقعية الساذجة في نظرية الادراك . وهذا الالحاد امر غير معقد ، اذا ما قيس بالحاد رجل كمالرو او سارتر . وهو في الوقت ذاته يؤكد لنا مرة اخرى تأثير الاصول المتوسطية عند كامو . والحق ان كامو قد بدأ منذ ذلك الحين بالتأكيد على موقفه من معضلة الشرور الكنسية ، والمسيحيين افرادا افرادا . غير ان هذا الالحاد الذي يعرضه هنا ، هو الحاد تأملي في اصوله . فهو يعرب عن نظرة ـ واعية او غير واعية ـ لاناس يصفهم بأنهم بدائيون بسطاء . وهو يزعم ان هؤلاء الشماليين لا تعني شيئا بالنسبة اليهم الفاظ « كالاثم »(1) او « الفضيلة » او « التوبة » ، اذ لا تنطوي هذه الالفاظ عندهم على اي معنى تجريدي ، بالرغم من انهم يمارسون ادابا اخلاقية يومية ، يدعوها كامو بـ « قانون الشارع » الاوتوماتيكي . فهم (اي الشماليون) يتناولون ملذاتهم اكثر ما يتناولونها جماعات ، وفي المحلات العامة . وترتكز اخلاقياتهم على القواعد الابتدائية في حياة مجتمعية كهذه : كأن تعنى بالنساء الحوامل ، او ان عليك الا تسرق فتاة صديقك الخ ... وبغض النظر عن هذه الاداب الاخلاقية الابتدائية ، التي يدعمها الجانب الاجتماعي اكثر من الجانب الديني ، نجد كامو يقول : « ان هؤلاء الناس الذين استنفدتهم حياتهم الراهنة ، يعيشون بلا اساطير ، وبلا عزاء ». ان هؤلاء « البربر » ـ كما يدعوهم ـ والذين يجدون متعتهم على شواطيء الشمال الافريقي ، يتوقع منهم المرء الشيء الكثير في المستقبل . فهناك موقف مباشر سليم يمكن ان يتخذ حيال الحياة . ويمكن ان يخلق هذا الموقف ـ بالرغم من انه موقف لا واع ـ نوعا من الثقافة التي « تتقبل » فيها الكرامة الانسانية التعبير الملائم .

فلدينا هنا ، شيء يقترب من أسطورة الهمج السعداء ، التي تمعن فيها بعض الاذهان المضللة . فمن الواضح ان هؤلاء الذين لا حاجة بهم للاساطير هم الذين يزودون كامو بالاسطورة وبالرمز . وبالرغم من ان كامو قد ولد في هذا الجو الوثني ذاته ، الا انه يختلف عن هؤلاء الناس اختلافا جوهريا بفضل ثقافته واسفاره ودراساته . فهو يفهمهم بالقدر الذي يعجب فيهم ، ويشاطرهم حياتهم في كثير من المواضع ، غير انه منفصل عنهم بحقيقة فكره التأملي . فالموقف الغريزي فيهم لا يكون غريزيا فيه ، لا من حيث الطريقة ولا الدرجة . فالوعي الذي يدفعه للتحدث عنهم ، باعتبارهم « اناسا اطفالا » وباعتبارهم « بربرا » لهو وعي للاختلاف القائم بينه وبينهم . فهو ملقى في عالم خارج عالمهم ، بحيث استطاع ان يدرك انعدام الحاجة عندهم الى اية اسطورة ، دون ان يدركوا هم انفسهم ذلك .

ففي حدود عالمهم الذي يمجد كل ما هو مادي هامد ، نجد ان كامو يبرر استنكار التشنجات الذهنية عند جيد ، ولكن هذا الاستنكار انما هو ناشيء عن تشنجات ذهنية اخرى عند كامو نفسه وعلى مستوى اخر . وهذه التشنجات الذهنية هي امر لا محيد عنه عند كامو ، على انها غريبة عن موقف اولئك الذين اطراهم واعجب بهم كامو نفسه . ومن الانصاف ان نضيف ايضا ان كامو يلح دائما على ان هناك شيئا سيظل قريبا من هؤلاء « الناس الاطفال » ، بالرغم من تقبله لكل هاتيك النقاط. فهو يدعي في رسالة كتبها اخيرا ، بأن هذه المشابه هي التي تهيب بباريس المضللة الا تقبله الا مع بعض التحفظات ، وهي التي تجعله لا يستطيع ان يقدم الولاء لعالم باريس الاجتماعي او الادبي .

ومن هنا ، فان هذه الطقوس الواعية لعبادة « الرجل الحسي الاعتيادي » تذكرنا بانه حتى هذه الالحادية الساذجة التي نجدها عند كامو ، تعتبر امرا اقل عفوية مما كانت تبدو عليه . وان مجرد القول بان « لا ايمانه » هذا هو قضية غريزية ، من شانه ان يحول « اللاايمان» هذا عن جوه العفوي. فان ما تنطوي عليه تلك الصفحات الثمانون من مواقف لا تعقيد فيها من جانب كامو ، معناه ان هذه المواقف تتضمن تأملا وعنصرا من عناصر الاختيار ، اكثر مما هو نفسه ، مستعد له . وقد يحتج قائل هنا فيقول ان كامو حتى في موقفه هذا عفوي ، بمعنى انه قد اخفق في رؤية ما يراه المسيحي ، وانه ليس بمقدوره ان يكون على صلة بالوعي المسيحي. اما انا ، فأظن ان تسويغا كبيرا تنطوي عليه هذه النظرة ، لاسيما في المرحلة الاولى من كتاب « الاعراس » . ومع ذلك فستظل هناك حقيقة واحدة ، هي انه ليس بوسع كامو ، منذ البداية ، ان يتصل بالدين المسيحي ، مهما الح الناس في ممارسة هذا الدين ممارسة غير مقنعة ولامرضية . ومن هنا ، ينبغي ان يظل موقفه رفضا للتعالى Transcedence ، تمييزا له (اي لهذا الرفض) عن الجهل بفكرة التعالى نفسها ، والتي يبدو انه ينسبها احيانا للشباب الجزائريين الذين نشأوا في جو وثني مطاق . فالوثنية التي يميطعنهاكامو الستار هي وثنية ما تزال بسيطة وغير معقدة نسبيا ، تستمد قوتها اكثر ما تستمدها من حب الحياة ومن الفزع من الموت ، غير انها لا تنطوي على اي عنصر تعسفي . وفي الحقيقة ، ان ما يقدمه الينا كتاب « الاعراس »

(1) ان ابلغ رد شهرته الجزائر بوجه الاثم .. أثم الحضارات اللاانسانية الزائفة هي ثورتها التي تسمو في مضمونها الروحي ـ الاخلاقي على مستوى الفرد الاوربي. « المترجم »

ما هو الا صورة اولية « للجحود العاطفي » ، والذي كان عليه ان يصفه لنا بعد عشرة اعوام من ذلك التاريخ ، باعتباره خصيصة تتميز عن هذا الالحاد المعاصر . فالحاده لا يعتبر انكارا للدين ، باسم العلم، على طريقة القرن التاسع عشر ، ولكنه جحود يرفض المطلق ، كما يرفض ما هو علمي وما هو ديني على السواء . وكما ان هناك جحودا ينطوي على بعض خصائص القرن التاسع عشر ، فان هناك جحودا معاصرا في جوهره ايضا . وجحود كامو هو من هذا الضرب الاخير . انه لم يكن هجوما نضاليا ، كما انه لا يبحث عن الدخول في معارك ، بل هو رفض راسخ يكتفي اكتفاء ذاتيا لئلا يقع في المماحكات الجدلية . وفي هذا الالحاد يكمن ذلك التسامح الذي يرى في الحلول الانسانية جوابا طبيعيا على المعضلات الانسانية ذاتها . والخصيصة الاخيرة في هذا الموقف الالحادي، هي تلك الحقيقة المرتكزة على ادراك ثابت للواقع . فبالنسبة لمؤلف « الاعراس » ، ان ما هو واقعي يمكن تجربته عن طريق الحواس . وليس من الضروري أن تكون جميع صور الالحاد مادية ، ولكن الحاد كامو ناشيء عن ضرورة اعادة كل شيء الى اسسه المادية .

ويرفض كامو اي عزاء او حل يقدمه الدين ، وبذلك يحرم نفسه من اي امل ، حتى الامل في معناه الاعتيادي ، وذلك عن طريق الاخذ اخذا حازما باسلوب « الانتباه الصافي » ـ كما يدعوه ـ بشأن الفناء الانساني . ومع ذلك ، فانه ، في الوقت نفسه ، لا يقبل ان يصف موقفه هذا بانه « استسلام ». اذ هو لا يرفض عقيدة دينية ، لكي يكون هناك « استسلام » ، بل على العكس من ذلك ، هو يفهم من كلمة « استسلام » انعدام اي رجاء في العالم ، حيال ما يراه محض قيم روحية خداعة .

فهو يقول ، ان الاغريق قد استنبطوا الامل ، باعتباره اعظم الشرور الانسانية من « صندوق باندورا » . وهو يجد في هذا رمزا متحركا لحقيقة ما هو « امل »، والذي يناقض الايمان العادي الذي هو بالتالي ما تعنيه كلمة « استسلام » . فالعيش دونما امل ، وتقبل ما هو مادي بدلا من رفضه لصالح الديمومة اللامادية الواقعة خارج حدود هذه الحياة هو ما يمكن تسميته ، بالضبط ، بالاستسلام .

وفي الصفحات الاخيرة من كتاب «الاعراس» ، يستخدم كامو فكرة « اللااستسلام » لكي يسند جاهدا محاولاته في دحض الرأي القائل بان التنكر للامل ، لا يعني ضرورة ، امكانية هدم السعادة . انه يعرف السعادة بانها هي الانسجام البسيط الذي يربط الفرد بوجوده . فاية اسس للسعادة اشد رسوخا من اعتراف الفرد بهذا التناقض الظاهري التماسك الذي يؤلف موقفه (موقف الفرد) في هذا العالم ؟ فالسعادة تتأتى من تلك العلاقة التي يتقبل فيها الفرد هذا الصراع الابدي القائم بين غريزته للحياة والموت الذي لا محيص عنه . وها ان لدينا الان امثلة متعددة يعرض فيها كامو لنقطة حرجة من تفكيره ، وذلك عن طريق شيء يشبه التلاعب بالالفاظ . فحجته تعتمد اكثر ما تعتمد على ما هو تطبيق شكلي لذلك الموقف الذي سبق ان وصفه كامو في اجزاء كتابه هذا ، وعلى تعريف السعادة بانها هي مجرد تلك العلاقة (اي العلاقة البسيطة بين الفرد ووجوده) . ولذلك ، فان نقضه المؤثر من الناحية البلاغية ، لتطبيق الامل تطبيقا عاديا ولقضية « الاستسلام » ، كل ذلك انما يعتمد اعتمادا غير مضمون النتائج على فرضية ان العزاء الروحي محض وهم ، وهي تلك الفرضية التي لم تمحص تمحيصا حقيقيا . ويبدو واضحا ان ما يعرضه كامو هنا على اساس انه حجة دامغة ، لم يكن سوى قرار تعسفي . فهو اذ يتخذ هذا القرار ، لم يعد لديه ادنى شك في قيمة الموقف الذي سينتهي اليه ذلك القرار . ويزعم كامو انه تمكن من الحصول على نوع من السعادة تبدو الفكرة العامة عن السعادة بالقياس اليها فكرة هشة . وهذه « السعادة القصوى » لا يمكن شرحها بسهولة ويسر ، اذ تبدو كما لو انها تفر من اي تحديد او تعريف . انها تشبه تلك الطمأنينة الرواقية التي تنشأ عن عدم الاعتراف باستحالة تحقق السعادة . وفي مقدورنا ، ان نتذكر هنا قولا لـ « غراهام غرين » في كتابه «قلب المادة» ! «.. ان ترك المرء وحيدا مع اسوأ الاحوال، لهو امر يشبه السلام... » فسعادة كهذه ، حسبما يرى كامو ، من شانها ان ترضينا على مستوى ليس ادنى من مستوى التعبير العادي لكلمة السعادة.

ويبدو هذا الموقف ، كانه انكار لكل محتوى الحجج السابقة التي اوردها كامو في « الاعراس » ، اذ يقدم لنا الرواقية ، كبديل عن اللذة الحسية العابرة . فان ما يعتزم كامو القيام به ، انما هو وضع جذور السعادة الرواقية القصوى في موضع مادي. فهو يعيد التأكيد على قيمة السعادة المادية التي هي سبيل السعادة القصوى. فالامر الوجيز للذة المادية يقدم لنا ابعاد Dimentions انسانية حقيقية لهذا الموقف الرواقي ، اذ يجعل حقيقة هذا الموقف وقيمته زائلتين كالانسان تماما : « ما الذي اصنعه بحقيقة زائلة حتى ولو شئت ذلك ؟ .. ان هذه الحقيقة لم تفصل بحسب مقياسي .. والرغبة خداع لنفسي .»

واخيرا ينبغي الا يفوتنا ان كامو لا يفصل هذا الشكل من اشكال الرواقية عن التمرد ، باكثر مما يفصلها عن الاسراف في شهوات الحس. فالتمرد هنا على هذا النحو ، وفي هذه المرحلة ، ما يزال مدركا غامضا سلبيا . بيد اني اظن ان بوسع المرء ان يرى هذا الرفض للمطلق ، من جانبه التحدي المتمرد ، وهو في اطار هذه الحدود المعتمة لهذه المقالات. ومن هنا امكن القول ، ان البحث عن السعادة ، وهو ذلك الخيط الدائم الذي ينتظم كتاب « الوجهة والموضع » وكتاب « الاعراس » ، ان هذا البحث يصل في النهاية الى غايته عن طريق « تقبل » الاستمتاع بكل ما هو مادي ، ومن ثم التمرد على كل شيء من شانه ان يبرقع بالاستار ماساة الوضع الانساني. ويختتم كامو كتاب « الاعراس » بتعبير منمق يعبر عن مبدأ كامو في السعادة . وهو تعبير فيه تلاعب بالالفاظ اذ يقول : « . واني لنا ان ندشن الانسجام بين الحب والتمرد ؟ ابالارض !.. الا ان جميع اصنامي ذات ارجل من طين ، في هذا المعبد الجبار الذي هجرته الالهة ! »

القاهرة — ترجمة محيي الدين اسماعيل

الجوع والضمير والليل ...

قصة بقلم احمد سويد

– ١ –

دقت الساعة واحدة بعد منتصف الليل ، وما زلت اتسكع . ونامت افكاري الهزيلة كلها في كهوف رأسي ، وكادت اطرافي تنام معها ، وظل جوعي وحده هو اليقظان .

اني احسه يتمطى في احشائي حتى ليكاد يمزقها . يصرخ ، يتململ ، يجدف على الله ، يجرني من اذني ويطوف بي الشوارع النائية المظلمة ، بحثا عن امل مجهول ، عن لقمة ضائعة ، لا اعرف اين اجدها .

.. وفي تلك الساعة لم اكن ادري اين انا ، حين امسكني من رقبتي – اقصد جوعي – وصلبني تحت مجموعة من الانوار الملونة المتراقصة .

... وبحركة بلهاء رفعت بصري الى اللافتة بعد جمود طويل .

اللافتة تقول : اني امام « النار الخابية » ... فأين تقع « النار الخابية » يا الفونس ؟ تذكر اين تقع « النار الخابية » ؟

.... واستنجدت بمعلوماتي كمتشرد مزمن ، فراحت هذه المعلومات تتداعى ببطء الى رأسيء .

– انها حانة يا عزيزي الفونس ؟ الا تشم انفاسها التي تتناهى اليك كلما شق الباب الصغير ، وانعلق منه الدفء ورائحة الكحول الحادة ، وقهقهات بعض السكارى ؟

– اعرف انها حانة ... ولكن اين تقع هذه الحانة ؟

– يا ابله ... انك تمر بها عشرات المرات في النهار الواحد ، وتكاد تدخلها كل ليلة . الا تعرف الحي الذي يقوم فيه جحرك الصغير ؟ الا تعرف حي الغرباء في الطرف الشرقي من باريس ؟

– اوه .. حقا اني ابله .. ولكن ما ذنبي ، اذا كان راسي قد اصبح وطنا اصيلا للشرود والضياع ، والضباب ؟

.. ودفعت الباب برجلي ودخلت ..

وتلقاني سيمون صاحب الحانة بنظراته التي تعود ان يلقاني بها ، اي بكوكتيل عجيب من نظرات اللعنة المهموسة ، والعطف المتردد ، والتعنيف الخفيف .

وفهمت من هذا الكوكتيل كما تعودت ان افهم ، ان المعلم سيمون ، او الكرش المدور ، كما اسميه في سري ، لا يمانع في ان اجلس الى احدى الموائد المهجورة في احدى زوايا حانته ، وانه يعدني – كما تعود – بالثمالات التي يتركها بعض الزبائن في كؤوسهم حين ينصرفون ، شريطة ان اتحلى بصبر ايوب وهدوء البومة المحنطة .

.... ومن زاويتي رحت انقل طرفي الجائع الظامىء من مائدة الى مائدة ، وكنت كلما ارتفع كأس الى شفة ودنا منها ، تمرغت نظراتي على اليد التي تحمله ، وتوسلت اليها :

– بحق ابليس ... اتركي لي جرعة .

وقليلا ما كان داء السخاء يصيب رواد الحانة الظماء دائما حتى الى الثمالات .

*

– ٢ –

وفي الزاوية المقابلة كانوا ثلاثة . ملامحهم تشي بهم وتهمس بانهم من هناك ، من الارض العنيدة التي تلاحقني لعنتها ، ويغرقها قومي بالدم والليل والمأساة .

لكم اكره هذه الملامح ، اكرهها بضراوة واحقد عليها ، فبسببها تنكرت لي فرنسا ، دون ان يكون لي من ذنب سوى ان امي الشقراء الفرنسية ، اشتهت السمرة المحروقة في فورة من فورات جسدها ... فكان ابي المجهول جزائريا محروق السمرة .

.... وعبثا حاولت الفرار من اللعنة السمراء . لقد ظلت ابدا في وجهي ، في جبيني ، في دمي .

لاحقتني في طفولتي ، يوم كان اترابي يسمونني « الهجين » ، فاهرع الى التي جنت علي ، اشكو وابكي ، فتمسح دموعي بشفتيها ، وتهمس في اذني :

– هون عليك يا حبيبي، فستتهافت عليك امهاتهم واخواتهمعندماتكبر.

ولاحقتني يوم كنت هناك في الجزائر ، فطردت من الجيش ، وسجنت وتعرضت لتعذيب فرقة المظلات ، لان القيادة شكت بولائي للوطن الام ، واتهمتني بأني انقل الاسرار العسكرية للعدو .

وها هي تلاحقني هنا ، فتحرمني من العثور على عمل ، لان فرنسا اصبحت منهارة الاعصاب ، تعاني عقدة رهيبة اسمها « عقدة الجزائر » فكل اسمر وان كان فرنسيا ، معرض في نظرها ، للتعاطف مع الثوار ، وللتعاون مع خلاياهم السرية التي تنشط في كل مكان من التراب الفرنسي ، حتى في قلب باريس .

... ولمع في ذهني الغائم المكدود ، وانا قابع في الظلمة ، خاطر شرير:

– لم لا اراقب هؤلاء الثلاثة الغارقين في حديث جدي مهموس يلهيهم عن كؤوسهم الطافحة بالنبيذ الرخيص ؟

لم لا اراقبهم ؟ فقد اكتشف فيهم عناصر خلية سرية مخربة ، وقد يبيض هذا الاكتشاف وجهي وصفحة سلوكي في نظر السلطات ، ويملأ جيبي الخاوي بما يسد الرمق على الاقل .

... واعجبتني الفكرة ، فنشرت اذني على مداهما ، وحشدت فيهما حواسي كلها ، بل كل ما ابقى لي خدر الجوع من هذه الحواس .

وجهدت كثيرا لالتقاط شيء من اصداء همسهم ، ولكني فشلت في ذلك ، ونجحت في امر واحد ، هو انني لاحظت امامهم ورقة مبسوطة يحدقون بها بامعان ، وينقلون اصابعهم عليها ، فرحت اقدر انها ربما كانت خريطة ، انهم ربما كانوا يعدون في هذه الساعة المتاخرة من الليل خطة ما ، لحدث خطير من احداث النهار .

وعندما نهضوا ليغادروا الحانة سمعت اكبرهم سنا ، وهو شاب اشيب الصدغين ، يبدو الدهاء في عينيه ، سمعته يقول لرفيقه وهو يودعهما :

– الى اللقاء .

وخيل الي ان ملامحه المعبرة تكاد تكمل .
ـ واتمنى لكما النجاح في المهمة :

ـ ٣ ـ

شكرا لسيمون : لقد كان سخيا هذه الليلة فأغدق علي من الثمالات ما يكفي لتخدير ثور .... ومع ذلك فقد قضيت بقية ليلي ، متوتر الاعصاب مصلوب الاجفان .

ولم يكن الجوع وحده سبب ارقي ، بل كان سببه ايضا مالاك خاطري في يقظته القلقة من احــلام ! :

ـ سيدي الكولونيل . اقدم اك نفسي . اني ادعى الفونس . الفونس ... ماذا ؟

... واحس بالحرج والضيق فاتململ واتصبب عرقا ولكنني لا البث ان اجد المخــرج :

ـ اسم ابي لا يهم ... بل المهم ان تثقوا بي يا سيدي الكولونيل وان تستفيدوا من مواهبي ... ولوني .

. . وينظر الي الكولونيل نظرة فاحصة ، فأغمزه بجرأة عجيبة ؟

ـ ان حوادث اغتيال الزعماء الجزائريين الموالين لفرنسا ، تهــز عاصمتنا وتلقي في اوصالها الرعب ..

.... وتتسع حدقتا الكولونيل ويسألني بلهفة :

ـ اتعني انك قد تكون مفيدا لنا في الكشف عن بعض الاسرار .. ؟

ـ ربما يا سيدي .. ولكن ....

ويفهم الكولونيل ما اعني ، ويهز براسه موافقا على الصفقة .

... ويكر الشريط ، وارى نفسي على ضفاف السين : القمر يتلصص على الناس من فجوات الغيوم الخريفية ، وانا في ابهى زينتي ، وجاكلين تتعلق بذراعي كالطفلة ، وتشدني بنشوة كأنها تريد ان تنيخ الجبـل الشاهق الى الارض :

ـ يا قاسي القلب ، يا بقية العصر الحجري .. تهجرني سنة كاملة ولا تسأل عني ؟

واضمها الى صدري بحرارة :

ـ لقد كنت اشعر اني لست كفؤا لك، لانني كنت بلا عمل.. اما الان..

ولا تمهلني جاكلين حتى اكمل ، بل تقفز الى شفتي المستسلمـــين تلتهمهما بضراوة .

... ويكر الشــريط واري نفســـي في « الطاحونة الحمــراء » ، وفرنسواز الى جانبي ، وكأسانا يتوهجان بالذهب السائل . لقد طال ظمأي اليهما : الى الربيع في عيني فرنسواز ، والى الويسكي ، ذلـك الرحيق الالهي الذي تعبه عيناي كل ليلة .. ولكن فمي يتشهاه .

... وفي غمضة عين ، ينقلني حلم اليقظة الى حلبة رقص لا ادري مكانها ، ها انذا ارقص مع جيزيل ... نرقص بجنون حتى ليخيل الينـا ان خطانا لا تمس الارض ، واننا قد تحولنا معه الى كائنين اثيريين ، ولا يحس لهما وزن ،ولاتحيط بهما عين .

.... ويكر الشريط ، وارى نفسي وراء المقود ، اتهادى بسيارتــي الانيقة في شوارع باريس ، باحثا عن متعة لم اتذوقها بعد ، ونكهة جديدة لصيد جديد .

... ويقطع الفجر والصقيع علي ، احلام يقظتي ، فافتح عيني لاجـد نفسي في جحري الصغير ، الكريه ، الخاوي من كل شيء حتى من الدفء، والامل ، فاهرب من واقعي البائس الى الشوارع المغلفة بالجليد ، اجتازها بما يشبه العدو ، عل الخطى السريعة المتوترة تبعث دمي الهاجع ،وتشحن اعصابي الباردة بدفعة من الحرارة ، ولكن اكشاك الصحف تستوقفني ، عند كل منعطف ، لابحلق ، دون ان ادري الدافع ، بتلك العناوين الضخمة المثيرة التي تتصدر الصفحات الاولى من صحف الصباح.

« اغتيال بن قدور عند قوس النصر »

« العصاة الجزائريون يروعون باريس »

« الارهابيون الجزائريون يصرعون اوفى صديق لفرنسا » .. واقهقه في سري كالابله ، ثم الوك لساني الكسول :

ـ يا للسخرية .... يهزأون بفرنسا ويهزؤون هيبتها ... فيقتلون اصدقاءها في عاصمتها ، وتحت قوس نصرها .

... واقلب شفتي بحركة كأنها الشماتة ، واتابع سيري الهستيري ، والملامح السمراء التي راقبتها في « النار الخابية » ليلة البارحة تنشط الى وعيي متتابعة متلاحقة ، وقد قنعتها الريبة لتستوقفني بعد قليل ، عند ناحية الشارع وتجمدني ، كمن وجد شيئا ضائعا انهك نفسه في البحث عنه :

ـ لقد وجدتها. لا شك انهم هم الذين صرعوا بن قدور. ملامحهم الحذرة المتزمتة ، وهمسهم المريب المتواصل ، والخريطة المبسوطة تحت اعينهم . كلها ادلة جرمية ، او على الاقل شبهات تجيز لي ان اتهمهم ، ان امسك بتلابيبهم باسم القانون ، باسم العدالة الفرنسية ... ان اسوقهم الى كولونيل ... اي كولونيل . وانحني امامه ببسمة الفخور :

ـ اقدم لك يا سيدي هذه الهدية المتواضعة ، ثلاثة من افراد العصابة الارهابية التي تقض مضاجعكم ...

.. ويربت الكولونيل على كتفي ، ويعدني بوسام رفيع ، ويأمـر بـان يجزل لي العطاء فأخرج من بين يديه ، منتفخ الصدر ، وفي جيبي ثـمن مناسب ، لرؤوس ثلاثة قد تستريح العدالة الفرنسية من غمها الخانق ، حين تسلمها غدا الى قبضة الجلاد :

... وابتسم بزهو « للمهمة » السعيدة التي ستجعلني انتصر عمـا قريب على الفاقة والتشرد والحرمان .

ـ ٤ ـ

الساعة الثانية بعد منتصف الليل ، والحانة تكاد تخلو من الرواد ، الا بقايا حلقات تتناثر في الزوايا الخافتة الضوء الملبدة بضباب الدخان واصداء القهقهات .

... والثلاثة في زاويتهم . كؤوسهم المترعة بالنبيذ الرخيص ما زالت تتثاءب بضجر وخمول . وهم غارقون في نقاش مهموس تنقبض له عضلات وجوههم حينا ، وحينا تنبسط .

لقد استطعت هذه الليلة ان اكتشف اسماءهم . نجحت اذنـــاي المشرعتان في التقاطها رغم حذرهم ، والرقابة الشديدة التي فرضوهـا على همساتهـم .

ان كبيرهم الاشيب الصدغين يدعى « عباس » . سمته وغموضـه وسلطانه على زميليه دلالات ترجح انه « الزعيم » .

والثاني يدعى « بن خضير » وهو فتى في الخامسة والعشريـن ، لـه شارب اسود انيق كجناح سنونوة ، وعينان نفاذتان يخيل اليك حــين تقعان عليك ـ عرضا ـ انهما تخترقان عظمك ولحمك ودمك ، وتشيعان فيك مزيجا من الرعب ، والتهيب ، والاعجاب بالفتوة .

اما ثالثهم ... فيدعونه في تهامسهم « بلقاسم » . وهو افطس الانف قليلا حذر النظرات كالحدأة ، تتحرك كل عضلة فيه حين يتحرك لسانه ، وتكاد الحيوية تتدفق من اطرافه باحثة عن مسيل .

ان « بلقاسم » على ما يبدو لي هو اداة التنفيذ ، وعباس عقلها المخطط ، وبن خضير ـ برج المراقبة الذي يحدد للاداة لحظة الصفر .

ـ هي تقديرات يا الفونس ، اوحتها لك مظاهرهم ، فجرب ان تكتشف الحقيقة وراء هذه المظاهر . حاول ان تخرج السلحفاة من درعها العظمي.

... وتصنعت النعاس ، وارسلت دفعة من الشخير ، تكفي لاقناع جيراني بامكانية التحرر الجزئي من حذرهم ، ونجحت الخطة ، بعد دقائق ، فاذا بابن خضير يخرج من جيبه احدى صحف الصباح ، وينشرها على المائدة ، ثم تتدانى الرؤوس الثلاثة ، ويتخافت الهمس ، وتحوم الاصابع فوق صورة تتصدر الصحيفة .

اني اعرف جيدا هذه الصورة . لقد وقفت امامها في الصباح وتاملتها ... وتأملت مخطط الجريمة ، وكيف وثب المجهولون على سيارة « بن قدور » وافرغوا في الصدر المسكين ثلاث رصاصات فقط ، وكيف سال دمه بعد ذلك ، في خط طويل متعرج تحت قوس النصر :

.. واذن .. لقد كانت شكوكي في محلها ، وصح حدسي ، فانا امام خلية ناشطة من خلايا الارهابيين الذين هددوا يوما بنقل الحرب من بلادهم الى ارض فرنسا ، خلية تستغل جو العربدة ، وضياع السكارى في الحانة ، لتضع في هذا الجو خططها ، وعلى مرأى من شهود ثلاثة صم بكم ، مترعة بالنبيذ الرخيص

ما اشهى هذه الرقاب السمراء الفايظة معلقة على اعواد النقمة .

وما اشهاها وهي في قبضة العدالة ، تشدها هذه القبضة فتنوس فيها الحياة شيئا فشيئا ، ثم تنطفيء بعد دهر طويل من العذاب المر .

بل ما اشهاها الان مربوطة بخيط غير مرئي تعبث به اصابعي ، خيط يجر ، « الثمار اليانعة » الى مصيرها العادل ، ويجر ثمنها الى جيبي .. جيبي انا الشريد المتسكع الباحث بلا امل عن رغيف شريف .

...ووثبت من زاويتي ، وفي راسي مخطط واضح لاقرب طريق ، يستطيع ان يضعني امام اقرب مركز من مراكز البوليس .

ـ ٥ ـ

بيني وبين مركز البوليس منعطف شارع .

ان بضع عشرات من الخطى هي كل ما يفصلني عنه من مدى ، ولكن خطوي النزق المغذ ، يتثاقل فجاة ، وسيلا من السياط اللاسعة المجنونة ينهال على صدري ، ويكاد يصدني ، صاغرا ، الى الوراء .

ـ الى اين يا هذا ؟

ـ ارجوك اني ادعى الفونس

ـ كلا ... انك واهم . فانت « شيء » .. اتسمعني ؟ انت « شيء » حقير قذر اسمه جاسوس .

ـ ولكني فرنسي ، وولائي لفرنسا يفرض على العمل في سبيلها .

ـ ان ولاءك كانسان يجب ان يكون للحرية وللانسان ، ولا ولاء عليك لوطن ينصب نفسه عدوا لكليهما :

ـ يا للفظاعة : ومن قال لك هذا ... ان ..

ـ ارجوك . ان اسمي هو الفونس :

ـ ومن قال يا الفونس ان فرنسا هي عدوة الانسان والحرية ؟

ـ اسال الجزائر .

ـ ان فرنسا في الجزائر لا تحارب الحرية ، ولا تمتهن الانسان ولكنها تحارب التمرد ، وتؤدب الخارجين على القانون وتحاول ان تمد فوقهم ظلال المدنية :

ـ اجاد انت فيما تقوله ؟ واذا كنت كذلك فمن الذي اعطى امتك هذه حق الولاية على الشعوب ؟ وهل ان ما كنت تراه هناك من « مآثر » جيوشها ، يمثل بعض مظاهر المدنية التي تريدون ان تفرضوها ؟

ـ ......

ـ ما بالك تصمت ؟ امن تعاليم مدنيتكم تلك ، احراق الزرع ، وقتل الاطفال والشيوخ ، وتدمير القرى ؟ اهذا هو انجيلكم الذي تبشرون به هنـاك ؟

ـ ولكنها الحرب يا صاحبي !

ـ وما غاية هذه الحرب في عصر يسفه منطق الغزو ويثور على شرائعه الهمجيـة ؟

ـ ان فرنسا تحارب لانها تخشى ان تجوع اذا فقدت الجزائر .

ـ ولانها تخشى الجوع ، لا تتورع عن اكل لحوم الجزائريين .. اليس كذلــك ؟

ـ ولماذا تقرعني ؟ أأنا وحدي المسؤول عن سلوك فرنسا ؟

ـ كل واحد منا مسؤول عن هذا السلوك ، ثم ها انت ذا في الطريق الى البؤرة اللعينة ، الى الحمأ الذي تغرق هي فيه .

ـ ولكني جائع ... ولكني جائع ..

ـ واشباعا لجوعك تريد ان تنهش لحم عباس ، وبن خضير ، وبلقاسم ؟

ـ ولكنهم قتلة ارهابيون .

ـ انهم عدالة الشعب ، يكافئون بالقتل من يقتل شعبا بكامله .

ـ اترضى ان يمتهنوا كرامة فرنسا في قلب عاصمتها ؟

ـ اترضى انت ان تمتهن فرنسا كرامتهم كبشر في قلب بلادهم ؟

ـ لكم انت متعصب لهم .... فلكانك واحد منهم .

ـ انا اتعصب للحق ، لذلك لا تستغرب اذا ما رأيتني في صف المدافعين عنـه .

ـ ودمك ... يبدو انه فسيلة من دمهم ؟

ـ نحن اخوة في الحرية ، واكاد اقول ... وفي الدم ايضا ؟

ـ يا خبيث .. لماذا تريد احراجي ؟

ـ ما ذنبي في ذلك ، وقد احرجتك امك من قبل حين اشتهت ، ثم احرجك ضميرك بعد ذلك وما يزال .

ـ ولكني اكرههم واحقد عليهم فصدقني ... اكرههم واحقد عليهم ،

ـ تلك قشرة على سطح شعورك .. بسطها الاضطهاد .. ليغطي بها حقيقتك !

ـ اذا .. فانا احبهم دون ان ادري ؟

ـ اجل ....

ـ حسنا ... اما زلت في نظرك ذلك « الشيء » القذر الحقير الذي اسمه « جاسوس » ؟

ـ كلا .. فانت الان الفونس : عد يا الفونس ... ان الجوع والتشرد والحرمان .. اخف وطأة على الضمير من ان تطعن في الظهر انسانا ينشـد الحريـة .

*

... وعدت ادراجي لاقف تحت الاضواء الملونة امام الحانة ، فاسند ظهري المتعب الى الجدار البارد ، وارنو ، بمحبة ، الى الثالوث الاسمر وهم يغادرون غار الليل العابق بالدفء ... وضباب الاحلام ، وانفاس السكارى .

وهوذا عباس بقامته المديدة ، ووجهه الصارم يقف على العتبة ليهمس في اذن رفيقيه كالعادة :

ـ الى اللقاء ...

فتكمل ملامحه العبرة ولا اتمالك نفسي فاكمل معه :

واتمنى لكما النجاح في المهمة ..

بيروت

احمد سويد

فصل الخطاب ... في الفرعونية !

بقلم علي بدور

(*) قبل ان ابدأ حديثي اريد ان اجلو للسادة القراء نقطتين . اما النقطة الاولى فهي ان الاستاذ الصديق غالي شكري في رده المنشور بالعدد الماضي « فرعون من جديد ــ العدد الثالث صفحة ٦١ » قد اعتبر الكلام منتهيا من جهته . وانني رغم موافقتي على هذا الرأي من ناحيته اعتقد ان الموضوع لو كانشخصيابحثنا لجاز الاتفاق على ذلك . ولكن الفكرة اكبر من كلينا واعمق بكثير من مجرد مناقشة ورد عليها ، لانها تعني في اعتقادي قضية الوحدة بين الاقليمين والقومية العربية وتصفية الاجواء الفكرية من اثار الثقافات الاستعمارية التي غرسها الاستعمار في المنطقة ، كما تعني ايقاف الدجل الفكري عند حده وفتح صفحةجديدة من صفحات التفكير الحر والوعي الصحيح ، والارادة القوية التي ان امنت بفكرة مشت الى الامام دون ان ترهب المشانق ولا غرف الغاز ، لان حرية الفكر منحة من الله وليست من الانسان . وكل ظني ان صفحات مجلة الاداب ــ بالاذن من صاحب الاداب ــ ستبقى مفتوحة لكل من يريد ان يبدي رأيه في الموضوع سواء اكان مع العروبة ام مع الفرعونية ، او مع كلتيهما ، لاعتقادي ان العروبة والفرعونية لا تلتقيان .. وهذا عكس ما يراه الاستاذ غالي وما سوف نعرض له وشيكا !!

اما النقطة الثانية فهي قصة الاستشهاد بفقرة من خطاب ارسله له الصديق الاستاذ عدنان الداعوق يقول فيها (ان مقالك هذا اثار من حولنا ضجة .. وقد كلف الاستاذ علي بدور بالرد عليك وارسل رده للاداب) . والواقع انني في عجب اكثر من عجب الاستاذ غالي .. لانني اخبرت الاستاذ عدنان بقصة الرد وارساله للاداب ، وهذا كل ما في الامر بالتحديد القاطع . ولا ادري الان كيف جاءت كلمة التكليف هذه في رسالته ؟ هل يعتبر الحماسة للرد من قبله والتشجيع عليه تكليفا منه الي ؟ انني بكل تواضع اقبل هذا التفسير رغم وقعه المؤلم في النفس ! اما تفسير الاستاذ غالي للتكليف من انني لست صاحب الرد بالمرة وسؤاله عمن كلفني فارجو ان يتاكد ان الذي سوف يكلفني ــ حسب تفسيره ــ لم يخلق بعد .. ولن يخلق ما دمت حيا لان الله يحب ان يكثر السادة بين حملة الاقلام وليس العبيد !!

والان نبدأ الحديث عن الفراعنة الذين يدافعون عن انفسهم .. وعن الفرعونية !!

يقول الاستاذ غالي انني بكل بساطة استعديت عليه بتهم عديدة يكفي ان تنصب مشنقة لاقلها . ولكن بكل يقظة وانتباه اقول له انني كمواطن عربي اؤمن بالوحدة العربية والقومية العربية لا اؤمن باي سلاح يشهر في وجه من حمل قلما يدافع به عن فكرته . وبوحي من هذا الايمان قرات دفاعه عن محمد وكتبت ردي عليه ، وبوحي من هذا الايمان اقرا رده علي (فرعون من جديد) واكتب ردي على هذا الفرعون الظريف !!

ان السلطات تؤمن بالحرية ولا تشنق احدا يا صديقي لانها ــ في اعتقادي ــ تترك للزمن وحده صلاحية امتحان الافكار وانتخاب الصحيح منها . وانت لست الوحيد الذي يدعو للفرعونية بأكثر من اسلوب .. رغم وضوح رأي اكبر رأس في الدولة .. واقصد به سيادة الرئيس جمال عبد الناصر .. في مسألة الفرعونية . وانا لم استشهد به في ردي عليك لاعتقادي انه لم يحن الوقت لذلك .. اما الان والسلطات في رأيك تنصب المشانق فانني اريد ان ادلك على الطريق لتطمئن الى ان السلطات لو كانت حقا تنصب المشانق لكان قد سبقك اليها عشرات بل مئات من الذين يسيئون الى القضية العربية من حيث يدرون ولا يدرون !!

هل تريد امثلة ؟

سأستشهد لك بفقرتين من خطب سيادة الرئيس ، تعرض فيهما للفرعونية . مرة عندما كان في اللاذقية ــ أذار (مارس) ١٩٥٩ ــ فقد نعت الفرعونية بأنها دعوة استعمارية كان يروج لها الاستعمار البريطاني بقصد عزل مصر عن العالم العربي ، ولكن مصر ضربت الطوق الذي أحكمه حولها الاستعمار وعادت الى صف اخواتها العربيات للمساهمة في حمل مشعل القومية العربية .

ومرة ثانية قال من خطاب القاه مساء ٢٢ تموز (يوليو) ١٩٥٩ ، احتفالا بالذكرى السابعة للثورة المظفرة : (استطعنا نحن ان نرى القومية العربية .. نراها رأيا سليما .. نرى القومية العربية التي حاول الاستعمار البريطاني منذ ان وصل الى بلادنا ان يبعدنا عنها . ويحاول الاستعمار ان يبث في انفسنا من الافكار ما يجعلنا نعتقد اننا لسنا عربا ولسنا جزءا من الامة العربية . استطعنا رغم هذه المحاولات التي استمرت ــ ٧٥ سنة ــ ان نرى الدعوة الفرعونية التي حاول الاستعمار ان يبثها بيننا ، ضمن الدعوات التي حاول ان يبثها ضمن الامة العربية ــ انما هي محاولة زائفة يحاول الاستعمار بها ان يحطم الامة العربية ليقضي عليها جزءا جزءا ويقضي على العرب والقومية العربية لتحل محلها قوميات اخرى . استطعنا نحن ان نعرف مكاننا وان نعرف تاريخنا وشخصيتنا ونعرف اننا عرب ونعلن عروبتنا ، ونعلن في دستورنا اننا جزء من الامة العربية ونعود الى مكاننا الطبيعي الذي كنا فيه .)

هذا هو رأي سيادة الرئيس في الفرعونية ، وهو رأي قاطع في الفرعونية يدحض رأي كل من يقول ان ان مصر تدخل المجموعة العربية دون ان تفقد فرعونيتها ، وهو رأي مفكر قومي عربي أصيل وضع النقاط على الحروف بصدد الدعوات التي حاول الاستعمار ان يبثها ضمن الامة العربية في المنطقة ليقضي عليها جزءا جزءا كالاشورية في العراق والفينيقية في لبنان ، والفرعونية في مصر . وسيادة الرئيس لو شاء لمنع الكلام في الفرعونية من اساسه . ولكنه يريد ان تتنفس الفكرة العربية تنفسا طبيعيا وان تنمو نموا سليما .. وهي قادرة بذلك ان تدحض كل الافكار الاستعمارية الاخرى . ذلك ان الذين يروجون للفرعونية لو عن حسن نية معروفون. وهأنذا استشهد بفقرات

(*) يراجع في ذلك : (دفاع عن محمد ــ الاداب ــ العدد ١٢/١٩٥٩) (عندما تدافع الفرعونية عن محمد ــ الاداب ــ العدد ٢/١٩٦٠) و (فرعون من جديد ــ الاداب ــ العدد ٣/١٩٦٠)

واخبار تنشرها بعض صحف القاهرة ومجلاتها ، لو شاءت السلطات ان تحاسب كاتبيها لوجدت مادة الجريمة الفكرية - ان صح التعبير - واضحة ولاستعانت بكلام السيد الرئيس في الفرعونية لوضع الانصبة والحدود في حق العابثين . ولكن السلطات لا تريد ان تحارب الفكرة بالعنف ، بل تريد ان تحارب الفكرة بالفكرة !

ان العبارات التي توشح صفحات اكثر المجلات والجرائد ب - اجدادنا الفراعنة - كثيرة . واولئك الذين يحيون موات التماثيل كلما اقدمت الجمهورية العربية على مشروع حيوي ليصلوا حاضر الجمهورية بماضيها الفرعوني .. هؤلاء ايضا كثيرون . فهذا سنوسرت الثالث اول ملك فرعوني شق قناة ينبغي ان ينقل تمثاله ليتربع على قاعدة تمثال ده لسبس في بور سعيد (الاخبار ٢٢-١٠-٩٥٩ صفحة ٣) . وهذا اول ملك فرعوني بنى سدا ينبغي ان تعرفه الاجيال الصاعدة في مناسبة بناء السد العالي (صفحة الغلاف من مجلة المصور) . وهذا امنحتب الذي حقق الاتحاد بين مصر والاقليم الشمالي لاول مرة في ٢٦ أيار (مايو) منذ ٣٤٠٠ سنة عندما وصلت جيوشه الى اراضي الاقليم الشمالي (الاهرام ٢٢-٥-٩٥٩ صفحة ٥). وهذا رمسيس الثاني الذي حقق الوحدة عندما طرد الحثيين في معركة قادش (اكثر الصحف والمجلات الصادرة في القاهرة .. ولاكثر من مرة في العام الواحد !) . وهذه جريدة (وطني) التي اتخذت الشعارات الفرعونية رمزا لها ، ولون العلم في مصر قبل الوحدة لونا لشعارها . وهي الجريدة التي عناها الاستاذ محيي الدين محمد في مقاله المنشور في العدد الثالث عن النشاط الفكري في الاقليم الجنوبي ، هذه الجريدة تقول حتى الان كلاما مسموما في العرب والعروبة ولو من بعيد، وكلاما في الفرعونية جد واضح فهي على لسان احد الكتاب فيها تقول ان الفرعونية اثرت في المسيحية والاسلام لانها منحتهما اهتمام الراهب والشيخ بالتعليم ، مثل ما كان يفعل الكهان الفراعنة ! وعلى لسان اخر تقول ان الجلوس في حلقات حول المدرس في الجوامع الاسلامية في مصر، انما هو اختراع (مسروق) سجلته اول جامعة فرعونية في العالم ! وكذلك فان قرع الطبول للقمر ساعة خسوفه عادة فرعونية قديمة .. ليست معروفة الان الا في الاقليم الجنوبي - رغم انها معروفة - والقصد منها ان المجتمع في مصر لايزال على عاداته الفرعونية !! واكثر من هذا .. ان الدكتور عبد الحميد يونس نشر كتابا صغيرا عن (مجتمعنا) لخصته له جريدة المساء عام ١٩٥٩ يقول فيه بما معناه : ان المجتمع المصري وحدة خالصة منفصلة عن سائر المجتمعات التي حولها لاربعة اسباب : الجبال المحاذية للبحر الاحمر وللصحراء الغربية - الصحراء - والنيل في وسطها - والشمس التي يصنع المواطنون صورها على الخبز ويلقي اليها الاطفال باسنانهم لتنبت من جديد . وسأترك للقراء التعليق على هذه الخصائص الفريدة التي تميز مجتمعا في هذا الزمان !! وكذلك ما قاله محرر العمود السياسي في (الاخبار) يوم زار امبراطور الحبشة القاهرة زيارة رسمية في اوائل صيف العام الماضي ، واصفا العلاقات بانها كانت « جد وطيدة بين الاقليم الجنوبي واثيوبيا ايام المصرين القدماء ... والحكام العرب .. والعصر الحديث » فعروبة مصر هي عروبة حكام لدى السيد السند الفهلوي وليست عروبة شعب باكمله كما قال سيادة الرئيس اكثر من مرة . ولم تجد (الاهرام) من كلام تقوله - بعد الذي قالته عن امنحتب ورمسيس الثاني - في عيد الجيش اكثر من قولها بان جيشنا العربي هو استمرار لجيش عمره اربعة الاف سنة (جيش الفراعين) .. الخ ..

ان السلطات لا تشنق احدا يا صديقي الغالي فلا تخش على نفسك. والحرية الفكرية - التي تصرخ مطالبا بها - في الجمهورية العربية المتحدة مباحة الى هذه الدرجة التي يراها كل ذي ضمير . ولا اعتقد انه يمكن لاية دولة تؤمن بمثل هذه الحرية الفكرية وادباء وصحفيين يتحدثون عن عروبة مصر والقومية العربية ويطعنونها من الخلف بمثل ما يتحدثون ويطعنون .. ويمجدون الفرعونية بمثل ما يمجدون رغم ما تنشره الصحف ويطلع عليه الناس كافة من آراء سيادة الرئيس في الفرعونية ودعاتها . ولكن الدولة تسمح بذلك كله كما قلت - في اعتقادي - لايمانها ان الفكرة القومية التي تنتصر هي الفكرة التي تنمو نمو طبيعيا لا اعتسافا ولذلك ارجو من الصديق ان يطمئن .. لان الحرية الفكرية التي يطلبها موجودة ، واقواله التي يقولها هو وامثاله ، دليل هذه الحرية . ولو كان الكلام الذي قاله يستحق الشنق عليه ، وكانت السلطات تشنق احدا لكان من الواجب القومي أن يجد امامه مئة رقبة مدلاة على الاقل . ولكن الاقلام لا تشنق والافكار لا تشنقها الا افكار مثلها .. ولكنها اقوى منها !!

فاذا كنت متاسفا لهذا الكلام الذي قلته انا عن الفرعونية وانصارها ، فانني كمواطن التزم باقوال سيادة رئيس جمهوريتنا في الفرعونية والداعين لها والاستعمار الذي شجع عليها وحماها . ولن اقبل بغير هذا القول الواضح الصريح .. وهو حجة قاطعة على اي كلام اخر يمتدح الفرعونية ويعتبرها من العوامل الاساسية في بناء الوحدة بين مصر وسوريا بخاصة والوحدة الشاملة بعامة . لان الرئيس قال بأن الفرعونية دعوة استعمارية كان يروج لها الاستعمار البريطاني بقصد عزل مصر عن اخواتها العربيات . ولا يمكن لنا ان نصدق كلاما اخر يقولهاي انسان من ان الفرعونية تدعم الوحدة بعد ان كان الرئيس قد قال انها دعوة استعمارية يقصد بها عزل مصر عن شقيقاتها . ولا اعتقد ان دعوة تعزل مصر عن شقيقاتها كما يقول الرئيس ، يمكن لها ان تدعم الوحدة بفتوحاتها الامبراطورية القديمة كما يقول دعاة الفرعونية !!

واذا كان يحق للسادة المدافعين عن الفرعونية ان يتأثروا .. فماذا نقول نحن المؤمنين بالعروبة لبعض حملة الاقلام اولئك الذين يريدون ان يكونوا اساتذة قوميين في الفكرة القومية وهم اجهل الجهلاء . انهم يحدثوننا عن امنحتب الذي حقق الاتحاد وعن رمسيس الثاني الذي حقق الوحدة ... ومثله هراء كثير يستوي وما يقوله اعداء القومية العربية والوحدة من حملة الفكرة الشيوعية او المنادين بالاقليمية الضيقة او الطائفية البغيضة في اي بلد عربي ضد عروبة الجمهورية المتحدة ، متخذين ما تنشره صحف معروفة عن الفرعونية وسيلة الدس على القومية العربية ودرعها الجمهورية العربية المتحدة حاضرا ومستقبلا . ولكن عزاءنا الوحيد ان هؤلاء المنحرفين قوميا ، قلة وانهم لا يمثلون وجه مصر العربي باي حال من الاحوال ولا تلقى دعوتهم اذنا صاغية ، وان كانوا يسيئون للقضية العربية لتناسيهم ان الوحدة بين الاقليمين ليست استمرارا لوحدة الفتح والضم في التاريخ القديم ، ولان العروبة عندما صبغت المنطقة بالصبغة العربية ، وضعت على رف التاريخ القديم ، كل امجاد الفراعين، وكل خيلاء الفينيقيين ، وكل غرور اشور ، ودفنت الى الابد عربة رمسيس الثاني في الرمال !! وما دام هؤلاء الذين ينادون بالفرعونية لا يمثلون وجه مصر العربي ، فان مصر العربية لا تعترف بامجاد اي فرعون من امنحتب الى رمسيس الثاني .

بعد هذا كله سوف ارد على الفقرات التي ذيل بها الاستاذ الصديق غالي شكري مقاله عن الفرعونية الى المجلة الانجليزية اياها !!

■ هنالك فرق كبير بين الاسلام والعرب . كما ان هنالك فرقا كبيرا

بين ان تدخل اللغة العربية مصر بواسطة العرب كعرب .. وبين ان تدخل بواسطة المسلمين .. ولو كان جميعهم عربا .. او كان اكثرهم من العرب لان العروبة فكرة والاسلام دين . تستمد هذه الفكرة مقوماتها من الحياة الاجتماعية واللغة والتاريخ في التطور العام . وليس للعروبة دين معين. ولكن لها لغة واحدة هي اللغة العربية التي كان يتكلمها العرب قبل الاسلام ونزل بها كلام الله على نبيه العربي.. فلما انتشر الدين الاسلامي انتشرت اللغة العربية . فمن تكلم هذه اللغة العربية ولو لم يكن مسلما واعتبرها معبرة عن احاسيسه ووجدانه ، واندمج في الحياة الجديدة التي انطبعت بالطابع العربي بعاداتها وتقاليدها ومقومات حضارتها وتراث فكرها الاصيل ، اضحى عربيا بمقومات وجوده الانساني اولا ، وبمقومات وجوده القومي ثانيا ، وبمقومات وجوده الوطني ثالثا . فهو انسان عربي تجاه العالم . وهو قومي عربي تجاه الامة . وهو عربي وطني تجاه الدولة . لان العروبة لا تقوم على الدم اذ يستوى لديها اثنان احدهما عربي بدمه والاخر عربي بوجوده .

والفكرة الاساسية التي اريد ان اقولها الان كما قلتها من قبل هي ان المسلمين الذين دخلوا مصر لم يكونوا جيشا فاتحا بقدر ما كانوا جيشا من الدعاة للدين الجديد استوطن افراده البلد ونشروا لغتهم وعاشوا في تآلف مع اخوانهم الاقباط ، وطبعوا البلد بطابعهم العربي دون اكراه او ضغط - وهذا ما حصل في المنطقة العربية كلها - . والا فكيف يتكلم اخواننا الاقباط اللغة العربية فيما بينهم وفي كنائسهم دون ان يدخلوا الاسلام اذا لم يكن التمازج هادئا بغير عنف ولا اكراه .. وهلا حصل مثل هذا التمازج في تاريخ الشعوب والدول بين حبشي فاتح غاز وشعب يقاوم الغزاة الفاتحين ؟ لعل الاستاذ غالي يذكر مثالا واحدا ؟ وهؤلاء الانجليز ظلوا اربعمائة سنة في الهند دون ان يستطيعوا فرض لغتهم على الشعب يتكلمها في حياته اليومية ومعابده الروحية . كما انه ليس في التاريخ العام نص واحد يدل على انه كان لمصر وقت ذهاب المسلمين اليها شخصية دولة او كيان حضاري واضح . ذلك انه بين تقوض الفرعونية لاخر مرة كدولة على يد الفرس ، وبين ذهاب المسلمين ، قرابة الف عام ساد فيها الرومان واليونان . والمسلمون اذا كانوا قد حاربوا فانما قد حاربوا بقايا اليونان والرومان . فلما جاءوا كانوا يحملون فكرة عن الدين وفكرة عن الدولة . الدولة لاقامة العدل .. والدين دين الدلة . فمن شاء ان يبقى على دينه دفع الجزية ومن دخل الاسلام اعفي منها . ولا اعتقد ان هذا الحل مناف للعدل ليس في ذلك الزمان .. بل في ظل دولة دينية . فلو كانت المسيحية دين شعب خاص في البداية ، ودين دولة ما فيما بعد ، نهجت نفس النهج ولا اريد ان اذكر بعض لحظات التعصب عندما اجبروا مسلمي اسبانيا على التنصر فمن أبى ساقوه الى النار !

هذه هي الخطوط العريضة للعروبة والاسلام . فالعروبة الان فكرة الشعب العربي بين المحيط والخليج .. عناصر هذه الفكرة ، وحدة التاريخ العربي - وليس تاريخ العرب قطعا - ووحدة الفكر العربي، ووحدة العاطفة والمشاعر ووحدة الماضي والحاضر والمستقبل . اما الدين فان المسيحية والاسلام معا ، دينان لامة العرب. والجمهورية العربية المتحدة كدولة لم تنص في دستورها الوقت الحالي على دين معين ليكون دينا للدولة ، رغم وجود دول تقدمية جدا في اوروبا وامريكا لا تزال تنص على دين معين للدولة . والجمهورية العربية المتحدة دولة من نبت القومية العربية فكرة لا تقوم على عنصرية معينة ، ولا طائفية معينة كما قال سيادة الرئيس في حديثه لاعضاء الاتحاد القومي باللاذقية خلال زيارته الاخيرة لها .

■ انك لا تزال حتى الان تعتبر ان حياة الدكتور الصديق نظمي لوقا ، قصة . وهذا في رأيي من العجائب - ولعله في رأي الدكتور لوقا ايضا . ؟ - فلو فرضنا انها قصة حقيقية اولا قد اكتملت عناصرها الفنية ، فهل يحق لاي كاتب في العالم ان يدرس هذه القصة دراسة اخناتونية على طريقتك ، لتصل ببطل القصة الشيخ المسلم والتلميذ الصغير الطالب القبطي الى أبي التوحيد اخناتون ؟ هل هذه دراسة نقدية للقصة رغم انها قصة .. ام انها دراسة فرعونية يا صديقي ؟ وهل التحابب والتآلف بين الدينين المسيحي والاسلامي ، كما يعترف به القرآن الكريم والسادة علماء المسيحية والاسلام - واعفنا من العنعنات - هو تحابب وتآلف مفتعل ؟ وهل ينبغي ان يكون حب المسلم وحب القبطي في مصر نابعا من صلب اخناتون كي نؤمن انه حب حقيقي ؟ اليس في ذلك اساءة لكل مسيحي يحب مسلما لم ينحدر من صلب اخناتون في هذا العالم .. ولكل مسلم يحب مسيحيا لم يحظ بمثل هذا الشرف العنصري الذي اسبغته على الشيخ المسكين وتلميذه الدكتور نظمي لوقا ؟ اما رأيك بأن الناقد قد يوافق على تفسير الكاتب او العكس .. فان هذا يصح في قصة .. اما في حياة ، فانه يتوقف على رأي الكاتب ايضا ، بأن يقول هل هو موافق على تفسير الناقد .. وخصوصا اذا كان هذا التفسير ، يقصد به اشياء غريبة ، مريبة ، تبطل الغاية من الكتاب وتعطلها .

■ تتهمني بصياغة ارائك صياغة مفككة ركيكة . حسنا . انني ارجو من السادة القراءان يرجعوا لمقالك(دفاع عن محمد - الاداب - كانون الاول ١٩٥٩ - صفحة ١٩) لانني على ثقة من انهم سوف يجدون الكثير مما تستحق عليه مناقشة اكثر طولا .. واكثر الحاحا لاظهار الحقيقة .

والان فانني اعتقد انه بات على الصديق الدكتور نظمي لوقا ، ابداء رايه في تحليلك لكتابه، لايماني انه لا يوافقك على كلما جاء فيه، لسبب بسيط هو ان وزارة التربية والتعليم قد تبنت الكتاب تقريبا واشترت منه الوف النسخ ، وقدم له سيادة وزير التربية والتعليم المركزي . ولا اظن ان الوزارة بله سيادة الوزير ، يقبل ان يقدم لكتاب ويأمر بشراء هذه الالوف منه ، وهو لو فسر حسب طريقتك، لاظهر من الدعاية للفرعونية بما لم يخطر على ذهن بشر . وسيادة الوزير الذي يعرف راي سيادة الرئيس في الفرعونية قبلنا جميعا ، لا يمكن ان يقبل ان يكون في هذا الكتاب - اذا ظل صاحبه صامتا - من العناصر التي تدفع كاتبا لان يشتم العرب والعروبة ويظهر الاسلام بمظهر الدخيل على مصر ويضع العرب الى جانب الغزاة الذين غزوا مصر كالترك والانجليز ! فاذا كان الدكتور لوقا لا يريد ان يتدخل في هذه المناقشة ، فانه من واجب الوزارة ان تسأله تفسيرا صحيحا ورايا قاطعا يبعد به عن كتابه الشبهات ، واني لعلى ثقة من ان الوزارة ستفعل ذلك . وهذا كله يبدو ضروريا قبل كتابة الكتابة الثاني (دفاع عن محمد) ، لانه من الامتهان للفكر الحر والقصائد السليمة ان تؤلف الكتب عن الرسالات السماوية وانبيائها ، لتفسر هذا التفسير الفرعوني .. الذي يسيء لكل فكرة نبيلة ورسالة سماوية سامية.

■ اما سوء التفاهم بيني وبين اخناتون ، فهو ليس سوء تفاهم بيني وبينك مثلا لا سمح الله ، ذلك انني احترم كل الحضارات القديمة وكل ثقافاتها وكل آثارها ، ان كان ثمة ثقافات واثار ، لانها ملك عام للانسانية كلها ولكن عندما يحاول احد ان يتعدى حدود المنطق الصحيح ليدخل على

تاريخنا العربي حضارات انتهت ويصلنا بمن ذهبوا الى غير رجعة فانني استطيع ان اقول في هذا الوقت للمزيفين : كفى ! لان رمسيس وامنحتب وسنوسرت واخناتون .. و.. و ، كلهم يمكن ان ندرسهم على انهم يمثلون جزءا من تاريخ الشرق القديم وهذا ما ستسير عليه وزارة التربية في برامجها التاريخية الجديدة . ولكن عندما تشرع الاقلام المسمومة والايدي المشلولة لتبعث الحياة في الجثث المحنطة وتزيف حياة شعب بأكمله ، وتسيء الى قضية عربية تخوض معركتها ضد الاستعمار والتبعية وانصار التجزئة والاقليمية والامبراطوريات المنقرضة ، فانه يغدو واجبا على جميع العرب ، ان يوقفوا هذا الزحف الخبيء الذي يسمم حياة الملايين من اجيالنا العربية ، لانه يفرض عليها ماضيا فارغا قد تلاشى ، لا حياة فيه، ويحقق حلما من احلام الاستعمار واحلام دنلوب في ان تكون مصر فرعونية لا عربية . هذه هي قصة الخصام مع اخناتون ، فلماذا لا تتركون الراقدين في مراقدهم دون ان تنشروا جثثهم على الناس . آمنوا بتاريخ مصر العربي اولا ، وتحدثوا عنه واستلهموا ابطاله وعباقرته ، ثم تحدثوا عن اخناتون وابي الهول ، وخوفو ومنقرع وسنوسرت كما تشاءون . اما ان تبدأوا من المؤخرة لتطمسوا المقدمة فهذا الذي نحاربه ما حيينا . اليس عجيبا ان يستشهد أنصار الفرعونية بمعركة قادش التي انتصر فيها رمسيس الثاني ، وبجيوش امنحتب التي وصلت الى اراضي الاقليم الشمالي ، وان لا يتحدث واحد منهم ولو مرة واحدة عن معركة حطين او معركة عين جالوت . مع العلم ان سيادة الرئيس عندما كان يتحدث عن وحدة الماضي لم يكن يرجع لاكثر من التاريخ العربي في المنطقة ، فاذا جاء دور المعارك استشهد بحطين وعين جالوت فحسب !!

والان تعال نتناقش فيمقالك الاخير الذي بعثت به لمجلة نيو ستيتسمان البريطانية . وخلاصته انك تؤرخ حركة النضال ضد الاتراك وضد الانجليز بالدعوة للفرعونية .. وان مصر لم تفقد جنسيتها عندما آمنت بالعروبة لانها اضافت اليها غنى جديدا .. وتسالني هل يمكن ان يكون قائل هذه الكلمات تلميذا لدنلوب ؟ وجوابي على هذا كله ليس لك فقط بل للسادة القراء ايضا ، لانني لن اناقش الفرعونية الان .. بل سأترك ذلك للسطور الاخيرة !!

ان الروح العربية ظاهرة في البلاد العربية بنسب واحدة رغم الاستعمار التركي والاستعمار البريطاني الفرنسي الايطالي . وهي لا تتصل بالدم مثل ما تتصل بالمقومات الفكرية والعاطفية ووحدة الماضي وآلام الحاضر وتحفزه وآمال المستقبل كلها . والمتتبع لخطط الاستعمار يجد أنها كانت متشابهة في المنطقة ، فقد وجه بعثاته ومؤرخيه وعلماءه الى دراسة الشعب العربي في المنطقة على اساسين :

١ - اساس عنصري يعود بالعرب الى جزيرتهم

٢ - اساس حضاري يهدف الى كشف تاريخ المنطقة القديم وبعث امجاده وفرضها على الاجيال الجديدة لتكون هذه الامجاد القديمة ، بمثابة قوميات تدعم الحدود السياسية التي اقامها او التي سوف يقيمها بين ارجاء الوطن العربي الواحد . فكانت الدعوة للفرعونية في مصر ... والدعوة الاسرائيلية في فلسطين ، والدعوة للسورية القومية في سوريا ولبنان . والدعوة للاشورية في العراق وللبربرية في المغرب ، بقصد اظهار الحياة العربية بمظهر الحياة الدخيلة واللغة العربية ، لغة غزاة مستعمرين بالاضافة الى تشجيع الدعوات العنصرية في المنطقة والحديث عن الدم العربي والدم غير العربي... وبذلك استطاع الاستعمار الى حد ما ان يبني قواعده الامامية للهجوم على استقلال هذه الشعوب وحريتها .

ولو درسنا الان بشيء من الدقة ، تطور الحضارات القديمة التي انتهت في المنطقة ومحاولة الاستعمار بعثها من مراقدها وتقييمها على اسس عنصري وعزل العرب كشعب في جزيرتهم ، ومحاربة اللغة العربية محاربة لا هوادة فيها بجعلها لغة ثانية او عدم تدريسها بالمرة وطمس التاريخ العربي في المنطقة واحياء التواريخ القديمة وتدريسها بالتوسع الموس واستنباط قيم فنية وادبية وروحية منها بقصد تدعيم العزلة، اقول لو درسنا ذلك كله لتبين لنا الطريق الذي اعده الاستعمار للعرب والعروبة .

فما هو موقف الامة العربية وشعبها العربي من هذه التيارات كلها ؟ هل تقبل ما شجع عليه الاستعمار واقامه من بناء فكري في ربوعها ، ام تقومه حسب مفهومها الخاص للثقافة والافكار والحضارات ، وخطط الاستعمار الرهيبة ؟

ذلك ان العرب كشعب ، والعروبة كقضية ، وحدت هذه المنطقة من محيطها الى خليجها .. رغم اساءة بعض الحكام الضالعين مع الاستعمار التركي والانجليزي والفرنسي والايطالي ، فان ذلك كله لم يمنع سكان المنطقة في اكثريتهم من التمسك بمقومات حياتهم العربية وثقافتهم العربية وامالهم لخير العروبة .. وان ما يردده الاستعمار ويقوله الاعوان عن اللغة العربية ، هو كلام رخيص ، لانه لا يستطيع شعب في العالم ان يستغني عن لغة يتكلمها اذا قام فيه من يقول ان اللغة ليست من مقومات بناء الامم . لان اللغة اذا اتحدت مع التاريخ فانها تغدو قوة لا تقهر . واللغة العربية والتاريخ العربي في المنطقة هما جناحا القومية العربية التي ينادي بها العرب اليوم ضد التجزئة والحدود السياسية التي اقامها الاستعمار ، وضد الحضارات القديمة عندما ارادها الاستعمار استمرارا لتطورنا الحديث مقابل طمس الفترة العربية الطويلة التي تعد بدءا جديدا لحياة شعب المنطقة من المحيط الى الخليج .

والصديق الاستاذ غالي شكري يقول ان الفرعونية في مصر كانت دعوة وطنية ضد الاتراك . وهذا رأي جديد لم يقله احد من المؤرخين . لان بداية دراسة التاريخ القديم لمصر تمت على يدي بعثة نابليون . وزادت حمى البحث عن الاثار في ايام محمد علي الى ان احتل الانجليز مصر . فلما تم لهم ما ارادوا بدأوا يروجون لهذه الاثار في ادمغة الجيل كله.. ولعل الاستاذ غالي لا يجهل ان دنلوب هو اول مخطط لفرعنة مصر - لا بقصد انتفاضتها على الانجليز - بل لفصلها عن البلاد العربية واظهار العروبة في مصر بمظهر الغازية ، بالاضافة الى ما اعتمده من برامج تسحق الشخصية وتبلدها وتقضي على حرية الفرد وحرية امته . وهذا هو سيادة الرئيس جمال عبد الناصر يخطب في ١٧ يوليو (تموز) ١٩٥٣ بمعسكر الطلبة في مرسى مطروح فيقول : (اننا الان لا نعتقد اننا قمنا بنهضة او اننا قمنا بثورة فما زالت تعاليم دنلوب متغلغلة في التعليم ، وسياسته متفشية في بيئاتنا الثقافية) . فما هي تعاليم دنلوب وسياسته يا صديقي ؟ اليست بعث الفرعونية من مراقدها ، وفرض ابطالها وقيمها - ان كان ثمة قيم - على الشعب، مقابل طمس عروبة مصر واصالة مصر العربية بضعة فاتحين وبضعة معارك وبعربة ركبها رمسيس الثاني ذات يوم ! ان مصر لم تستقل لانها كانت تنادي بالفرعونية ضد الاتراك كدعوة رومانسية ، او ضد الانجليز كدعوة قومية تعني ان مصر للمصريين ، كما تقول !! ان مصر استقلت استقلالا حقيقيا عندما وجدت طريقها نحو العروبة .. فلو ظلت ثورة مصر ثورة مصرية بحتة ، لما استطاعت ان تنتصر على الانجليز بهذه المدة. لقد انتصرت على الاستعمار عندما عرف

الاستعمار ان مصر لم تعد وحدها .. لقد اضحت العالم العربي كله .. ذابت فيه ، وذاب فيها . فقد اضحى لاستقلال كل قطر عربي استقــلالا حقيقيا ان تخلص قيادته لفكرة العروبة وان يضحي شعبه في سبيـلها وان يرتبط النضال فيه بنضال سائر اقطار الامة العربية . فالاستعمـار اقوى من كل قطر عربي على حدة ، ولكنه اضعف منها اذا اجتمعت . وثورة الجزائر خير دليل على اخلاص القيادة واخلاص الشعب وتكاتف سائر اقطار العروبة لنصرتها . وستنتصر !

ان جريمة الاستعمار ليست هينة لانه المسؤول عن بلبلة الثقافة القومية في مصر وعن ضياع الجيل بأكمله . لقد فرض على الجيل ابطالا لا يحس بهم ولا بلغتهم ولا بمشاعرهم .. وانساه كل ابطاله العرب الذين عاشوا وولدوا في مصر او عاشوا وولدوا في سائر البلاد العربية ، وصور له اللغة العربية بصورة كلمات تنقصها الحياة ، اذ تنطقها الافواه فلا تحس القلوب بوهجها ولا العقول بومضها ، وقام من يدعو الى اللهجـة العامية ـ واسموها لغة !! ـ او كتابة العربية بأحرف جديدة ممسوخة او بأحرف لاتينية صرفة ، وملئت ادمغة الجيل بمعلومات تاريخية وادبية وفنية مستمدة من التاريخ الفرعوني لا يقصد منها اكثر من محاربة العرب والعروبة وعزل مصر نهائيا عن العرب والعروبة ، واضحى الشعب العربي في مصر يوشك ان يتعرف الى شخصيته وهي مرسومة على وجوه السياح

الاجانب فحسب دون ان يكون له من المفاخر التي يعتز بها ويجعلها من اسس تماسك الشخصية القومية عندما يلتحم التاريخ الحي باللغة المعبرة. فلما قامت ثورة مصر عام ٩٥٢ وتبلورت وتطورت ، عادت بمصر الى جادة العروبة ، فارتبط النضال بالنضال وتقوضت خطط الاستعمار في الداخل والخارج فكان الجلاء وكان الاستقلال ولما كان هذا الاستقلال يعني تحطيم الحدود والسدود ، التقت الموجة التحررية المنبثة من سوريا بالموجـة التحررية المنبعثة من مصر التقاء حرا كريما فكانت الجمهورية العربيـة المتحدة في ظلال علم الوحدة والقومية العربية ورئاسة قيادة جمال عبد الناصر المخلصة .

وما يقال الان عن الفرعونية وينشر في الصحف المحلية والاجنبية من ان مصر لم تفقد جنسيتها الفرعونية عندما نادت بالعروبة لانها زادت من ساحة مسؤوليتها واهتمامها ، فهو كلام يحتاج الى مراجعة عميقة ، لان الفكرة القائلة بان الشعب المصري وحدة متماسكة رغم اليونان والرومان والعرب ورغم اليهودية والمسيحية والاسلام . انما هو كلام خرافة لا يصدقه تلامذة رياض الاطفال .. وان كانت الحقيقة المعروفة هي ان مصر مصران : مصر القديمة التي اذاب شخصيتها الفرس واليونان والرومان ، ومصـر الجديدة التي كونت العروبة شخصيتها . وليس بينهما من اتصال سوى الارض . وكل كلام يقال سوى ذلك يبقى موضع شك الى ان يقبله العقل والمنطق السليمان . لان تاريخ العرب القومي هو امتداد العرب وتفاعلهم ضمن حدود الزمان والمكان . فالمكان بين المحيط والخليج ، والزمـان منذ بدأ سكان المنطقة يتكلمون اللغة العربية ويعيشون تاريخ الامة العربية بين المحيط والخليج. واذا كانت الارض العربية من المحيط الى الخليج قد كانت في التاريخ القديم ، في بعض اجزاء منها ، مسرحا لحركة تفاعـل ادتها شعوب اخرى ليس منها الشعب العربي ، وتمثلت في حضـارات متنوعة ليس منها الحضارة العربية ، فان الامة العربية بوجودها الحي قد وضعت على رف التاريخ القديم سير كل هذه الشعوب المنقرضة بتواريخها ولغاتها الميتة وعاداتها الاجتماعية التي لم يعد احد يتبناها او يعرفـها بعد ان حلت محلها اللغة العربية والعادات العربية والحياة العـربية . فتاريخ المنطقة كله اذن تاريخان : تاريخ قديم متنافر مختلف ليس للعروبة علاقة به على الاطلاق ، وتاريخ حديث حي هو تاريخ الامة العربية من محيطها الى خليجها ، فيه مقومات الوحدة الشاملة ليس بين قطريـن عربيين كمصر وسوريا فحسب ، بل بين سائر الاقطار العربية .

ومصر العربية ـ وليست مصر الفرعونية ـ قد وجدت طريقها العربي الصحيح. وهي لم تفقد جنسيتها الفرعونية ـ كما يقول المحرر البريطاني معبرا بذلك عن اسف حكومته لضياع ما عملت له طيلة امد الاحتلال ـ لانها لم تكن لها هذه الجنسية الفرعونية اصلا . وهي لم تدخل ساحة الامة العربية مضيفة الى جنسيتها الفرعونية غنى جديدا كما يقول الاستاذ الصديق غالي شكري ، بل لانها وجدت طريقها الصحيح كما عبر بذلـك سيادة الرئيس في اللاذقية عام ١٩٥٩ عندما نعت الفرعونية بانها دعـوة استعمارية كان يروج لها الاستعمار البريطاني بقصد عزل مصر من العالم العربي ، ولكن مصر مزقت الطوق الذي احكمه حولها الاستعمار ، وعادت الى صف اخواتها العربيات للمساهمة في حمل مشعل القومية العربية .

فأهلا بمصر العربية في ساحة النضال العربي الاصيل

واهلا بالاقليم الجنوبي في ساحة الجمهورية العربية المتحدة تحت راية القومية العربية : رسالة الوحدة والقوة والبناء .

علي بدور

حمص

هدية صغيرة..
الى اختي مارى

عزيزتي
اواه كم اود ان اراك ، ان تضمني
عيناك ، ان اعود
على جبيني تعب السفر
وفي يدي بعض ما جنيت من مجاهل الوجود
اواه لو تكون لي هنيهة
من الامان والظفر
احملها اليك .. لو تكون لي
هنيهة املكها ، اجعل من لهيبها
ما تطاب الحبيبة السمحاء من حبيبها

عزيزتي
ماذا اقول يا عزيزتي
هنيهتي الصديقة المعطاء ما تزال
قصائد الرحيل والفراق والامان والنضال
احسها تأخذ ما خبأته
تمنحه لعابر السبيل ..للرمال
لساقط على الطريق كان دائم السفر
يجول - مثلما اجول - باحثا عن النخيل
في الرمال ، والمحار في البحار ، والظلال
في الحدائق القصية اليانعة الثمر
يجول - مثلما اجول - باحثا عن الخطر .
اواه كم اود ان اراك ، ان تضمني
عيناك ، ان اعود
وفي يدي بعض ما جنيت من مجاهل الوجود
هدية صغيرة لقلبك الودود
لكنني اخاف يا عزيزتي
الا يكون لي الهنيهة الخلاقة ..الكبيرة
التي اردتها التي جمعت فيها كل روعة الخلود
فمعذره
لانني على سفر
دربي البحار والقفار والمرافيء التي
تعيش في تمرد على القدر
واخوتي المصابرون كل زادهم
في رحلة البقاء ، كل ما يحيلهم
اقوى من الجفاف والغبار والرياح والهزال
شوق الى الحياة والفتوح والظفر

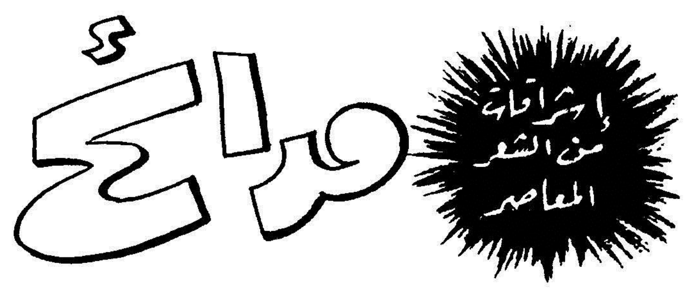
عزيزتي
معذرة والف معذره
فربما تلفني الرمال
وربما اكون من « ذبائح » البحر
لاننا في كل يوم نطلق الشراع
الى المجاهل البعيدة التي ..
لا تعرف الشمس ولا القمر
لنقطف المحار
من المهاوي الصاخبات والشعاب والحفر
نغوص .. نضرب الشباك ثم نجمع الشباك
وليس فيها غير شيء من طحالب القرار
والفراغ والضجر
وعندما يهاجم القرصان مركبا
من المراكب المهشمات السائرات في العواصف
المصممات ان نعود ، ان نكابر الهلاك
نهاجم
وليس في جفوننا سوى السهر
وليس في قلوبنا سوى الصمود
حتى تكل اذرع الرجال ، والمراكب .
المزقات تستكين في قرارة الدمار .

عزيزتي
اواه كم نحب .. كم نحن للقاء
والصفاء والصغار والسمر
وكم نود ان نعيش دونما سفر
لكن في عروقنا
شيئا من الحياة يكره الخور
شيئا نحسه أشد قوة من القدر
هو الامان عندما نخاف ، والطعام ..
عندما نجوع والسلام عندما نداهم الخطر

عزيزتي
رحلتنا طويلة وزادنا قليل
ودربنا تعج بالغبار والصراع
وكم يموت صاحب منا بلا وداع
على مفازة الرحيل
وصاحب وصاحب
حتى يظل من جموعنا نفر
وعندما تخوننا حرارة الرجاء
وتغرب النجوم من مسالك السماء
وتزحم المصائب
كواهلا مثقلة ارهقها الحياء
يهب في عروقنا الشيء الذي نحسه
اقوى من الفرار والضجر .

عزيزتي
اواه كم اود ان اراك ان تضمني
عيناك ، ان اعود
وفي يدي بعض ما جنيت من مجاهل الوجود
هدية صغيرة لقلبك الودود

الكويت ناجي علوش






تقديم هاني صعب

تزين عمارة الشعر العالمي المعاصر ، اطلالة ماردة ، متوحدة ابدا ، وغائبة ابدا ، تنقل الى الناس بصوت مقنع ، وبايماءة شبه مضاءة ، ايقاعات كبرى من الطبيعة والنفس والتاريخ ، ملأى بالقوة والاسرار .

هذه الاطلالة الماردة ، التي تشل الحرف على الكون وكانه منتزع من حنجرة جرس في واد سحيق . هذه الايقاعات الكبرى بل هذه الملحمة الرحبة لانها لم ترض بسوى الكون جميعه موضوعا لها ، انما هي لشاعر فرنسا الكبير سان جون بيرس .

ولد ((ماري ـ رينيه ، الكسي ، سان ـ ليجيه ليجيه)) ـ وهذه هي كنيته الاصلية ـ في ٣١ ايار عام ١٨٨٧ في جواديلوب ، احدى الجزر الصغرى التي تقع بين اميركا الشمالية والجنوبية . وبعد ان امضى قسما من طفولته في جزيرة صغيرة للتنزه تدعى ((سان ليجيه لي ـ فوي)) Saint - Léger - Les - Feuilles كانت تملكها عائلته التي تحمل اسمها . وقسما في مدينة مجاورة وفي مزرعتي عائلة امه : ((دار بوا ديبو)) و ((دار جوزفين)) ، جيء به الى فرنسا عام ١٨٩٨، حيث تابع دروسه الثانوية في ((ليسيه دي بو)) والحقوقية في ((بوردو)) التي شهدت مولد قصائده ((صور لكروزوبيه)) .

وفي عام ١٩١٤ التحق بالسلك الخارجي . وشغل منصب سكرتير للسفارة الفرنسية في بكين من عام ١٩١٦ الى عام ١٩٢١ .برهة قام خلالها بعدة رحلات في الصين وكوريا ، والى اليابان ومنغوليا وجزر ماليـزي وبولينيزي .

وفي ختام عام ١٩٢١ ، عين خبيرا سياسيا لقضايا الشرق الاقصى في اجتماع دولي في واشنطن . ومديرا سياسيا للخارجيـة عام ١٩٢٩ . وسفيرا عام ١٩٣٣ ثم سكرتيرا عاما حتى عام ١٩٤٠ الذي اهل شؤما عليه وعلى الشعر . اذ اتهم من قبل حكومة فيشي ، التي اسقطت عنه جنسيته الفرنسية ، وحرمته من حقوقه ، وانتزعت منه وسام الشرف ، فوق اتلاف الجستابو اثر تفتيش منزله ، لاكثر من سبعة مؤلفات مخطوطة، حصيلة جهد يمتد من عام ١٩١٦ الى عام ١٩٣٩ ، قيل انها اضاميم خمس من الشعر ودراما وجملة مقالات.

اذن لم يبق له سوى الرحيل .

ومنذ ذلك الحين ، اي منذ ١٤ تموز عام ١٩٤٠ ، الموعد الذي حط فيه قدمه في نيويورك حتى الان، لم يرجع الى اوروبا ، رغم حصوله مباشرة بعد تحرير فرنسا على كامل حقوقه .

ان صانع الملاحم ((سان ـ ليجيه)) على حد قول محرر ((التايم)) في عددها الصادر في ٢٥ اب عام ١٩٥٨ ، يقيم حاليا في واشنطن بكل هدوء ، محاولا ان يعوض الخسارة التي انزلها النازي باعمال سان ـ جون بيرس . اسم استعاره ((ليجيه)) بحكم الضرورة زمن انغماسه في الدبلوماسية. دون ان يكون لاي مزعم اخر مد اصبع. ولا صحة على الاخص للظن الذي يربط هذه الاستعارة باعجاب سابق بالشاعر اللاتيني((بيس)).

اخاله قد وفى اكثر نذره . فقصائده الطوال: ((مدائح)) Eloges و ((اناباز)) Anabase ، و ((منفى)) Exil و ((رياح)) Vents اخيرا ((أمير)) Amers ، تتحدى تلك الايدي التي تخاصرت يوما ، لتمحق سبع اخوات لها في قمطها . وتمر على رخامة العين مر عثكولة من الاضواء يثقلها غبار الاساطير .

اخاله قد وفى نذره . بينما اولئك المخربون يلمهم النسيان ليذر في احداقهم غبار الكناسات .

خمس قلائد ، تجمعها الكلمة السلطانه ، والصورة الشده ، والنبرة الملحمية الفخمة،بطريقة تخالف مجموعةالشعر الفرنسيخاصةوالعالميعامة.

يقولون ان ((ر.ب. دوس)) وهو عالم نباتي مرموق وصديق عائلته في جواديلوب ، كان له بعض التأثير عليه في طفولته . وان احد اساتذته من تلامذة الجيولوجي ((ادوار سويبس)) الذي ينتمي لمدرسة العلماء الرومانتية التي تغلب احيانا الحدس والرؤية الفنائية على الحقيقة الاختبارية ، كان يستأثر باصفائه في ((بوردو)) . وان العصور الصينية القديمة ، قد غزت خياله الى ابعد حد . وان تلك النبرة العظيمة تشير في البال نبرة التوراة ، وكتاب الاموات للمصريين القدماء . ولكن ما من رأي يقطع . لقد هضم بيرس اغذيته بشكل عجب . وأي مدد يمكن ان يصادف عنده ، فمن الصعب ان يهتدي الى منبعه .

تحديد واحد صح ، وكان في النسق ، هو التجانس القريب نوعـا في سبك الشعر بينه وبين ((بول كلوديل)) الشخص الذي كان يعجب به ويجله . تجانس لم يطمح ليكون طابعـا .

ان طابع بيرس نسيج وحده . خاصته الكبرى لاتقتصر على طينـة القصيدة وصورها ولقاها وحسب . بل تنزع الى عطاء في حالة الصفاء ، او اشبه ما يكون بلهجة نبوية تعكس ابعد من معناها المباشر .

يميزه كذلك ، استعمال حروف العطف في اول القصيدة ، والتعجب، والندبة ، والنداء ، والاضمار ، والامر ، والمجهول والضمائر الحيادية . وتغيير صفة المتكلم في وسط الوصلة الشعرية . مما يزيد في سرعة ومد نفس القصيدة واحيانها .

انما الذي يبعث على الدهش حقا . هو ان يكون هذا الضرب من الشعر، برغم من صعوبة مادته التي تتخمها الغرابة والرموز الخفية ، صـالحا للترجمة . حتى انه قد نقل الى معظم لغات العالم الحية ، دون ان يفقد روحه ، او ان يوقع ناقليه في عدم الامانة او في عقبات لا تذلل ، باعتراف ناقليه انفسهم . وانني بعد ان قمت بهذه التجربة ، لاضم صوتي اليهم مجاهرا بهذا الاعتراف .

على ان ذلك ، ليس من قبيل الصدفة. فسان ـ جون بيرس يستعمل لغة صافية غنية مليئة بالصور ، تظل وان جردت من عباءتها المحلية ، محتفظة بفضل تلك الصور ، ببسيطرتها وترفعها عن ان تنزلق في نزلات النثر بالذات .

يقودنا هذا ، الى نعت بيرس بشاعر الصورة الاول ، ولكن من طراز مغاير لم نعهده عند شعراء الصورة .

بعض التقارب فقط ، ظهر لي باقوى حال ، موزعا على « مدائح » وقصائد ل ت.س.اليوت الذي حول « اناباز » الى لغته .

واليك ترجمة هذا المقطع الاول ، على سبيل المثال ، من قصيدة لاليوت بعنوان « مطالع » :

« المساء الشتائي يهبط
مع روائح الشواء في الازقة .
الساعة السادسة .
اعقاب مطفأة لايام مدخنة .
واذا بزخة عاصفة من المطر
تلف نتف الاوراق
الذابلة الوسخة حول قدميك
وبجرائد تنهال من بقع خاوية ،
وزخة المطر تخبط
على شعريات الشبابيك وقرميد المداخن ،
وفي زاوية من الشارع
حصان عربة وحيد ، ينفث البخار ويرفس .
ثم تشتعل المصابيح . »

اما اذا كان اليوت قد تأثر بالتصويرية الى مقدار ما . فان بيرس هو شاعرها المبدع ـ ولكن من طراز مغاير كما قلت ـ الى غاية انه اختصها بالبوم كامل يجمع سلسلة من الصور تلبس الجمال كلسان من نار .

هذا الالبوم ، هو « مدائح » . نشره اولا في ثمانية عشر نشيدا ـ يرى القارىء ترجمتها فيما يلي ـ بامضاء « سان ـ ليجيه ليجيه » في « المجلة الفرنسية الحديثة » عام ١٩١٠ . ثم في مجلد اضيفت اليه بعض القصائد بامضاء « سان ليجيه ليجيه » ايضا عام ١٩١١ ، ثم في طبعة اخرى عام ١٩٢٥ ، مع قبضة قصائد جديدة تحت امضاء سان ـ جون بيرس هذه المرة .

مداره ، طفولة في جزيرة ، ذكريات تكر كالثواني . ثوان في صور . وشعر ياخذ بالاندر والانبل . همه ان يحرك النفس ، وان يرفع القارىء خطوة خطوة الى مستواه فاقد اللهاث . شعر لا يقص ، لا يشرح ، انه يعبر ، بل هو لايعبر. انه يعرض .

لوحات من « برانتابيتر » مدينه في جواديلوب ، حيث سجلت ولادة الشاعر ، هذه « المدائح » .

يسأل بيرس ببراءة الصبي :

« لقد أحببت حصانا ، ترى أيا هو كان ؟
لقد تفرس في وجهي أكيدا من تحت عرفه . »

وببراءة الصبي يصرخ :

« لاتشدي هكذا بشعري »

او يستيقظ ثملا بألف مشهد ومشهد من النبات والحيوان :

« أيها الافق اللازورد ! ان حيواناتنا محشوة بالصراخ !
أستيقظ مفكرا بثمر « انيب » الاسود ، بأزهار في باقات تحت ابط الاوراق . »

او يجلس وحيدا في صداقة ركبتيه ماخوذا بفكرة وحدة الوجود على مايبدو :

سأخرج ، لان لدي عملا : حشرة
تنتظرني لافاوضها . او بالحري
فان لدي تحالفا مع الحجار ذات العروق الزرقاء .
وانت ستتركينني كذلك جالسا في صداقة ركبتي . »

كل شيء ملموس ومرئي في هذه اللوحات المجلوبة من ارض الهزات البركانية : الاحداث اليومية ، الاطار العائلي والطبيعي تتوالى بوفرة هنا وهناك :

ـ « كأمواج من قاع الارض يسحبون صفائح كبيرة مرنة من المعدن..
ـ وأمهاتنا يعزمن النزول معطرات بعشبة مدام ـ لالي ...
ـ عندنا اكليرس من الكلس ، موتى الفيضان مثل حيوانات محلوجة ، في تلك الصناديق القصديرية التي يحملها الوجهاء . »

انت دوما مع الصبي « ليجيه » تلعب بسلاحف تتدحرج كنجوم سمراء ، وشراع كنفس كبيرة مضطربة ، وتلك الاسماك التي تنسل كالفكرة في مدى النشيد ، وخشاخيش بين يديكما كعارشة جلبان ، وقطعة صغيرة من السماء تزرق على حدر أظافركما .

وبعد ، فهذه « مدائح » في ثوبها العربي ، بأمانة كلية ولا ازيد .

ان كل شرح او تأويل لمثل هذا الشعر ، هو نوع من التجديف والتدنيس .

قد تكون خسرت ايقاع أبياتها المنثورة .

قد تكون خسرت التزاوج المحكم والرنة الفخمة لبعض مفرداتها في لغتها الام ، شأن كل شعر منقول ، ولا سيما اذا كان لشاعر كبيرس . الا انها مع ذلك ، تظل بفضل صورها ـ كما جاء سابقا ـ أعز من ان تسقط في مهاوي النثربالذات .

مدائح : لسان ـ جون بيرس

ـ ١ ـ

اللحوم تشوى في الهواء الطلق ،
المرقة تهيأ
والدخان يصعد الدروب بشدة
ويلحق ذاك الذي كان يسير .
آنئذ يفر الحالم ذو الوجنتين الوسختين
من حلم عتيق موشح بالقساوة والمكر
والبهاء ،
وينزل
مزخرفا بالعرق ، نحو رائحة اللحم
كامرأة تجر بتثاقل . نسائجها ، وكل بياضاتها
وشعرها المبعثر .

ـ ٢ ـ

لقد أحببت حصانا ـ ترى أيا هو كان ؟ ـ
لقد تفرس في وجهي أكيدا ، من تحت عرفه .
كان ثقبا منخريه الحيان ،
شيئين جميلين للنظر ـ مع ذلك الثقب الحي
المنتفخ فوق كل عين .
كان عندما يركض ، يعرق : اي يشع
بالضوء ! ـ وكنت أعصر أقمارا على جانبيه
تحت ركبتي في الصباء ...

لقد أحببت حصانا ـ ترى أيا هو كان ؟ ـ
وأحيانا « لان الحيوان يعرف جيدا
ما هي القوى التي تمجدنا »
كان يرفع الى آلهته رأسا من نحاس :
رأسا لاهثا ، تخططه شبكة من عروق .

ـ ٣ ـ

ايقاع الكبرياء يهبط التلال الحمراء .
السلاحف تتدحرج في المضائق
كنجوم سمراء .
ومرافىء كبيرة تصنع حلما مليئا
برؤوس الاطفال ...
كن رجلا ذا عينين هادئتين يضحك ،
رجلا صامتا يضحك تحت جناح
الحاجب الهادىء ، كمال الطيران « وبطرف من
هدب ساكن يرجع الى الاشياء التي رآها ،
مستعينا بدروب البحر الخادعة ...
وبطرف من هدب ساكن
يكون قد صنع لنا اكثر من موعد في جزر ،
مثل ذلك الذي يقول للاصغر منه :
« سوف ترى ! »
فانه هو الذي قد يتفاهم مع سيد المركب . »

ـ ٤ ـ

ايها الافق اللازورد ! ان حيواناتنا محشوة بالصراخ !
أستيقظ مفكرا بثمر « آنيب » الاسود
في كؤيسه المثالل الابتر ... آه حقا ! لقد نهشت
السراطين شجرة بأكملها ذات ثمار طرية . هناك شجرة
ملاءى بالندوب ، نمت على جذعها
أزهار كثيرة العصير . وأخرى
لايمكن مسها باليد ، كما يمكن ان تفعل ،
دون ان تمطر على الفور
من ذلك الذباب ، الالوان ! ... النمال تركض
في وجهتين ، ونساء يضحكن وحدهن
في أزهار الاسفندان ، تلك الازهار الصفراء ـ الملطخة ـ
بالسواد ـ الارجوان ـ في الاسفل التي تستعمل
في اسهال الحيوانات القرناء ... والجنس
يعبق شذاه ، والعرق يشق له طريقا رطبا .
ان رجلا وحيدا قد يضع انفه في
طية ذراعه . وتلك الضفاف تنتفخ ، تنهار
تحت ركام من الحشرات في أعراسها
المجنونة . لقد برعم المجذاف في
يد الجذاف . وكلب حي في طرف
كلاب هو خير طعم للتماسيح ...
ـ أستيقظ مفكرا بثمر « آنيب » الاسود ؟
بأزهار في باقات تحت
ابط الاوراق .

ـ ٥ ـ

... اما تلك المياه الهادئة ، فهي الحليب بعينه
وكل ما يندلق كذلك في خلوات
الصباح الطريئة .
الجسر المغسول ، قبل النهار ، بماء
يشبه في الحلم مزيجا من فجر ، يصوغ
خبرا حلوا عن السماء . والطفولة معبودة
النهار ، عبر عريش من المظال المدحرجة
تنزل الى مستوى أغنيتي .
أيتها الطفولة ، ياحبي ، الم يكن
غير ذلك ؟ ...
أيتها الطفولة ، ياحبي ... ذاك الحلقة
المزدوجة للعين ، والسهولة في الحب ...
هدوء كبير يخيم ، ففتور ،
واستمرار كبير ايضا ،
حتى ليبدو غريبا ان نكون هناك ،
مشبوكي الايدي الى
ليونة النهار ...
أيتها الطفولة ياحبي ! لاشيء
غير الاذعان ... وهل قلت ذلك يومئذ ؟ انا لاأريد
حتى تحريك هذه الثياب
في القنوط ، في خلوات الصباح
الخضراء ... وهل قلت ذلك يومئذ ؟
لا شيء غير ان نخدم
كحبل عتيق .. وذلك القلب ، وذلك
القلب ، هناك ! فلينجر على الجسور ،
أحقر وأقفر وأرث
من ممسحة عتيقة ...

ـ ٦ ـ

ويصعد آخرون ، بدورهم ، على
الجسر
وانا أطلب ، مازلت ، الا ينشر
الشراع ... أما ذلك الفانوس ، فيمكنكم
بصواب ان تطفئوه ...
أيتها الطفولة ، ياحبي ! ها هو الصباح ،
ها هي
أشياء عذبة تتوسل ،
كالبغض للغناء ،
عذبة كالخجل ، الذي يرتجف على
الشفاه ، أشياء مقولة عن عرض ،
يالها أشياء عذبة ، وتتوسل
كصوت ذكر لا أعذب ، اذا رضي
ان يحنى نفسه البحاء نحو التي تحني ...
والان فأنا أسألك ، أليس
الصباح ... سهولة في النفس
وطفولة النهار الهاجمة ، العذبة
كنشيد يمط العيون ؟

ـ ٧ ـ

قطعة صغيرة من السماء تزرق على حذر

أظافرنا . النهار سيكون حارا حيث تتكاثف
النار . وها هي الحال كما ستكون :
تشنج في اللجج القرمزية ،
الهوة مداسة بجواميس الفرح (يا للفرح
الذي لا يوصف الا بالضوء !) والمريض
في البحر ، سوف يقول
لنوقف المركب كي يستطاع الاصغاء
الى ضجيج صدره .
وفراغ كبير اذ ذاك لكل الذين
في المؤخرة ، ورفس الصمت يرتد
الى جباهنا .. الطير الذي كان يتبعنا ، يحمله
طيرانه الى فوق رؤوسنا ، فيتجنب الصاري ، ويمر
عارضا لنا رجليه الورديتين كالحمام ،
متوحشا مثل همبيز ورقيقا مثل
أحشويروش .. ويقول اصغر المسافرين ،
الجالس بكله تقريبا على الدرابزون : « أرغب في
ان احدثكم عن الينابيع تحت
البحار .. » (ويطلب اليه ان يقص)
ـ سوى ان المركب يصنع ظلا
أخضر ـ أزرق ، ساكنا ، نفاذا ، يستولي
عليه الغلوقوز حيث ترعى
كقطعان رشيقة متعرجة
تلك الاسماك التي تسل كالفكرة
في مدى النشيد .
.. وانا ، كلي صحة ، أرى ذلك
واروح
قرب المريض اقص عليه ذلك :
وها هو يبغضني

ـ ٨ ـ

للتاجر الرواق على البحر ،
والسقف لصانع التقاويم !.. أما الاخر
فله المركب الشراعي في قعر خلجان صغيرة من الخمر
السوداء ، وتلك الرائحة ! وتلك الرائحة الشرهة
للخشب الميت ، التي تبعث على التفكير ببقع
الشمس ، بالفلكيين ، وبالموت ..
ـ هذا المركب هو لنا وطفولتي
ليست في نهايتها .
لقد رأيت كثيرا من الاسماك
التي علمت على تسميتها . رأيت اشياء اخر
كثيرة ، لا تشاهد الا في عرض المياه ،
واشياء اخر ميتة ، واخر
خادعة ... ولكن لا
طواويس سليمان ، ولا الزهرة المرسومة
على حمالة الرا ، ولا الهر ـ النمر المشبع
من اللحم البشري ، امام الالهة النحاس ،
لمونتزوما
تفوق بالوانهـا

ذلك السمك الدغل ، المتسلق
ظهر المركب ليفرح أمي الشابة
والتي تتثاءب
... وكانت تتهرأ اشجار في قعر
خلجان صغيرة من الخمر السوداء

ـ ٩ ـ

... آه انتهي ! اذا تحدثت بعد
عن النزول الى البر ، فأنا أفضل ان اخبرك ،
اني سأرتدي هناك تحت عينيك .
الشراع يقول كلمة جافة ، ويساقط
ما العمـل ؟
الكلب يرتمي في الماء ويدور حول
الفلك .
الاذعان ! مثل حبل قلع .
حلي الزورق
أو لا تحليه ، او قرري
ان نستحم .. فذلك يوافقني ايضا
.. صداقة الماء كلها تحلم ثانية
بصمت على نواحي الشراع
امضي ، فان حكاية حلوة
تنتظم هناك
ـ يا له من سبوندي (1) للصمت ممطوط
على مداه !
.. وانا الذي يكلمك ، لا اعرف شيئا
قويا او عاريا
مثل الشراع الضخم النزق
بلون الدماغ
ذي الطيات التي تهدبه ،
والممتد بجانبنا ، في وسط مركب
.. الاعمال ، أعياد الجبين ، واعياد
العنق !..
وذلك الصخب ، وذلك السكون !
وتلك الاخبار في السفر ، وتلك الرسائل في المد والجزر
يا خمور النهار المراقة !.. ومنظر الشراع ،
النفس الكبيرة المضطربة ، الشراع الغريب ،
هناك ، والدافيء الموحى ، مثل منظر
وجنة .. يا
نفحات الريح ..! انا حقا اسكن في
حنجرة الاله .

ـ ١٠ ـ

كي تنزل الابقار والبغال الى البر ،
يعطون المياه ، من على ظهر السفينة
تلك الالهة المسبوكة بالذهب ، والمفروكة بالراتينج .
المياه تزهو بها ! تتبجس !
ونحن ننتظرها على رصيف الشاطيء مع
قدر من الخشب مرفوعة بشكل مشاعل

(1) Spondée في الشعر ، جزء مركب من مقطعي كلمة طويلين

واعيننا مسمرة على نجمة تلك الجباه ـ اذ كان
هناك جمع معرى بكامله ، مؤتزر برونقه ،
وقنــوع

ـ ١١ ـ

كأمواج من قاع الارض
يسحبون صفائح كبيرة
مرنة من المعدن : صفائح جافة ، مرتعشة
تريق سفحا من السماء ، مسبيا باسره .
كي ترى ، قف في الظل . والا فلا .
المدينة صفراء من الحقد . الشمس
تقذف في احواض المرافيء شجارا
من رعود . وقدر من الطعام المقلي تسهيل على
طرف الشارع ، الذي ينعطف من الطرف الاخر
أليفا لغبار القبور .
(لان المقبرة هناك ، هي التي تسود
عاليا ، بجوانب من خفان : مشكوكة بالغرف ،
ومغروسة بأشجار كظهور الكزوار (١)

ـ ١٢ ـ

عندنا اكليرس من الكلس
أرى النيران تشع في معسكر
لعمال اللحام ...
ـ موتى الفيضان ، مثل
حيوانات محلوجة
في تلك الصناديق القصديرية التي يحملها
الوجهاء ، والعائدة من دار البلدية
في الشارع الكبير المسدود بالمياه الخضراء (ايتها الرايات
المدموغة كظهور الاسابع ، والطفولة
في السواد مشنوقة بشراريب من ذهب !)
كانوا مكومين ، لحين ،
في المكان المسقوف من السوق :
حيث يقف
ومرتديا كيسا عتيقا يعبق
برائحة الارز ،
زنجي ذو شعر كصوف
خروف اسود يلوح كنبي
يوشك ان يصرخ في صدفة ـ بينما
تنبيء السماء الرمادية البيضاء
بزلزال اخر في ذلك المساء .

ـ ١٣ ـ

رؤوس السمك تتهانف
بين اطباء هر ميت منفوخ
ـ أخضر او خبازي ؟ ـ وبره ، ذو لون الحرشف ،
رديء ، لبد
كخصلة شعر تمتصها عانس

مسنة صغيرة عجفاء ، ذات يدين بيضاوين
من البرص .
والكلبة الوردية تجر قبالة الفقير
كمية من لحم الضروع
وبائعة الحلوى
تطرد الزنابير التي يشبه طيرانها
لسعات النهار على ظهر البحر
وولد يرى ذلك ،
جد جميل ،
حتى انه لم يعد يستطيع اطباق اصابعه ..
غير ان الجوز الهندي المستنزف والمرمي هناك ،
كرأس اعمى يصرخ منعتقا من الكتف ،
يرد عن المجرى
بهاء المياه الارجوانية المصفحة
بالدهن والبول ، حيث يحوك الصابون
نسيجا كنسيج العنكبوت .
على الطريق العام الحقيقي ، فتاة
مرتدية كملك ليدي

ـ ١٤ ـ

بصمت تنسل المائية وتخرج
من اطراف الورقة الرقيقة
ها هي سماء من القش يرمى فيها ،
يا للرمي ! المشعل بكل قوة !
اما انا فقد سرت القهقرى
يا اصدقائي الذين لا اعرف اين ؟..
الن تروا ذلك ايضا ؟.. موانيء تزفر ،
ومياه حلوة من النحاس الرخو
حيث الظهيرة مفتتة الصنوج تثقب
وهج بئرها .. يا عجبا ! هذه هي الساعة
عندما ، في المدن المسخنة بكثرة ، في قعر
الباحات اللزجة تحت العرش المجلودة
عندما يجري الماء الى البرك المسدودة تهتكه
ورود الظهيرة الخضراء.. والماء العاري
هو اشبه بلب حلم ، والحالم
يضطجع هناك ، مثبتا الى السقف
عينه الذهبية القاتلة ..
والولد الذي يعود من مدرسة
الاباء ، ودودا لصق مودة الجدران
التي تنث رائحة الخبز السخن ، يرى عند طرف
الشارع حيث يلف
البحر الخاوي اكثر جلبة من
مزاد للاسماك . وبراميل السكر
تسيل على الارصفة المركشيت
التي دهنها النفط بمشجرات كبيرة
وزنوج حمالو بهائم مسلوخة
يبحثون على خزف دكاكين الجزارين النموذجية

(١) نوع شبيه بالنعام ، من الطيور العداءة في استراليا يستعمل ريشه للزينة

ليحطوا ثقلا من العظم واللهاث
وعند مفرق الطرق في السوق البرونزية
الدار الشامخة المحنقة حيث يتدلى
السمك ، والتي يسمع اليها تغني في
صفيحتها الحديد ، رجل امرد ،
في ثوب قطني اصفر ، يصيح : انا الله !
واخرون : انه مجنون !
واخر مأخوذ بالرغبة في القتل
يتوجه الى مستودع المياه
مع ثلاثة اكر من السم : وردية ، وخضراء ، ونيلية
اما انا فقد سرت القهقرى

— ١٥ —

ايتها الطفولة ، يا حبي ، لقد احببت كثيرا
المساء كذلك : انه ساعة الخروج
خادماتنا دخان في تويجات
الفساتين .. ونحن ، ملتصقين الى درفات النوافذ
تحت ضفائرنا المجلودة ، كنا نرى
كم هن بملاسة ، وكم هن بعري
يرفعن اطواق الفساتين الناعمة الى اطراف اذرعهن
وامهاتنا يعزمن النزول ، معطرات
بعشبة مدام لالي .. اعناقهن
جميلة . تقدم واعلن : امي
هي الاجمل ! — وفي الحال اسمع
الثياب المنشاة
التي تجر بين الغرف
زمزمة رقيقة .. والمنزل ! المنزل ؟
نخرج منــه !
الرجل المسن حتى ، قد يغبطني على
زوجي نواقيس
وخشاخيش بين يدي
كعارشة جلبان ، كالبندق الهندي
واولئك الذين شاخوا في البلد يسحبون
كرسيا الى الباحة ، ويشربون البونش
بلون الصديد .

— ١٦ —

... اولئك الذين شاخوا في البلد
نهضوا بكرة
ليدفعوا درفات النوافذ وينظروا الى السماء
والبحر المتلون
والجزر ،قائلين : سيكون النهار جميلا
اذا احتكمنا الى هذا الفجر .
وفورا يطلع النهار ! ويشتعل حديد
السقوف المصفح في الرعب ، ويسلم المرفأ الى القلق ،
والسماء الى سورة النشاط
ويرتمي الراوي في اليقظة !
والبحر ، بين الجزر ، ورد كالشبق ،
لذته مادة للمنازعة ، كانت له
لقاء حصة من اساور النحاس !
واولاد يركضون الى الشواطيء ! وخيول
تركض الى الشواطيء !.. مليون
من الاولاد يحملون اهدابهم
كخييمات الزهر .. والسابح
له فخذ في ماء فاتر ، واما الاخرى
فتثقل في مجرى رطب ، والزر الحبشي ،
وقنب سيام
والقراص ذو الزهور الخضراء وذاك الفطر
الملتبد ، لحية الجدر العتيقة
جميعها تهيم على السطوح ، عند جفاف الميازيب،
لان ريحا من ابرد رياح السنة ،
ترتفع ، عند برك الجزر التي تزرق
وتجري منبسطة حتى بيوتنا ، تلك المفاتيح
المسطحة ، نحو صدر الرجل المسن
عبر مرفأ الثوب الى المكان المليء
بالشعر بين الثندؤتين
والنهار قد حز منه القليل . والعالم
ليس جد عتيق اذ لم يضحك فجأة ..

★

حينئذ تصعد الدرج ثانية
رائحة القهــوة

— ١٧ —

« عندما ستكونين قد انتهيت من ترتيب شعري،
سأكون قد انتهيت من بغضي لك . »
الولد يحب ان يمشط على
عتبة الباب
« لا تشدي هكذا بشعري .
يكفيني الان انه علي ان امس ، عندما
ستكونين قد رتبت شعري ، سأكون
قد ابغضتــك » .
بينما حكمة النهار تأخذ
شكل شجرة حلوة
والشجرة الميود
التي تفقد قبضة من العصافير
تقشر لبحيرات السماء خضرة
جد بهية ، لا تفوقها غير بقة الماء خضرة
« لا تشدي كثيراً بشعري .. »
دعيني الان ، فانا ذاهب وحدي
سأخرج ، لان لدى عملا : حشرة
تنتظرني لافاوضها . انا افرح
بالعين الكبيرة ذات الوجيهات : العين المقرنة ،
غير المنتظرة ، مثل ثمرة السرو
او بالحري فان لدى تحالفا مع الحجار
ذات العروق — الزرقاء : وانت ستتركينني كذلك ،
جالسا ، في صداقة ركبتي

ترجمة : هاني صعب

مدينة تأكل الجياع

الى صاحب ديوان « مدينة بلا قلب »

طرقت ابوابك في الظلام .. والدروب
تعج بالايدي التي تمتد للرغيف ..
كقلبي اللهيف ...
سألت .. والرفاق مثلي يسألون :
هل هكذا يضيع في المدينة الغريب؟!
يلفه الضباب .. والدخان .. والشحوب ؟!
ويختفي .. كذلك اللحن الكئيب ..
يعزفه شيخ على ربابه ..
في جانب الطريق ..
يبكي على احبابه ..
بصوته الرقيق..
والناس يعبرون .. يعبرون ..
وليس من يعيره انتباه !!

*

اختاه هل رأيت ما جمعت في يدي ..
من ثروة المدينة العمياء ؟!
رجعت يا اختاه فارغ الجيوب !!
لانها ارض بلا سماء
سياطها لا ترحم الغريب ..

*

سمعتها تقول وهي تمضغ الدخان واللهيب ..
والحقد .. والسباب .. والوعيد ..

« انا .. راقصة زنجية ..
رقصتها نارية خفية ..

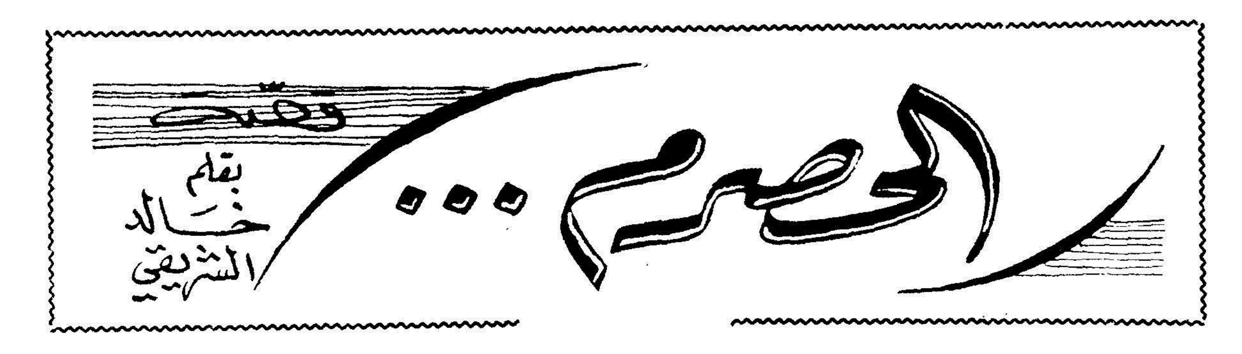
الزمن المسعور في اهابي ..
معلق .. يمتص من قرابي !

وتركض الايام والليالي !
لكنني ارقص .. لا ابالي !

آكلكم ان جعت يا جياع ..
فلحمكم للذتي متاع !! »

فهل سمعت يا أختاه كيف تنشد المدينة ؟!
هلعت من احقادها الدفينة ..
ولذت بالجدار احتمي ..
والناس يركضون ..
فبعضهم مسافر .. وآخرون ..
في ظلمة الحانات يختفون ..
ورحت اطرق الابواب في جنون ..
وبين أضلعي خريف ..
يمتص ما تبقى في سراجي الضعيف ..
والليل تنين مخيف ..
يغتالني .. والف ظفر .. الف ناب ..
تمتد في الظلام ..
ولا ازال اطرق الابواب ...
متى .. متى يارب يطلع الصباح ؟!
فانني حزين !!
كذلك اللحن الذي يعزفه شيخ على ربابه ..
في جانب الطريق ..
يبكي على احبابه ..
بصوته الرقيق ..
والناس يعبرون .. يعبرون ..
وليس من يعيره انتباه !!

احمد محمد صديق



لم تشاهد اخطبوطا في حياتها ، ومع ذلك ففي رأسها صورة غير واضحة له ، لقد حدثها اخوها عنه في احدى المرات ، قال لها بانه كرة لحمية لزجه ، تمتد منها ارجل كثيرة لا يعرف عددها .

وهي على يقين في هذه اللحظة من ان للاخطبوط الذي يزحف على مقبض مقعدها الخلفي خمس ارجل قصيرة ، لا تشعر الا باثنتين منهما مدفونتين في شعرها الطويل ، لقد شعرت بهما بعد قليل من قعودها ، احست ان شيئا ما قد استقر على شعرها ، وكادت تعتقد انها مصادفة، لولا ان هذا الشيء راح ينغل في شعرها بشكل ايقظ انتباهها ، حتى انها لتزداد يقينا ، مالت برأسها الى جانبها ، وعندها تأكدت من كل شيء، لقد لحقت بشعرها ارجل الاخطبوط ، وراحت تنغل من جديد كما كانت تفعل في المرة الاولى .

اذن انها ليست مصادفة ، ان انسانا ما قد تعمد هذه الحركة .. اتراه يمتحن استعدادها لتحرشه بان مد يده الى مقبض مقعدها الخلفي وغرز اصابعه في شعرها ، ام انه يهدف من وراء ذلك الى اشياء اخرى . ؟ انها لا تنكر بان صاحب هذه الفكرة ذكي بطريقته هذه، لم يلفت اليه الانظار .

ولكن ما ادراها ان يكون هناك انسان ما يراقب حركاته ، بل ما ادراها ان يكون بين ركاب هذا الباص احد رفاق اخيها ؟ ورقصت عيناها دون ان ترى من تعرفه ، ومع ذلك لم تطمئن تماما ، فهي وسط الباص ، ووراءها اناس لم تر وجوههم ، ربما كان بينهم من يعرفها فيظن بانها راضية عن مداعبة ارجل الاخطبوط لشعرها .. ماذا تفعل ؟. هل تلتفت اليه فتعبس في وجهه ، او تسمعه بعض الكلمات التي تمنعه من متابعة تحرشه بها .. ماذا يقول هؤلاء الناس ان سمعوا كلماتها ؟ ربما يظن احدهم بانها هي التي شجعته على ذلك ، ثم تنكرت له ، بل ما ادراها ان يتحمس لها احدهم فيضربه .. ستكون وقتها هدفا لنظرات جميع الركاب ، وهي تكره ذلك ، لانها ستشعر بالحرج ، وستضطرب ، وتجد نفسها في موقف لا تحسد عليه .

تمنت لو ان صديقتها لم تهتف لها وتدعها لزيارتها في هذا الصباح وتمنت لو انها اعتذرت منها ولم تذهب اليها ، اذن لما تعرضت لهذا التحرش الذي لا تستطيع الافلات منه ، ولانقضى يومها كغيره عاديا ، لا شيء جديد .

ولوت شفتيها .. ما شانها به ؟ انها تستطيع ان تتجاهله ، وان تحسب ان شيئا ما لم يحدث اذا اكتفى بملامسة شعرها ، وهي على يقين من ان ثمة شيئاما اكثر من ذلك لن يحدث ، فالباص مليء بالناس ، وبامكانها ان تنتقل الى مقعد امامي ان ارادت ان تهرب منه ، فالموقف القادم لم يعد بعيدا ، ولا بد لاحدهم ان ينزل عنده .

وتوقفت افكارها فجاة كانها اكتشفت فراغا لم تشعر به من قبل .. الا يحتمل ان ينتقل هو الاخر من مقعده فيقعد وراءها او قريبا منها .. انها لا تستبعد منه ان يفعل ذلك ... لم لا تنزل عند الموقف القادم فتتخلص منه ؟.

قبل ان تحاول اقناع نفسها بهذه الفكرة ، تمطت في رأسها فكرة جديدة . ماذا تفعل اذا لحق بها وحاول ان يتحدث اليها خصوصاوان بيت صديقتها يبعد عن هذا الموقف؟ لا ، انها ستنزل عندالموقف الذي لا يبعدكثيرا عن بيت صديقتها ، فبامكانها وقتها مهما حاول الاقتراب منها ان تهرب منه .. لن تعبأ به اذن ، ستدع ارجل الاخطبوط مدفونة في شعرها ، وتتجاهل كل شيء .. وستنتظر النتيجة .. ماذا سيكون بعد ذلك ، انها لا تعرف ، فلم يسبق لانسان ان تحرش بها من قبل .

اجل .. ستنتظر النتيجة ، وان كانت تخاف منها ، تشعر ان بها رغبة لان تعرف ما يريده منها ، بل ان بها شوقا اكثر لمعرفته هو .

تراه من يكون ؟ ما شكله ؟ تتمنى لو كانت لديها الشجاعة لأن تلتفت اليه ، لان تنظر اليه دون ان تبتسم .

ومدت يدها الى مقبض المقعد الذي امامها ، فتحسسته برفق ،وضغطت عليه بشدة كانها تريد منه اشياء كثيرة .. .

* * *

كانت تعلم بانه لن ينزل عند الموقف السابق ، فقد كانت ارجل الاخطبوط لا تزال عائمة على شعرها ، لكنها لم تكن تسبح كما تفعل الان، لقد اصبحت بحيرة شعرها عكرة ، انها لن تستطيع ان تبقى متجاهلة هذا التحرش ، يجب ان تفعل اي شيء .. فتلملمت في مقعدها ،وسعلت .. ثم راحت تتطلع من النافذة، دون ان ترى بعقلها ما كانت تراه بعينيها.

انها تستطيع ان تلتفت وراءها نصف التفاتة كانها تحاول ان تستدرك رؤية شيء تركه الباص وراءه ، علها بذلك تتمكن من رؤيته .

شعرت ان رقبتها قد التوت عندما استدار رأسها بسرعة الى جانبها واحست بثقل يضغط على عينيها عندما كانت تحاول ان ترى اقصى ما تستطيع رؤيته ، وعاد رأسها الصغير الى مكانه .

انها تجزم بان الشيخ الذي يتكوم الى جانبه قد قرأ افكارها ، لقد كان الوحيد الذي استطاعت ان تراه وهو ينظر اليها ، انه لا شك يتابع دبيب الاخطبوط على شعرها الان .

وهزت كتفيها .. انها لن تهتم به .. فهي تكره كل شيء عندما يكبر..

غير انها استطاعت ان تلمح الى جانب الشيخ عمودا اسود لا تستطيع ان تميزه عن قطعة مستطيلة من اللوح الخشبي الذي يستند على حائط صفها .

انه يرتدي بذلة سوداء اذن ، تراه يريد ان يعبر لها عن تشاؤمه وحزنه ، ام انها ليست اكثر من مصادفة ؟ .. ومالت برأسها كانها تسخر من تفكيرها هذا .. اتريد ان توهم نفسها بانه تعمد ان يرتدي بذلة سوداء ، وان ينتظرها امام منزلها ، وان يتحرش بها عندما تخرج منه ؟

من اخبره انها ستذهب الى بيت صديقتها في هذا الصباح ، لا شـك بانها واهمة ، او انها تحاول اقناع نفسها بخرافتها هذه .

كانت ارجل الاخطبوط هادئة عندما زحفت الى رأسها كل هذه الافكار، كانت كانسان معصوب العينين يحاول ان يتجنب سيارة تكاد تدهسه ، ومع ذلك لم تستطع ان تسكت تساؤلها ، لم تقدر ان تزرع في نفسـها محاولة لتجاهلها له ، طالما ان ارجل الاخطبوط ما زالت عالقة بشعرها .

ماذا يريد منها ، ما شأنه بها ، انها تجزم بانها لا تعرفه ، ولم تره في حياتها ، حتى انها لا تعلم من يكون ، فلماذا يحاول ان يدخل الى حياتها من باب ضيق ، تتمنى لو انها تستطيع معرفة قصده منها.

كانت اصابعها في تلك اللحظة متشابكة كارجل الاخطبوط ، تضغط .. وتضغط .. وكانت تعلم انها تكذب على نفسـها ، ولا تريـد ان تعترف بالحقيقة .

ما معنى ان يتحرش شاب بفتاة ؟.. صحيح انها ليست مجربـة ، ولا تعلم من هذه الامور الا ما تسمعه في مدرستها من بعضهن ، لكنـها ليست صغيرة لتضلل نفسها وتتجاهل كل شيء .. عليها ان تكونواقعية حتى لا تفاجأ بالنتائج ، ولكي تكون مستعدة لان تثبت انها ليست ضعيفة، او انها تنقاد بسهولة دون مقاومة .

ستكون صريحة مع نفسها ولن تتجاهل اي شيء ..

كانت يدها تمتد الى « الجابي » عندما كان تفكيرها يحاول ان يرسم صورة للشاب الذي يرتدي بذلة سوداء ..

انه يريدها اذن ، يريد منها اشياء محرمة لم يحاول احـد غيـره ان ينالها منها ، امن المعقول ان تهبها له بهذه السهولة ...

انها ليست فتاة عادية حتى ترحب بصداقة اول طارق لا تعـرف عنه شيئا ، كما انها لم تنس تعصب اهلها ، انها لا تستطيع ان تتصـور موقف احد منهم اذا علم بالامر ، من الصعب عليها ان تبرر سير شاب وراءها دون ان يتهموها بانها شجعته على ذلك ، والا لما فعل .. كان اخوها يقول لها دائما بان الرجل لا يحاول التقرب من فتـاة الا اذا شجعته بسكوتها ، فالسكوت معناه الايجاب .

وهي ساكتة امام تحرش صاحب البذلة السوداء لها ، لم تفعل اي شيء، معنى ذلك ان اخاها كان صادقا ، انها تشجعه على التمادي ، وانها راضية ، ومستعدة لان تستمع اليه ، بل ربما يعتقد بانها لا تمانع فـي ان تسير الى جانبه ،طالما انها لم تحتج على تحرشه بها .

شعرت فجاة بانها صغيرة تستطيع ان تختبيء في زجاجة عطـر ، فانتفضت كأن احدهم دفن في ظهرها قطعة ثلج صغيرة ، وابعدت رأسها عن ارجل الاخطبوط .

كان عليها ان تفعل ذلك عندما احست بشيء يدب على شعرها دون ان تدع له فرصة لان يعتقد بانها عادية تتقبل اعجاب اي رجل بها ، ومع ذلك فقد استطاعت كما خيل اليها ان تكسب الجولة وان تنتصر عليه .

سيقول في نفسه لا شك ، بانها اعقل من ان تستجيب لرغبة عابرة وسيحترم شعورها ، حتى انها على يقين من انه سيندم على محاولته هذه، وربما فكر بان يعتذر منها ويدعي ان ملامسة يده لشعرها لم تكن الا صدفة لم يتقصدها .

ومطت شفتيها .. لن تغفر هذه الاكذوبة تحرشه بها ، سيبقـى في نظرها شابا احمق يبحث عن مغامرة معتقدا ان باستطاعته ان يضم اليه اية فتاة تحاول مقاومته ..

لقد ظنها سهلة اذن ، رآها تصعد الباص ، فلحق بها ، وقعد وراءها ، ثم مد يده الى المقبض الخلفي لمقعدها ، كأنه يريد ان يوهم من حـوله انه يرتكز عليه ، بينما كانت اصابعه تنغل في شعرها الطويل وكأن شيئا ما لم يحدث ..

تمنت لو انها تستطيع ان تهزأ منه ..

✶ ✻ ✶

عندما نهض الصبي الصغير من جانبها لينزل عند « موقف النجمة »، كانت تخاف ان ينتقل الاخطبوط اليه ، حتى انها فكرت ان تنتقل الـى المقعد الامامي ، لولا ان الباص تحرك دون ان يشاركها احد في مقعدها .

كان بامكانه ان يقعد الى جانبها ، وان يتحدث اليها ، او يسألها شيئا ما ، وان كان لا يجزم بانه سيسمع صوتها ، انه لن يلفت اليه الانظار لو فعل ذلك ، فالامر يبدو طبيعيا لن ينتبه اليه احد .

ومالت برأسها .. لكنه لم يفعل .. اتراه يئس منها عندما ابعـدت شعرها عن اصابعه ، ام انه نزل عند موقف النجمة بعد ان تأكد مـن انها لن تهتم به .؟

انها لم تر بين الذين نزلوا من الباص احدا يرتدي بذلة سوداء ، كانت تراقب كل من مر بجانبها ، لانها كانت تخاف ان ينتقل الى مقعدها .. أمن المعقول ان يكون قد هرب من الباب الخلفي حتى لاتتعرف عليه .

احست في هذه اللحظة بثقل يجثم فوق كتفيها ، ان ظهرها يبعـد عن مسند المقعد ، وهي تخاف ان تزحف ارجل الاخطبوط على شعرهـا من جديد لو انها اسندت ظهرها وازاحت الثقل عن كتفيها .. لن تستطيع ان تصبر على ذلك ، تكاد تشعر ان عمودها الفقري اصبح لينا يكـاد يطوى . ستلتصق بالمقعد ، ان في رأسها احتمالا لان يكون قد هرب من الباب الخلفي ، ثم انها ستنزل عند الموقف القادم الذي لايبعد كثيرا عن بيت صديقتها ..

لقد هرب .. خيل اليها بانها لم تستند الى المقعد لتريح ظهرها وتزيح الثقل عن كتفيها كما توهمت ، كانت بها رغبة لان تتأكد من انه لايزال وراءها ، وانه ينتظر شعرها ان يعود الى اصابعه ، حتى انها كـادت تقنع نفسها بانه لم يهرب ، وانها اذا ماعادت بشعرها ، فسترتكض ارجـل الاخطبـوط اليـه .

اجل ، لابد انه قد هرب ... هل تلتفت وراءها لتتأكد من ذلك ؟ ربما اثارت فضول من يراها اذا التفتت ... ومسحت شعرها ، ثم اصلحت من جلستها ، انها لن تأسف عليه ، تعرف بانها كانت ترغب لو انتهـت هذه الحادثة بشكل اخر ، انها لاتريد ان ترسم حدود هذا الشكـل يكفيها ان يكون موضوعا طريفا يطول حديثه اذا ماحكته لرفيقاتها ، انهـا الان لاتجد في كل ماحدث لها غير كلمات قليلة : « بعد ان ركبت فـي باص « المشروع » شعرت ان يدا تداعب شعري ، فابعدت راسي عنها، وفهم صاحبها بانني لاارحب به ، فهرب قبل ان انظر اليه » .

لاشك بان رفيقاتها سيسخرن منها اذا اخبرتهن بذلك ، ستقول لهـا احداهن بان الدجاج اذا مرح بعيدا عن القرية فهو معرض للذئاب ... وقد تضيف اخرى بخبث : ان الذئب لايهمه ريش الدجاج ..

وفكرت قليلا .. لم لاتكذب عليهن فتقول بان الذئب لم يتحـرش بالدجاجة الا لانه معجب بريشها . .انها لن تخسر شيئا ، فحياتها خالية من كلمة اعجاب ، لم يسبق لها ان نامت وفي يومها شيء جديد ، ومـع

ذلك فانها لاتريد ان تكون فتاة تعرف كل شيء ، او ان تكون محاطة بعدد من المعجبين كما تدعي بعضهن ، تتمنى فقط لو كان لها انسان من غير اهل بيتها تستطيع انتتحدث اليه .. انسان تتعرف اليه عن طريق اخر ، غير هذا الطريق .

ثمة صعوبة كما يخيل اليها ستتدحرج مع كلماتها عندما تحاول ان تبدأ حديثها عنه ، فهي تعلم بانها لن تقول الحقيقة ، وهي تعلم ايضا بانها ليست اول فتاة تكذب ، انها لن تنطوي على نفسها هذه المرة كما كانت تفعل ، ستدق علامة استفهام على شفة كل واحدة منهن ، وتزيح اعتقادا بليدا من رؤوسهن بانها ليست فتاة جذابة حتى تستميل اليها الرجال .

ستقول بان صاحب البذلة السوداء قعد الى جانبها بعد نزول الصبي عند موقف النجمة ، وبدأ حديثه بان سألها عن الساعة ، لكنها لم ترد عليه ، ولم تنظر اليه ، بل بقيت في عبوسها كأن شيئا ما لم يحدث وعند ما رأى اهمالها له راح يعتذر بكلمات مضطربة ، ويقول لها بانه يريد ان يتعرف عليها لغرض شريف يفكر فيه منذ زمن ، وانه حاول من قبل ، اكثر من مرة ان يلفت نظرها اليه ، لكنها لم تكن تشعر بوجوده .. وانه سيكون سعيدا ان كانت راضية عن تصرفه هذا ..

ستقول لهن اشياء كثيرة ، وانها بقيت صامتة عندما كان يثرثر اليها بصوته الخافت دون ان تجيبه على اسئلته ، لانها تكره هذا النوع من الرجال ، ولان طريقته بالتعرف عليها لم تعجبها .

وفكرت فيما لو سألتها احداهن عن اسمه ، هل تجيبها بانه لم يقله لها ، ان اول لفظ ينطق به واحد من هذا النوع هو اسمه ، ستقول لهن بان اسمه حافظ .. حافظ عبد الوهاب ، واذا سألنها عن شكله ، فستزم شفتيها وتميل برأسها ، ثم تقول كأنها لايهمها من امره شيء ، بانها لم تنظر اليه طويلا ، لكنها استطاعت ان تتأكد عندما ادهشها تصرفه بانه اسمر جذاب يرتدي بذلة سوداء .

انها على يقين من انهن سيلمنها لاهمالها له ، قد تقول لها احداهن بانها قد اضاعت فرصة لن تعوض ، وانها لن تخسر شيئا لو انها تحدثت اليه ، وقد تضيف اخرى بانها ستندم في يوم ما على تصرفها هذا لكنها ستجيبهن بكبرياء بانها انسانة تثق بنفسها ، بانها لايهمها ان كان هنالك من يفكر فيها او لايفكر .

وضغطت برجليها على الارض ، وشدت ظهرها الى مسند المقعد ، ثم مالت ومسحت شعرها كأنها تريد ان تحصد السنبلة التي ترقص على جبينها .

لايهمها ان كان هنالك من يفكر فيها او لايفكر ..

هل تستطيع ان تغفر لنفسها هذه الاكذوبة ؟ الا تتمنى ان يفكر فيها انسان ما ، لو ان صاحب البذلة السوداء لم يهرب منها ، اتراها لاترد عليه اذا قعد الان بجانبها وسألها شيئا ؟

لايهمها ان كان هنالك من يفكر فيها او لايفكر ...

ووضعت على جانب من شفتيها نصف ابتسامة مهزوزة .... لقد تذكرت قصة مدرسية كانت قد اعجبت بها عندما كانت في الصفوف الاولى ، ان القصة تقول بان ثعلبا حاول عبثا تسلق دالية لاقتطاف عنقود عنب منها استهواه منظره ، وعندما لم يستطع الوصول اليه قال في نفسه : « هذا حصرم رأيته في حلب » .

كانت شفتها السفلى محبوسة بين اسنانها ، بينما كانت اصابع يدها تتحسس شعرها الطويل الذي يستريح على كتف المقعد ... لماذا جعلته يهرب منها ، لماذا تسرعت ، كان عليها ان تنتظر النتيجة ، وتعرف من يكون قبل ان تجزم بانه تافه ، ماادراها انه حاول ان يتعرف عليها منذ زمن دون ان تشعر بوجوده ، وانه يئس من محاولاته الصامتة ، فاراد ان تضحك بصوت مرتفع ، فسعلت ... ومسحت وجهها .. ثم نفضت فستانها ، وتاهت نظراتها بين الركاب ..

بعد قليل ستكون في بيت صديقتها ، ان الموقف الذي ستنزل عنده لم يعد بعيدا ، انها تستطيع ان ترى اشخاصا بينهم امرأة منتفخة يقفون بانتظار الباص .. من تراه سيقعد في مكانها ، تتمنى لو انها تستطيع ان تأخذ مقعدها معها ، اذن لاحتفظت به في غرفتها وعلقت عليه قصيدة جميلة .

✶ ❋ ✶

انها تجزم بان هذه المرأة المنتفخة قد رأت ارجل الاخطبوط ، والا لما تجمدت نظراتها على مؤخرة شعرها ، لقد التفتت اليها كأنها تريد ان تقول لها شيئا ما ، انها لاتريد ان تستمع اليها ، بل انها لاترتاح الى حديث انسان لاتعرفه ...

اتراها لاترتاح اذا تحدث هو اليها ؟

عندما تطلعت الى المرأة المنتفخة استطاعت ان تتأكد من ان نظراتها لاتزال متجمدة على مؤخرة شعرها كأنها تنتظر حدوث شيء لاتريد ان يفوتها منظره ، حتى انها ادارت رأسها الى المقعد الخلفي ، وكانت نظراتها تتجمع في نقطة واحدة ، ومع ذلك لم تبعد رأسها عن ارجل الاخطبوط ، رغم انها لم تعد تشعر بشيء يتغل في شعرها ، انما تكومت على نفسها عندما تململت المرأة المنتفخة كأنها تحاول ان تلبس المقعد ، او كأنها لاتريد ان تترك موضع اصبع منه دون ان تملأه مؤخرتها ، ثم مالت عليها قليلا وقلت : « ما اضيق مقاعد هذه السيارة ، انها لاتتسع لشخصين .. »

تمنت في هذه اللحظة لو ان دبوسا ينفذ في ظهرها ويعلق فيه ... بينما كانت تشعر ان ارجل الاخطبوط تزحف نحو شعرها من جديد .

لم يهرب منها كما توهمت ، لقد بقي وراءها طوال تلك المدة دون ان يشعرها بوجوده ، أتراه خجل من نفسه عندما ابعدت رأسها عن اصابعه ؟

كانت قد عزمت على ان تنزل عند الموقف السابق الذي لايبعد كثيرا عن بيت صديقتها ، كانت بها رغبة لان تتطلع الى مقعده عندما تنهض ، ربما تريد ان ترى من جلس في مكانه ، فمدت يدها الى فستانها عندما توقف الباص واصلحته ، ثم مسحت شعرها ، واستندت الى مقبض مقعدها لتنهض .. انما سرعان ماتأكدت ان اصابعها قد يبست على المقبض عندما احست بشيء يتغل في شعرها .

انها لاتعرف اي شعور سيطر على نفسها في تلك اللحظة ، كان خلية نمل تدب على ظهرها ، كان قلبها يضغط على رئتيها فيمنع عنهما الهواء كأنها عارية الا من ورقة توت صغيرة .. هو الاخطبوط اذن ؟.. ماادراها ان يكون شعرها عالقا بشيء ما ، لا . . لايمكن ان يكون ذلك ، ان اصابعه تكاد تصل الى رقبتها ، انها لم تكن واهمة ، فخلية النمل مازالت تدب على ظهرها ببطء .

كانت تعتقد ان ذلك الخدر اللذيذ لن يهرب منها ، لانها لم تكن تتصور ان تقعد الى جانبها امرأة منتفخة كالخنزير ، كانت تعلم ان الباص سيتحرك ، وانها ستترك بيت صديقتها وراءها ، وانها لن تحاول ان تندم على ذلك ، لكنها لم تكن تفكر في تلك اللحظة بمن سيقعد الى جانبها

ربما كانت تنتظر ان يقوم هو ويستبدل ببعده عنها قربه منها .

كان الباص قد تحرك عندما تململت المرأة المتنفخة ومالت عليها قليلا وقالت : « ما اضيق مقعد هذه السيارة ، انها لاتتسع لشخصين » .

ليست هذه اول مرة تقعد فيها الى جانبها امرأة من هذا النوع ، لكنها تعترف بان هذه هي المرة التي لم تهرب فيها ، فهي لاتستطيع ان تتحمل ملاصقة مثل هذه الكتلة العجينية ، انها تشعر بالقرف والغثيان عندما تتصور واحدة من هذا النوع عارية .. لكنها ستحاول ان تتحمل كل شيء ، فارجل الاخطبوط كما يخيل اليها ستنسيها كل شعور لها بالقرف .. انها لن تفكر الا في نهاية لهذه التجربة .

تتمنى لو انها تستطيع ان تفهمه بطريقة لاينتبه اليها احد بانها على استعداد لان تقدم له خصلة من شعرها اذا ما ابعد اصابعه عن شعرها ، انها تخاف ان يكون هناك من يراقبه ، فيفسد عليهما كل شيء .

واغمضت عينيها ، ثم مدت يدها الى بطنها ، فضغطت عليه بشدة بينما كانت رجلاها تنبسطان باسترخاء تحت المقعد الذي امامها .

كانت تعلم ان الموقف القادم لم يعد بعيدا .. ومع ذلك لم تكن تعرف ماذا تفعل ، هل تنتظره حتى ينزل فتلحق به . انها لن تصير الى هذه الدرجة من الضعف وهي لم تعرفه بعد ، انه من المحتمل ان تكون انسانا لايليق بها .

اذن ستنزل عند الموقف القادم .. وقبل ان تغادر مقعدها ، ستسترق نظرة اليه ، فهي تؤمن ان حكم النظرة الاولى صادق ومجرد عما يمكن ان تتأثر به فيما بعد ، انها اذا شعرت بضربات قلبها عندما تتطلع اليه ، فستخصه بطرف ابتسامة تشجعه على النزول وراءها دون ان ينالها شيء في كبريائها ، والا فان نظراتها اليه ستكون قاسية تقطع عليه كل تفكير له يرتبط بها .

انها لن تفكر في اكثر من ذلك ، لانها تخاف ان تندم فيما بعد .

عندما وقف الباص ، كانت تشعر بانها غير طبيعية ، وان من المحتمل ان يلاحظ اضطرابها جميع من حولها ، ومع ذلك فقد كانت متأكدة من ان يدها لم ترتجف عندما مسحت عينيها ، وقبل ان تنهض كانت ارجل الاخطبوط قد تراجعت عن شعرها ، كانه عرف بانها تعتزم النزول عند هذا الموقف ..

ووقفت مستندة على مقبض المقعد الذي امامها ، بينما كانت تشعر ان نظراته تخترق ظهرها ، ثم استدارت باتجاه الممر ، ومع اول خطوة لها التفتت براسها اليه .... وكانت على يقين من ان كلمة « على مهلك » التي سمعتها من السائق كانت تخصها ، عندما كادت تقع لسرعتها في اجتياز الممر .

* * *

في اليوم التالي روت لصديقاتها هذه الحكاية :

« بعد قليل من قعود احداهن على مقعد من مقاعد الباص ، احست بان يد من يجلس وراءها تداعب شعرها ، ولما تأكدت من ان هذا التحرش مقصود ، صممت على ان تهين ذلك الذي ظن بانها فتاة عادية تتقبل اعجاب اي رجل بها ، وعندما وقف الباص استدارت اليه لتصفعه لكنها فوجئت بان اليد التي تداعب شعرها هي يد طفل صغير يقعد في حجر امرأة تلتف بالسواد ، وقد خيل اليها وقتها بانها قد اهينت ، فتركت مقعدها ، واسرعت تجتاز الممر ، حتى انها عندما كادت تقع ، استطاعت ان تسمع السائق يقول لها : « على مهلك » ... »

اللاذقية — خالد الشريقي

الآداب

مجلة شهرية تعنى بشؤون الفكر

بيروت

ص.ب ٤١٢٣ ـ تلفون ٣٢٨٣٢

*

الادارة

شارع سوريا ـ راس الخندق الغميق ، بناية الاسمر

*

الاشتراكات

في لبنان وسوريا : ١٢ ليرة

في الخارج : جنيهان استرلينيان

او ٦ دولارات

في اميركا : ١٠ دولارات

في الارجنتين : ١٥٠ ريالا

الاشتراكات الرسمية : ٢٥ ل.ل. او ما يعادلها

تدفع قيمة الاشتراك مقدما

حوالة مصرفية او بريدية

*

الاعلانات

يتفق بشأنها مع الادارة

*

توجه المراسلات الى

مجلة الآداب ، بيروت ص.ب. ٤١٢٣

لهاث الأرض

— ١ —

اعلم من تجاربي
من جرح قلب لائب
مغامر ، وخائب ..
من مقلة ينداح في اغوارها التلهف
والحب ، والتخوف ..
اعلم من كتائب العناكب
تمتص عمر اوجه ليس لها وطن
صديقة للطرق البعيده ..
ينسل من اوصالها الزمن .
اعلم من كآبة البيارق
منصوبة الاشباح كالمشانق
من طفلة كسيرة جائعة العروق
ترعش . في جبهتها جنازة الشروق
منبوذة ... شريده
تلفظها الطريق للطريق
يأكلها الذباب في الطريق
تسجى بلا كفن ..
اعلم ان الارض في رطوبة العفن .

— ٢ —

اعلم في الجزائر
مقالع للدم ، للمصائر
ولعنة راعفة ، محرورة الخواطر
وجثة مصلوبة « لناصري » ..
وفي مدى الموانىء ....
سفائن مشحونة بالزنج . بالفواجع
باعين جوفاء كالقواقع
وبالردى ، والذل ، واللالىء ..
ومنتهى الشواطىء ..
سواعد تميس كالمنائر
ومن بحور الصمت ، في المقابر
من قرة المغائر ..
ينهض اهل الكهف كالبشائر
فتغرق الابعاد في المحاجر
وتهدر التلال بالحناجر
تبحث عن سحائب
عن نخلة وجدول مسافر ..
ترود في الدروب والمسارب
في كل نبع غائر
وتسأل القدر
عن نخلة منسية الثمر
مباحة الضفائر ...
عن منبع ، عن حفنتي مطر
عن دمعتي ندى لدى السحر ..
فينعق القدر :
لا ماء في الجزائر .

— ٣ —

اعلم . في مفارز مخنوقة المشاعل ..
هوادج تحصبها زوابع القدر
تغرق في مجاهل .
ومتكا مضارب مذلولة الصور
يسومها ليل بلا قمر .
وفي دجى اقبية ملتاعة الحجر
موائد للرعب ، من افئدة البشر
تمد للبشر ...
وحول نهر مرهق يسعل في ضجر
ماتت لديه نخوة الطوفان ، فاستقر
مواكب للعار في سعر
تمد في مدينة السلام
موئدا اخر
لا تعرف السلام .

— ٤ —

على التراب مقلة تقص في الظلام
حكاية ترسبت في لونها حقيقة الظلام :
اعلم من تجاربي ..
من لعنة المحارب ..
في هضبات الثلج ، في الخنادق
من رهبة المشانق ...
من ادمع ، ذبائح تصلبت اكر
يلهو بها القدر ...
من متكا مضارب مذلولة الصور
هاذية كأنها مطالع المطر ..
... ومن دجى اقبية ملتاعة الحجر
ومن بقايا طفلة تسجى بلا كفن
اعلم .. ان الارض في رطوبة العفن .

بيروت

ظافر الحسن

مفهوم العمل الأدبي

بقلم الطيب الشريف

لقد تقادمت هذه الاسطوانة المكرورة التي ما فتيء مديروها يقلبونها على وجهيها . ليعيدوا على اسماعنا اغنية دامعة جعلوا عنوانها : « ازمة الادب » في البلاد العربية .. وهي اغنية تصف واقعا مشاهدا بلا ريب .. ولكن اصحابها عندما يحاولون تحليل « الازمة » ويسعون الى ايجاد حل لها ، يعمدون الى النظر اليها بمعزل عن وضعها الحقيقي ، فلا يتناولونها كظاهرة اجتماعية مرتبطة بالانسان المنتج في علاقاته المختلفة بالبيئة التي يقدم لها انتاجه الفكري ، وبموقف هذه البيئة من انتاجه ونظرتها اليه . فهم يقررون بحق ما هو واضح من ان ادب الشيوخ من ادباء الجيل الماضي قد اصبح لا يفي بكل مطالب المرحلة التاريخية الراهنة التي يجتازها العالم العربي اليوم .. كما يلاحظون ضروب القصور المتباينة التي تتضمنها نوعية الانتاج الفكري الذي يقدمه الشباب من ادباء هذا الجيل .. فينوهون بهذه المعطيات ويطيلون التنويه ، ولكنهم عندما ينتقلون الى الشطر الثاني من المسألة واعني الشطر الماثل في وضع حل لها ، نراهم يتخذون من القضية موقفا غريبا ينم عن السلبية من جانب ، وعن الخطأ في تصور المشكلة من جانب اخر .. اما السلبية فتتمثل في اتجاههم الى هذا النوع الفريد من الاستجداء واستجلاب العطف ، الذي يتلخص في دعوة « الحكومات » و « الجهات الرسمية » الى ما يدعونه « بتشجيع » الادباء والمفكرين ، ورصد « جوائز » و « معونات » للمتفوقين منهم ، وكانهم يريدون بمثل هذه الدعوة ان يلقوا بعبء المسؤولية على تلك الجهات وحدها ، وان يبرئوا ساحتهم من مسؤوليتهم الحقيقية في هذا الصدد .. ومن هنا الى ان يسخر الله الجهات المدعوة الى تقديم الاحسان المطلوب ، تظل المشكلة معلقة ، ويظل الاديب على انتظاره الامل متذرعا بصبره على شقائه ان كان من ذوي الصبر والجلد — « وكثيرا ما يكون .... » — او هو يلوذ بالصراخ ، فلا يملك غير اللجوء الى ادارة تلك الاسطوانة القديمة المكرورة التي ما فتئت تدور حول نفسها على محور ثابت ، لتستأنف من جديد — وربما الى الابد — اغنيتها النائحة المأزومة ..

وبما ان « الجوائز » و « المعونات » المقترحة — (على فرض وجودها ، وعلى فرض خلوها من المجاملات والتحيز والخطأ في التقدير) — لا تقدم حلا شاملا وجذريا لضائقة الادباء والمفكرين جميعا ، فلا معدى لنا عن الحكم عليها بانها طريقة سلبية في جوهرها لانها تكتفي بالتخلص من القضية بالقاء المسئولية على عاتق جهات غير مضمونة ، نسلم بقصورها وتقصيرها في هذا المجال من ناحية ، ومن ناحية اخرى فهي طريقة عشوائية لانها لم تتمثل بعد الوضع الطبيعي للمشكلة حتى تتمكن من اتخاذ الوسائل الضرورية الموائمة للحل الاساسي كما يجب ان يكون ..

واما الخطأ في تصور المشكلة فيتصل في رأيي بمفهومنا الشائع « للعمل » .. لانه في هذا المفهوم تكمن ادواؤنا . ولكي نتمكن من بلورته بما فيه الكفاية ، ارى استعراضه مع القاريء في وضعه الذي ينطبع به على سلوكنا العام افرادا وجماعات .. :

— فنحن نرى قطيعا ضائعا من الشباب المستنير الذي يقتات الجوع ، ويعاني مذلات الحرمان وعذابات الالام ، والذي يحاول بالرغم من كل هذه الحواجز التي تتحدى مصيره ، ان « يعمل » ويقدم للمجتمع « انتاجا » ، جاهدا من نقطة الصفر في سبيل تحقيق انسانيته بالاخرين ومعهم ، الا انه لا يجد من يؤازره بايجابية بناءة تمكنه من دعم ذاتيته ، وتوسيع رحابها بغية انجاز تكاملها الضروري مع المجتمع والحياة ، باستثناء حالات نادرة من التآزر الفردي او المؤقت الذي يرضخ لما يشبه الصدف والحظوظ ولا يحل المشكلة في نطاقها الكبير اعني كقضية اجتماعية مرتبطة بالاجيال على مسار التاريخ ..

— كما نرى ان مفهوم « العمل » الفكري — (بوصفه « جهدا » انسانيا حيويا ، و« نتاجا » اجتماعيا ضروريا ، لا يقل في قيمته — من حيث الكم والكيف — عن اي جهد وانتاج اخرين ، مما تقوم عليه حياة المجتمعات ومطالبها المعيشية والحضارية) — نرى هذا المفهوم لما يتخلص بعد في اذهاننا من ذلك الاعتبار المتلبس بمنطقتي اللاشعور والشعور في نفسيتنا ، وهو الاعتبار الذي يرى في كل « عمل فكري » مجرد « ترف عقلي » ليس بكبير غناء في الحياة « العملية » او هو في احسن الاحوال « حاجة كمالية » قد يلوذ بها من يجدون من اوقاتهم فراغا يملأونه بهذا المكمل المسلي اذا ما توافر هذا الفراغ ، على انه في كل مظاهره لا يعدو ان يكون مشغلة لفريق من الناس الحالمين التأمليين الذين يمتلكون قدرة سحرية على ابتداع « قصور » خيالية يخدعون بها انفسهم ليتعزوا بها عن « اكواخهم » في واقع الحياة ، ويخدعون بها الاخرين اذ يلهونهم بها عن كل ما يثبت اقدامهم في الارض ... انهم تجار فاشلون لانهم يبيعون ازهد بضاعة في هذه المعمورة

هي الالفاظ !..

وواضح ان هذا المفهوم ينطوي في جوهره على احتقار دفين « للكلمة » ، واتخاذها على انها النقيض الحاسم « للفعل » ، الامر الذي يفرغ الكلمة من فعاليتها ويجعلها مجرد شكل فاقد لمحتواه ، اي فاقد في الحقيقة لعنصر الحياة فضلا عن الاحياء: كالجثة بغير روح او الكلمة بغير معنى.

وما دامت الكلمة على هذا المدى من الهوان ، وما دام الفكر يتخذ سبيله الى الاخرين متذرعا بالكلمة ، فقد اصبح الفكر مهانا هو الاخر لهذه العلاقة ، وبالتالي اصبح « الفكر » في تقابل حاسم مع « العمل » .. حتى اني عمدت اكثر من مرة الى سؤال الكثيرين من الطلبة الجامعيين عما يفهمونه من عبارة « العمل الفكري » ، فأجمعوا على انه مجرد « تعبير مجازي » ليس المقصود منه ان الفكر عمل او جهد كغيره من الاعمال والجهود الاخرى ، وانما هي تلك الظاهرة « البلاغية » الصرفة ، التي تصنف اللفظ قسمين : حقيقة ومجازا ، فاما الحقيقة فهي : اللفظ الدال على موضوعه الاصلي ، واما المجاز فهو : ما اريد به غير المعنى الموضوع له في اصل اللغة كما يقول اساتذتهم البلاغيون !..

وهذه نظرة جد خطرة في انطوائها على تصور خاطيء في جذوره « لمفهوم العمل » في كليته ، وكأني بها تبلغ من السذاجة مبلغا يجعلها تنظر الى عملية التفكير والتعبير بمعزل عن اي نشاط عضوي حي ، في مقابل نظرتها للعمل على انه عملية آلية توشك ان تتم بمعزل عن كل ديناميكية الكيان الادمي الماثلة في الدماغ والجهاز العصبي في علاقتهما المتكاملة بسائر البنية العضوية الحية.

وهكذا (« فالعمل » : آلية جثمانية تنتج محصولا كميا و « التفكير » : لهو تأملي ينتج محصولا لفظيا) !.. وربما مثلت هذه النظرة اقصى ما يمكن ان يبلغه الانحطاط العقلي في هذا المجال لاي جماعة بشرية حضرية حيثما تكون.

وانا لا انوي ان استطرد فادفع بتحليل هذه الظاهرة - على خطورتها واهميتها - الى آماد مقتضيات التحليل ونتائجه الضرورية .. ولكن القارىء اذا اراد ان يربط هذا المنحنى الفكري بعلاقاته ومؤثراته في الفرد والمجتمع ، والحضارة التي تكتنفهما ، لا شك يعثر على نتائج ذات اهمية بالغة ..

فاذا انتقلنا بهذا المفهوم ، واخذنا احدى صور انعكاسه المعوق الهدام بمثابة مثال توضيحي ، وجدنا له تطبيقا نموذجيا في موقف « دور النشر » و « المجلات الفنية » ، من المفكرين الشبان .. فقد كان من الطبيعي ان يؤدي ذلك المفهوم الشائع ، الى « مجانية » العمل الفكري : اننا نسلم جميعا بان (لكل « عمل » - « مقابل ») ، ولكن هذه المسلمة تلتوي لتؤول الى « رفض » مطلق ، كلما كنا بصدد « عمل فكري لاحد الشبان » ، ففي هذه الحالة يكفي الشاب المفكر كمقابل لعمله ، ان تتكرم عليه المجلة اودار النشر « بالتشجيع » ، ويعنون بالتشجيع هنا : التفضل عليه ، بعد لاي وعلى مضض باخذ هذا العمل منه «مجانا» وترويجه في شكل اوراق مطبوعة من أرخص أصناف الورق ! .. اما التفكير في ان هذا الشاب محتاج لتحضير ذلك العمل الى شراء مراجع ، والى اقتناء كتب توسع من آفاق دائرة اختصاصه ، كما هو محتاج لكي يتفرغ بكليته لعمله الى لوازم حيوية تتصل بضمان كفافه المعيشي ولا يجدها في هذا المجتمع بدون مقابل .. فهذه كلها امور « مادية » لا شأن لها بالموضوع ما دمنا هنا من حيث المبدأ امام مفهوم اسطوري لعمل الفكري : وهل اللهو لتأملي « عمل » كالعمل ؟! .. ومتى اصبحت المحاصيل « اللفظية » معادلة في قيمتها للمحاصيل الزراعية او الصناعية مثلا ، من حيث الكم والكيف ؟! ..

- لا تحاولوا ايها الشبان « العباقرة !» ان تلوثوا المعطيات الروحية بادران المادة ، وانتم المنسوبون على الزهد في المادة لانكم تنتمون الى عالم المعنى والروح ! .. ولا تسفوا بمستواكم السماوي الرفيع الى درك « الشغيلة » في المزارع والمصانع .. لانكم من زمرة الملائكة والارواح ! وحتى اذا ما قرصتكم لذعات المسغبة فلكم من الالام خير كفيل يشحذ قرائحكم ويصهر عقولكم الخلاقة ! .. او تشذون عن قانون الزهد الماثل في روعة المأثور الحكيم : « جوعوا تصحوا » ؟! .. ثم الم يمت معظم المفكرين في العالم العربي معوزين ؟..

اسمعوا قول الشاعر :

« في مصر عاش « أبن حيان » على شظف
يقتات بالعشب في مصر « ابن حيان ») (1)

واحمدوا لعصركم المحظوظ انكم لما تبلغوا بعد هذا المدى الارفع من تحقق « وحدة الوجود ! » التي تتلاشى فيها الفوارق - (من حيث القوت على الاقل) - بين الانسان والحيوان ، وهي خطوة سامية ولا ريب من خطى تحقيق المساواة بين البهائم والبشر ، كما هي احدى المظاهر الدائمة لما تنادي به نظرية « المدرسة الداروينية » العلمية من قرابة عريقة بين الادميين واجدادهم القرود ! ..

لقد قصدت الى التعبير عن جو نفسي معين تمثله عقلية خاصة ، وليس من الضروري بطبيعة الحال ان تكون التعابير هي نفسها ، اذ من المفهوم انها صورة رمزية تعبر عن منطق خاص لمفهومية معينة ، قد تختلف مستويات التدرج مع منطقها من واحد لاخر في التعبيرات والجزئيات والسطحية والعمق (في التفاهة والسذاجة بطبيعة الحال!) ولكنها تظل بعد كل حساب تشف عن جو واحد ، وتصدر عن عقلية مفردة لمن يهتم في الصورة بالدلالة التي هي الجوهر واللباب ..

لذلك يكثر في الدرب سقوط الضحايا الذين يضطرهم ذلك المفهوم الشائع للعمل في كليته الى التخلي عما آمنوا

(1) البيت لمحمود ابي الوفا من قصيد طويل بعنوان « امواج » نشر في مجلة الاديب اغسطس ١٩٥١ العدد ٨ المجلد ٢ السنة ١٠ الصفحة ١٤ - ١٥ ويلاحظ ان محمود ابالوفا وهو من اكبر شعراء الجيل الماضي، ياتي في طليعة من ذهبوا ضحية لهذا المفهوم ، وهو لعزة نفسه لم يجد حتى الان من يضعه فيمكانه كشاعر عربي عظيم .

بجدواه ، لينغمسوا في بالوعة التفاهة ، وليسخروا اقلامهم في الصحافة التي تروج في مجتمعنا « الناضـــج » : «للكواكب » واخبار « السابحات الفاتنات » ، او علــى الاكثر لهذا الضجيج من الحماس الاهوج الذي ندعــوه « مقالات سياسية » او « أدبية » ونحو ذلك من الكلام المعاد صباح مساء .. وذلك لكي يضمنوا مجردالابقاء على الرمق.

ان هذا الجيل من الشباب المفكر مهدد بالانقراض ، بـل ان الثقافة العربية مهددة بالانحطاط اذا استمرت هــذه الحال .. ولذلك ينبغي علينا ان نواجه المسؤولين ابتداء من انفسنا لنعطي للاخرين القدوة والمثال ، فنسعى الى القيام بانقلاب جذري في مفهومنا « للعمل » ، فلا يظل المجتمع يعيش على ترهة تمثل انفصاما مرضيا في مفهومه المتفسخ لشعوذة تسمح بصنفين من العمل ، كلاهما لا يمثل غير خرافة تصورية لمجتمع متخلف الغى عقله واصبــح يعيش على الهرطقة .. ان هناك « عملا انسانيا واحدا » يختلف في الدرجة والوسيلة ودائرة الاختصاص ، ولكنه يظل هو ذاته من حيث النوع والقيمة التي هي ضرورتـه للحياة .. ومن ثم يتعين علينا ان نخلص « المتثيقف » من احتقاره التقليدي للعمل اليدوي ، ونعلمه ان العمـل اليـدوي مـلازم للفكر ودليل على التفكير ، والا اصبــح مجرد الية لا توجد في غير الالات ، او هو في الاكثر نوع من الالية الحية في جثمان آدمي فاقد لعقله في حالـة الجنون .. كما يجب ان نخلص الصانع الرامي والانسان الشعبي عموما من احتقاره « للكلمة » ، بان نعلمه ان حياته تتردى الى منحدر العجماوات لو شيدت على غير الفكر الذي هو العمل معبر عنه بصورة اخرى لا تعني ضرورة تقابلهما كالاضداد ..

كما يجب القضاء نهائيا والى غير رجعة على «مجانية » العمل ، لان مسلمة : (لكل : عمل ـ مقابل) بديهية مطبقة في كل عالمنا ـ باستثناء العالم العربي والاسلامي طبعا ـ كما هي مطبقة في كل العوالم المحتملة ، واعني الميتافيزيقية منها بالنسبة لمن يؤمنون « بالاخرة » ، فالاله نفسه ـ سبحانه ـ قد جعل ضروب النعيم الاخروي مرصودة من حيث المبدأ « كمقابل » سخي ، « للعاملين » عليها من عباده الذين قدموا في « دنياهم » مايبرر احرازهم عليها في « اخراهم » من صلاة وصيام وزكاة ...

ولا ينبغي ان ننسى ان هذا « المقابل » يجـب ان لا يتضمن معنى « العملة النقدية » فحسب ، وانما يتعين ان يقترن بعنصر « الاعتبار » الذي هو التقدير والمحبة ، لانه « ليس بالخبز وحده .. يحيا الانسان » ..

ان الملتزمين بشرف الكلمة ، وجميع المسؤولين علــى الثقافة في العالم العربي : هيئات ودور نشر ومجلات ، افرادا وجماعات ، مدعوون الى تجنيد كل الاكفاء والى البحـث عنهم في تلك الامكانيات والطاقات البشرية المهدورة التـي تعاني الياس والقنوط ، وتمزق انسانيتها اللامبـــالاة والاحتقار .. تلك هي القضية ، فهل من سميع ايهـــا السادرون ؟! ..

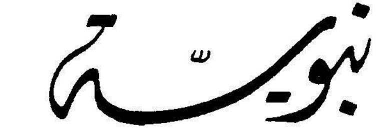
الطيب الشريف

ستظل جزائرنا خضراء

★

خضراء .. جزائرنا الخصبه ..
خضراء .. يوشيها العندم ..
بالدم ...
وترفرف فوق روابيها
رايات المعركة الغراء ..
ويغنيها ...
ويزغردها .. في الجو رصاص ..
من فوهة بركان ثائـر ..
في الف شهيـد .. مبتسم الثغر ..
مخضوب .. من دمه الطاهر ..
قد كحل عينيه .. بسنا الفجر ..
والتف .. برايته البيضـاء ..
ووميض .. يلمح في الظلمـات ..
خلف الاسوار ..
من اعين آلاف الثـوار ..
من اعين آلاف النجمـات
حلفت .. ان لـن ترقـد ..
ما دام استعمار اسـود ..
ما دام عساكر « هولاكو » ..
والطاعون الفتـاك !!..
وعهود .. يقطعها الاحرار ...
ان لن يحيـا الاشرار ..
ما دام هنالك الف جميلة بوحيرد ..
ما دام هنالك الوف من « عقبة »
يفدي شعبه
بالروح .. وينتظر الموعـد ..
ستظل جزائرنا .. خضراء ..
خضراء كغصن الزيتون ..
كمروج بلادي .. في نيسان ..
خضراء .. ستنبت حربه ..
رغم القضبان الدمويه ..
وتفتق ازهارا حمراء ..
كجراح ضحايانا الغراء ..
كشقائق نعمان .. فتحها نوار ..
لتوشي ارض جزائرنا الخضراء ..
بالغار .. وبالازهار ! ..

القامشلي **محمود محمد كازي**
« جمعية الادباء العرب »



في قلب الحانة كانت ترقص
عاريةً الا من أشرطة حول النهد
حول الردفين المجنونين
كانت نارا أشعلها زنجي في الغابه
كانت طيرا بريا لم يستأنس بعد
الجسد الثعباني الافيوني اللون
وبريق العين الوحشي
والغمازة في الخد القمحي
ـ بارعة كالشيطان !!
ـ رائقة كمياه الينبوع ..
ـ حـــلوه !!
احدى عشرة رقصه
شدت أعيننا في الراقصة النوريه
في الجسد المتلوي بين حبال الجاز
في النهد الغماز ..
وصحونا في اخر شوط كانت تلهث
وتمد المنديل على مقعد
وامتدت أيدي الرواد المسحورين
كل يطمع ان يرجع بالفوز
أن يمسي فارس ليلتها
كانـت أنثى ..
عابقة النكهة كالزهره
ناضجة كثمار الموز ..
همس رفيقي دعها ..
قد تمسك نجما من شباك الحانه
لكنك لن تمسك نبويّـه
اسمع قصتها هي ما زالت عذراء
فارسها كان فتى يعمل في البحر
ودّعها من زورقه ذات مساء
وانتظرت ان يرجع ما عاد
لبثت تهواه ..
والنوريات يغشن بحب واحد
ألف عشقوها بعده ..
الف سكبوا بين يديها الآه
نثروا الذهب على قدميها
أبدا ما حاد القلب العابد
ومضت ترقص ..
ما فعلت الا غرقت في انفاسه
كانت في الليل المقمر ترقص له
وهو يرافقها بالناي
انظر هاهي تنفلت من الكل
شائقة كفراشة حقل
فارعة كالرمح ..
ستعود الى الخيمة قبل الصبح
وستنتظر فتاها عند الباب
لكن أيعود ؟؟
تحلف نبوية سيعود ..
في قلب الحانة صمت
ما زالت نبوية في أدمغة الرواد
ترقص احدى عشرة رقصه
بالقد المصقول...
والعين الثابتة على مجهول
وعبير الانثى الصارخ بالاجساد !!
لما كنت اعيد القصه
واراجع احلام العاشقة النوريه
هتف رفيقي « في صحتها »
وقرعنا الكأسين برفق
في صحة نبويه ..

كامل أيوب



المفهوم الحديث لرجل الدولة

تأليف الدكتور حسن صعب

منشورات المكتب التجاري ، بيروت ـ ١١٠ص

تفضل الصديق الدكتور حسن صعب فاهدى الي كتابه الجديد « المفهوم الحديث لرجل الدولة » واغراني عنوان الكتاب ، ومعرفتي شغف مؤلفه بالتعمق في بحوثه بالمبادرة الى مطالعته ، فوجدته محشوا بالفائدة ، ولا احاول تلخيصه ، لانه في ايجازه ودقته لباب يغني عن مجلد ضخم ، وماعتقد ان مشتغلا بالسياسة او متقلدا ولاية مستغن عن قراءته .

لقد خلط الناس بين « رجل الدولة » الذي يقود ، وبين السياسي الذي ينقاد ، وجهلوا الفرق بين القائد الخلاق وبين القائد التمثيلي ، فجاء هذا الكتاب يبين الفرق ، ويعلم الناس كيف يختارون القائد ، وما يجب ان يتوافر فيه من مزايا واهليات ، والتوكيد ان اهم اختبار للقائد هو قدرته على ان يشيع في مريديه الايمان بشخصيته ، والاشارة الى ما في وسع القائد الفرد تحقيقه بقرارات حاسمة في اللحظات العصيبة من التاريخ مما لا تستطيعه ازمان ولا تقدر عليه رجال !

وليس اصح من قول المؤلف : « ان معيار القائد الافضل هو في اختياره للامكان الافضل في الساعة التاريخية الحاسمة » ، وهذا تصحيح للوصف الشائع للسياسة وكونها « فن الممكن » .

ويذكرني حديث الدكتور صعب عن مزايا القائد او الزعيم بابيات من قصيدة للشاعر العربي الجاهلي لقيط بن يعمر الايادي ، وكان كاتبا في ديوان كسرى سابوري ذي الاكتاف فارسلها الى قومه ينذرهم فيها غزو كسرى اياهم ويحثهم على الاستعداد والحذر ثم يقول :

وقلدوا أمركم لله دركم
رحب الذراع بأمر الحرب مضطلعا
لا مترفا ان رخاء العيش ساعده
ولا اذا حل مكروه به خشعا
مشهد الليل تعنيه امورکم
يروم منها على الاعداء مطلعا
وليس يشغله مال يثمره
عنكم ولا ولد يبغي له الرفعا

وقد اطلق المؤلف اصطلاح « الاختياريين » بدلا من القدريين (صفحة ١٧) ووضعه ضد « الجبريين » ولعله لجأ الى ذلك خشية ان يفهم القارىء ان « القدرية » من القدر ، مع انها من القدرة وتنفي القدر . فاثر لفظ الاختياريين من الاختيار ، ولكن تجنبه هذا في الصفحة ١٧ وقع فيه في الصفحة ١٠٢ ، وظن واهما ان القدرية هي من الاتكال على القدر فقال : « الانسان الذي نسي ان قدره ليس في قدرته » الخاملة بل في جهده الخالق مع ان « القدرية » في عرف اصحاب المذهب هم القوم الذين يجحدون القدر !

ويرى الدكتور صعب ان قوة الاقناع تحل من النظام الديمقراطي محل قوة التأثير في الجماهير التي هي من متطلبات القائد في النظام الاستبدادي . وفي اعتقادي ان قوة التأثير في الجماهير هي من مستلزمات النظام الديمقراطي كذلك وان المعارك الانتخابية تستند الى جميع وسائل التأثير في الجماهير .

ويستعمل الدكتور صعب مصطلحات يفرض ان كل قارىء يعرفها ، مع اننا حديثو عهد بهذه البحوث ، فليته عرف بايجاز ما يعني بالاوليغاركية والديماغوجية والتكنوكراسية ، اذن لتبسط الموضوع امام القارىء المتوسط .

وابدع المؤلف في حديثه عن الديمقراطية والحكم الاسلامي ، وفي تخطئته طريقة اثارة موضوع ديمقراطية الحكم الاسلامي ، « وهي طريقة عكست وجود افتراض عام بان الديمقراطية هي النظام الامثل لحكم الانسان فان كان الحكم الاسلامي ديمقراطيا كل الديمقراطية كان حكما صالحا والا فهو فاسد ، » وقد وفق كذلك في ايضاح اعتقاده من مفهوم الديمقراطية .

وفي الكتاب بحوث اخرى جليلة الفائدة هي : المفهوم العربي لعلم السياسة ، وابن رشد وجمهورية افلاطون ،وابن خلدون المفكر السياسي، والمفهوم العلمي الحديث للعمل العام .

واخص بالتنويه فصله الختامي عن « نزعات التحرر في المجتمع العربي » وفي هذا الفصل الرائع يبرهن الدكتور على ان الحق الطبيعي في الحرية لا يعني بالضرورة نزعة الى التحرر ، ويعرفنا بمفكر جزائري مبدع هو محمد عزيز الحبابي في كتابه « احرية ام تحرر » ، وفي هذا الفصل روعة في الحديث عن التحرر الكلي يقول : « نعم ان التحدي الماركسي هو تحد كلي الابعاد ، وتجاهلنا لحقيقته الاولية هذه هو الذي يفجعنا الان بعنف الصدمة . والمؤدي المنطقي لهذه الحقيقة الاوليةبالنسبة الينا والى سوانا ، هو ان ما هو كلي لا يجابه بما هو جزئي ، وما هو تركيبي لا يستبدل بما هو تجزيئي ، وما هو انساني لا يقابل بما هو محلي وما هو عملي لا يقاوم بما هو بدائي ، وما هو مجتمعي لا يحارب

بما هو عشائري أو اقطاعي او طائفي ، وما هو حركي لا يصد بما هو سكوني ، وما هو تنظيمي لا يقهر بما هو ارتجالي ، وما هو ايثاري لا يعلى عليه بما هو اناني ، وما هو بناء تفاؤلي خالق لغد اسعد لا يحول عنه بالتذكير الرومانتيكي بماض اسعد ، وكل هذه متناقضات ردودنا وردود الاخرين على التحدي الشيوعي. والرد الوحيد الحقيقي عليه هو في تحقيق التحرر الكلي لشعبنا ولكل شعب .. »

والدكتور صعب يجيد ويجلي ويسكب الحقائق في عبارات محكمة بليغة هي فصل الخطاب في هذا الباب قال : « ان الشيوعية تحاول اجتثاث الانسان من جذوره الالهية ، وهي اعمق وانبل واخلد ما فيه . وهي تفسر التاريخ بالحرب الطبقية ، فتبسطه لان التاريخ هو اوسع واشمل من مجرد حروف طبقية ، وهي تفسر تركيب المجتمع ، والتركيب المعنوي لهذا التركيب من خلال نوعية وسائل الانتاج السائدة ، متجاهلة كافة وسائل الخلق النفسية والاجتماعية التي تؤثر في هذا التركيب . وهي تصور الانسان مسيرا بحاجاته المادية فتجرده من كلية حاجات وعيه الروحية والعقلية والنفسية وهي اذ تعد الانسان بتحريره من الشيئية التي انزلته اليها الانظمة الاقتصادية الرجعية تحيله الى الة ايديولوجية مادية صماء . لهذا فهي ان ظهرت في الامد القصير الفوري محررة والا انها في الامد الاطول مستعبدة والانسان متجاوز لها عاجلا او اجلا حتى في مواطنها الاولى . »

اكرم زعيتر

من مذكرات قومي متآمر

بقلم الدكتور شاكر مصطفى سليم

منشورات دار الطليعة ، بيروت ـ ١٣٠ ص

ليست هذه مذكرات سياسي يهوى السياسة او يمتهنها ، ولا هي مذكرات حزبي يعمل في اطار معين ، ولا هي مجموعة اعترافات او تفاسير شخصية ، بل انها سجل لفترة في تجربة فرد ولتجربة فرد في اطار فترة . انها صفحات من يوميات استاذ جامعي عرف بميله للبحث العلمي وبدراساته الاجتماعية القيمة ، وعرف بجده في العمل، كما عرف بروحه العربية وبايمانه بالحرية الشاملة .

وجاءت الثورة المباركة ، ثورة ١٤ تموز، فهلل لها مع من هلل من المواطنين الاحرار وواكبها قلبا وعملا ، ورأى فيها مع غيره بداية عهد من الكرامة والبناء الايجابي ومن التضامن الوثيق مع البلاد العربية .

ولم تمض فترة طويلة حتى بدت في الافق سحابات ثم غيوم ، وكأن الثورة جاءت دون خطة ، فهناك اتجاهات تصطرع وكتل تتصادم ، واذا بالحزب الشيوعي يستغل كل وسيلة ، ومنها ثورة الشواف في الموصل ، لينكل بالقوميين وبكل من لا يسير في الركاب ، واذا الشعب يشهد وسائل وافانين في الارهاب والكبت ، واذا العراقيون في دوامة رهيبة .

ويقف كاتب المذكرات يرقب هذا التطور في وزارة المعارف والجامعة اولا فيري بوادر الانحراف ، ويتحسس الزحف الشيوعي حتى يشهد وسائل وأفانين في الارهاب والكبت ، واذا العراقيون في او لحملات قلمية ، بل لانه قومي يؤمن بمبدئه ويتمسك به . ويفتح عينيه على الخطوط العريضة للمخطط الشيوعي ، ويختبر بنفسه وبمشاهداته اساليبه في معتقله في الكوت وفي منفاه في العمارة وبعقوبة ويشهد مفاهيم جديدة للديمقراطية والتحرر لم تخطر ببال . واحس بعمق التجربة وبدلائلها البعيدة للعراق فدون يوميات احتفظ بها لفترة ، ثم اتيح له نشر هذه الصفحات مبدئيا في جريدة الحرية ببغداد وهي قومية متزنة ، ثم جمعها في كتاباً خاص .

وقد كتب الدكتور شاكر مصطفى سليم باسلوب ادبي ساخر واورد ما يعرف مثله وأكثر منه جماعات كثيرة من العراقيين ، ومن هنا كانت قيمة مذكراته ، فهي تعبير صادق عن الجو الذي عاشه العراق وعن احاسيس الناس في تلك الفترة . وهي دقيقة في وضوح الصورة وبعدها عن المبالغات صادقة بما تضمنته من خبرة عملية . بل ان المذكرات المنشورة في هذا الكتاب اكثر تحفظا في بعض اجزائها مما نشر منها في جريدة الحرية وهي في (الحرية) اكثر تحفظا من الاصل .

وواكب المؤلف فترة زحف شيوعي منظم ، وادرك غفلة الكثيرين عن اساليبهم فأراد ان يسجل ، فدل بذلك على نظرة عميقة واعية . ولعل من يؤرخ هذه الحقبة في المستقبل يرى صلة الخطوط الكبرى للاحداث بخطط الحزب الشيوعي وبالخطوات التي قطعها وما رافق ذلك من مشاكل وارهاب ومصائب .

وعى الكاتب خبرة شهور مرت فوجد « في الشعوبية والشيوعية والفوغائية والانتهازية معاول هدم في كيان جمهوريتنا تعرقل زحف الركب العربي » ورأى في الشيوعية خاصة قوة تريد « لهذا البلد وتاريخه وتراثه وتقاليده ومثله وقيمه » النسف والتدمير . دون ملاحظاته في كراس ضخم، ولكنه لا يرى امكان نشره كله فطوى وشذب واكتفى بنشر نتف منه ، اذ يقول :

« فانا اقلب صفحاته (الكراس) فاترك منها الكثير واضطر على حذف وتشذيب اجزاء معينة مما استطيع تقديمه لك ، وقد يأتي الوقت .. من يدري .»

ولا يريد الكاتب ان يقدم لنا نظريات وتعميمات عن المسيرة الشيوعية الشعوبية ، بل يكتفي بعرض « حوادث ومصائب وتجارب رأيتها وعشتها خلال الاشهر العشرة الاخيرة » ، يقدمها باسلوب رائق ساخر ، فهو يتحدث آنا بلهجة (الحزب الطليعي المقدام) ويتكلم حينا بلسان (المناضلين الشرفاء) ، ثم يعود الى تحليل ونقد للمفاهيم والاساليب ، ويرجع الى تقدير الواقع بامنه وملابساته ، وينسج من كل ذلك نسيجا حيا للواقع . وهو مرة باحث اجتماعي ، ومرة (جاحظي) ، ساخر ، ومرة (حريري) يعطي صورة حية اخاذة ، وهو بعد ذلك ـ شعرت او لم تشعر ـ يجعلك تعيش في جوه وتتنقل معه بين الكلية والدار والمعتقل والمنفى ثم في جو العراق الواسع المكفهر .

وحين تقرأ المذكرات تدرك ان المؤلف استاذ جامعي واديب شعبي في آن واحد ، يبدأ بالبدايات ويتدرج معك في تجاربه . يبدأ فيعرفك بنفسه بلهجة (المناضلين الشرفاء) اثر ثورة الشواف في الموصل ، فيقول : «انا قومي متآمر خائن .. وعميل وذنب استعماري ، وانا من اقطاب مؤامرة الشواف القذرة ، وشديد الصلة بـ (الرجعيين والاقطاعيين) وقد (زرت مصر قبيل حركة الموصل) ،و(اختزن في داري مختلف الاسلحة والمتفجرات ومنها رشاشات بور سعيد ورصاص دمدم) .. »، وبهذا يوجز الكاتب اصناف التهم التي وجهها الشيوعيون لاعتقال القوميين وغيرهم بعد ثورة الشواف . ولا يكتفي بهذا بل يقدم لك صورة قلمية نموذجية للخطر الشيوعي في كلية الاداب بجامعة بغداد ، وانت في غنى عن الاستفسار عن مقاومة (المناضلين الشرفاء) لامثاله وعن سبب اعتقاله ، فها هو يعترف ويقول « كنت مجرما بحق الشعب والوطن » ، وجريمته متشعبة ومعقدة بنظر (الرفاق) ولكنه يوضحها لك فترى محنة العلم وتقدم مصير الحرية الجامعية وتدرك مهمة موجهي النشء بمنظار الحزب الجماهيري . يقول « انني لم اعترف بعمادة الرفيق (العبقري) مهدي المخزومي ـ عميد كلية الاداب الجديد ـ .. ولا بالاتحاد الشيوعي لطلبة كليتنا الذي ولد بتوجيه الحزب الشيوعي .. ولا بنقابة المعلمين واجهة الحزب الاحمر .. ولم ابارك حملة الدعاية في كليتنا للحزب الشيوعي ولم اشارك فيها لا بالخطب ولا بالتبرعات ولا بالمسيرات والمظاهرات والهتافات ... ولم اشجب رغبة الزعيم في تجميد النشاط الحزبي (والحزب الشيوعي ضد التجميد) ولم اؤيد الجبهة الوطنية (وهذه اصبحت تقتصر على الشيوعيين واقصى اليسار والحزب الديموقراطي الكردي) او ادع لاشراك الحزب الشيوعي في الحكم . » وهكذا يريك التعبئة الجديدة في الكلية ويعترف بموقفه السلبي من كافة تنظيمات وتوجيهات الحزب الشيوعي فيها . ولكن جريمة امثاله لا تنتهي هنا ، فهو رجعي في نظرته الاكاديمية لم ير النور الاحمر الجديد ولم يهتد بضوئه في تدريسه للانتروبولوجي في الكلية ، اذ يقول : « وانا خائن بحق الشعب والوطن لاني لم استغل محاضراتي .. لشرح وتدعيم النظريات الشيوعية والمادية والتبشير بمبادىء ماركس وانجلس ، ولتسفيه الدين (افيون الشعوب) ، وهدم العائلة (الخرافة البورجوازية) ومهاجمة الرجعية ورأس المال) » ، بل انه خائن ايجابيا ، فهو يدري « ان القومية ... جريمة عظمى ، وتآمر صريح » ولكنه لم يتورع عند المناقشات التي يدفعه اليها (الرفاق الشرفاء) ان يصرح: « بأني كنت وسأبقى قوميا أومن بان هذا البلد جزء طبيعي من البلاد العربية واني اعتز وافخر بتاريخ العرب ولغتهم وتقاليدهم وحضارتهم وامجادهم .. » الا ترى معي انه قدم لك صورة جلية للتوجيه المستنير في الحياة الجامعية وانه رسم لك السبل الكفيلة والتنظيم اللازم لذلك ؟

ولكن هذه الحالة لم تأت فجأة فهناك مرحلة تمهيدية للحزب الشيوعي بدأت من اول يوم للثورة للاخذ بتوجيه ثقافة البلد وناشئته . وكانت الخطة الشيوعية في حقل الثقافة ـ كما بان بعدئذ ـ على درجات تبدأ بالسيطرة على وزارة المعارف وعلى الجامعة ، يتلوها تكوين اتحاد طلبة شيوعي ونقابة معلمين شيوعية ، ثم التصفية الاتية لمنتسبي المعارف والجامعة ولبرامجها التعليمية .

وبدأ الزحف الشيوعي هادئا خفيا ، وسط الحماس الثوري ، فاحاطوا بوزير المعارف يزكي بعضهم بعضا وحاصروا الرؤوس الكبيرة في وزارة المعارف وافهموها ان بقاءها منوط بتخليص الوزارة من جماعات معينة ، فنجحوا في اخراج العناصر القومية من الوزارة او تجميدها ، وزكوا « طغمة انتهازية » ، وفي غفلة من الدهر اخذوا المناصب الرئيسية واعطوا الباقي الى جماعة انتهازية تسير امامهم لا عقيدة لها ولا مبدأ ، واتخذوا خطوات مماثلة في الجامعة متجاهلين كل المقاييس الاكاديمية فجاءوا « بشلة من الرفاق اوالانتهازيين للعمادات » ورأى الناس العجب.

وعمل الشيوعيون عن طريق ممثليهم في الكليات لتبديل الاوضاع . ويتخذ الدكتور شاكر مصطفى ما شاهده في كلية الاداب مثلا واضحا . هنا رأى العميد يحيط نفسه بشلة من الرفاق مستلهما وحيه من الحزب العتيد مستندا الى الطبقة الشرفاء والى تأييد رفاق بيدهم زمام وزارة المعارف والجامعة ، ويبدأ تنفيذ المخطط الشيوعي ، في تغيير قواعد القبول الى الكلية فالباب مفتوح لا امتحان ولا نظر للدرجات ، وتتدفق جموع الزاحفين من الطلبة الذين رسبوا في الثانويات فعبروا بمرسوم جمهوري وجلهم من المناضلين الشرفاء وبعضهم ممن قضى سنوات في السراديب والسجون فجاء ليستأنف نشاطه في الكليات . وبجنب هذه التعبئة توجيه جديد ينفثه الحزب الشيوعي . فقد جاء الطلبة « بروح الخروج عن كل نظام والسيطرة على ما في معاهدهم . فالدوام والتزامه خرافة ، وكثير من المواد والمحاضرات رجعية يجب الكفر بها ، واحترام الاساتذة (طبقية مقيتة) ، والحياة في الكلية ليست الا تصفيقا وخطبا ومظاهرات وقراءات صحف معينة ، وكتابة شعارات وتشييع جنازات ، ثم نجاح اما بالزحف او على اساس تقدير الخدمات » . وانهار الاعداد العلمي ، فالمحاضرات حية ونيرة ان كانت وقفا على شرح النظريات المادية والشيوعية وتدعيمها وتسفيها للدين وهدما للقيم العربية « واذا رافقها سخرية من التاريخ العربي ومن مثله » ، وهي مملة ورجعية وتافهة اذا كانت اكاديمية او علمية . ولم يبق لمجلس الكلية اثر ، بل انها زمرة تتحكم وتقرر ، بيدها القبول والجداول واللجان ورسم الخطط وعقد الاجتماعات ، وليس لها هدف الا متابعة الخطر الشيوعي . ووهبت رئاسات الاقسام وسكرتاريتها الى هذه الزمرة .

وجاءت الخطوة الثانية في المخطط الشيوعي ، فكانت حكاية انتخابات اتحاد الطلبة ثم نقابة المعلمين . فالحزب الشيوعي يريد واجهات تعمل علنا لتحقيق تخطيطه ، وللطلبة اهمية بالغة . وكان واضحا ان الشيوعيين والديموقراطيين اقلية فنظموا الحملة من فتح باب القبول الى تهديد للطلبة او اغرائهم الى اخراج الطلبة العرب من الانتخابات الى انحياز وتدخل واضحين من الادارات ، وانتهت القصة بانسحاب القوميين وتقديم قائمة واحدة هي القائمة الشيوعية ـ الديموقراطية . وهكذا ولد اتحاد الطلبة ليصبح ركيزة اساسية للحزب الشيوعي وليتحكم في سياسة الكلية (اية كلية) تعليمية وادارية واجتماعية وليوجه نشاط الطلبة في خدمة الحزب الشيوعي .

وبدأ الاتحاد بفرض هيمنة ، فباسم الحرية وباسم (السهر على مصالح الجمهورية) اتخذ من اعضائه (حراسا للجمهورية) يرقبون كل داخل الى الكلية وخارج منها ، ويرقبون حركات الطلبة والاساتذة في الممرات وقاعة الدرس ، وباسم الديموقراطية ارعبوا من يخالفهم في الراي حتى اتخذوا غرفة خاصة لاستجواب خصومهم وضربهم والتنكيل بهم ، وشغلوا انفسهم بلافتات للمسيرات والمواكب والاجتماعات ، ولافتات كبيرة يعلنون عليها مطالب الحزب الام على مدخل الكلية . وباسم حماية الجمهورية كانت فرق منهم تسهر في الليل تراقب الناس في الشوارع والدور ، وجماعات توزع المنشورات. وصار الاساتذة والموظفون تحت رحمة الاتحاد ، ويكفي ان يصيح احدهم بان فلانا متآمر او رجعي ليجد

نفسه رهن الضرب او التوقيف او الطرد . وهذا الاتحاد نفسه وضع خطة لاتهام اثنين من المدرسين ، غاب احدهم صدفة وهو صاحب المذكرات فتعرضت حياة الثاني ، الدكتور محمد حامد الطائي ، للخطر ، وتدخل الجيش واستجوبه طويلا . وكان للاتحاد دوره في ارسال هذين الاستاذين للسجن بعدئذ .

وكان انتخاب نقابة المعلمين في نفس الاتجاه دبره الشيوعيون عن طريق ممثليهم اقطاب وزارة المعارف ، فوضعت لائحة النقابة من قبلهم ، ونظمت حملة جهنمية سداها الاغراء ولحمتها التهديد ونقل المعلمين ، وزورت ثمانماية (هوية) لاناس ليسوا من سلك التعليم ليشاركوا ، ونظمت زمر تسلك كل سبيل لانجاح القائمة، ورشح المدراء العامون انفسهم ونجحت المحاولة بعد مقاومة عنيفة.وراحت النقابة تتعاون مع الوزارة في التوجيه الجديد واقطاب النقابة هم اقطاب وزارة المعارف طبعا . وبدا التوجيه الجديد بنقل مئات من المعلمين وفصل الكثيرين منهم ووضع زمرة من الموالين والاتباع في مديريات المعارف والكليات .

وعمل الحزب الشيوعي ، مستغلا الظروف والاوضاع ، وباسم الحريات الديموقراطية وصيانة الجمهورية ، على ان يخلق « واجهات ذات قيادات شيوعية صرفة مغلفة باغلفة الخدمات الاجتماعية او المهنية . » واراد – بواسطتها ان يبث نشاطه في كافة نواحي المجتمع وان يتخذ منها ادوات لاظهار قوته ولتحقيق اهدافه . فعمل على تنظيم (الشبيبة الديموقراطية) و (انصار السلام) و (رابطة الدفاع عن حقوق المرأة)، ونقابات المعلمين والاطباء والمهندسين والاقتصاديين و (اتحاد الطلبة) و (اتحاد نقابات العمال) و (اتحاد الجمعيات الفلاحية) او غيرها ، وحاول السيطرة على الشارع بواسطتها وبطرق اخرى .

وجاءت ثورة الشواف فرصة ذهبية للحزب الشيوعي ، وهو الذي اعتاد افتعال الازمات وكهربة الجو بالتحدث عن مؤامرات وهمية ليستغلها لاغراضه ، فما احراه بان يجعل من هذه الثورة طريقا الى سحق كل من خالفه والى الوصول الى الحكم في مسيرة ارهابية عجيبة . ولن نتحدث هنا عن دور هذا الحزب في الاستعداد والتعبئة لمجزرة الموصل قبل ان تحدث حركة الشواف بعد ان اوضح (الرفيق) رائد في مذكراته جانبا خطيرا من ذلك ، ولن نتحدث عما رافق ثورة عسكرية صرفة من سحل وقتل وحرق ونهب ، ومن تشكيل (محاكم بروليتارية) ابرز اعضائها قصاب وتلميذ ومحام ، او ان نذكر التقديرات للقتلى وقد تجاوزت ثلاثة الاف ، لن نتحدث عن اسبابها وابرزها الارهاب الشيوعي ومحاولة فرض الشيوعية بكل سبيل وتحطيم العناصر العربية القومية واتهام المحايدين باعتبارهم عقبة في طريق مسيرة التحرر ، فهذه اشهر من ان تذكر .

ولنكتف بالاشارة الى ما تلا الثورة من اعتقال جماعي ، فقد فسر الشيوعيون مصلحة الجمهورية حسب وجهتهم ، ورأوا انها « تتقن تجميد كافة العناصر الرجعية الخائنة المتآمرة ، والتي لا تتجاوب مع الثورة » ، فان حصلت الثورة فعلا في معسكر خارج الموصل فان العناصر الرجعية منتشرة في العراق من اقصاه الى ادناه . ولذا دفع بعشرات الالوف الى المعتقلات لمدد متباينة وكان في هذا الخضم سبعة من الاساتذة احدهم كاتب المذكرات .

وقد بدأ الكاتب يومياته المنظمة كما يبدو من هذا الحادث (١٧ اذار سنة ١٩٥٩) وانتهى – فيما نشر – يوم ٢٢ اب سنة ١٩٥٩ .

وقد اعطانا صورة ناطقة لما لاقاه منذ ان ترك داره حتى وصل سجن الكوت . اخذ في جوف الليل مع زمرة من الاساتذة ، وقضوا ليلتهم تلك في مكتب (مكافحة الاجرام) ثم نقلوا الى سيارة لتأخذهم الى السجن الموعود ، ولاحظ شرطة تحيط بالسيارة وعرف انهم « ليمنعوا عنا اذى المناضلين الشرفاء « الذين يتجمعون » ليظهروا تعلقهم بالجمهورية باهانتنا وايذائنا » ، ولئن افلتوا بقليل من ذلك ببغداد فان المناضلين اوصلوا الخبر الى (شرفاء الكوت) فاستقبلوهم استقبالا حافلا رغم تأخر سيارتهم ليلا . استقبلوهم عند باب السجن حيث تعرضوا لانواع الشتائم والهتافات المثيرة ، وحيث صبت عليهم القاذورات صبا حتى غمرتهم ، وضربوا بالهراوات وتعرضت حياتهم لخطر محقق – خطر السكاكين والفؤوس – في الفجوة بين السيارة وباب السجن – كل ذلك على مرأى من الشرطة !

وبعد ان يستقر الكاتب في سجن الكوت يعطينا صورة عن نوع المعتقلين ، فهم « خليط عجيب من مختلف الوية العراق ومختلف الاعمار والثقافات والمهن والامزجة .. » ، ويعود بسخرية مرة ليقول « كنا جميعا نشترك باننا جئنا الى السجن لاننا (لا مناضلين) و (لا شرفاء) ولاننا خونة متآمرون ولاننا لم نواكب الركب الزاحف نحو مشرق الشمس ...» واذا كان استاذ الانتروبولوجي يفهم سر الاعتقال ، فانه ينصف غيره حين يقول « الاغلبية الساحقة لا تعرف غير انها اخذت من الشارع او من بيوتها ومقرات اعمالها وهي حتى الان لا تعرف لاعتقالها سببا ».

ويبقى المعتقلون في حيرة من امرهم ويطلب بعضهم اجراء التحقيق معهم دون جدوى ، واخيرا جاءت لجنة تحقيق قضت في مهمتها اقل من ثلاث ساعات بين مائة وستة وثلاثين معتقلا ، وتكون حصته حوالي دقيقتين من الوقت لا يفهم منها الا ان الترشيح في انتخابات نقابة المعلمين على القائمة القومية يدخل في احتمالات التآمر .

ويأتيك حديث عزل المعتقلين – لا صحف ولا راديو ولا سبيل للاتصال الخارجي ، ومضايقات مأمور السجن ، وهو شيوعي يعلن ذلك ويخط على جدار السجن (الموت لاعداء الحزب الشيوعي) ، وهو يحرم حتى الجلسات المسائية للمعتقلين ، ويهدد دائما بان الشعب خارج السجن لا يريد هذا التصرف ولا يرضى عن ذلك .

ويقضي المؤلف حوالي شهرين في سجن الكوت لينفى الى العمارة ومنها الى بعقوبة ، ليشهد اعمال الحزب الشيوعي في ارجاء العراق . وقد رأى من الاذى والاضطهاد ما جعله يقدر لطف الشرطة – وحسن معاملتهم ويتذكر الصورة القاتمة التي كونها الشيوعيون عنهم ، بل ويراهم « درعا حصينا ضد الطاعون الاحمر » ويثني عليهم فيقول « وكنا مع بالغ الاسف لا نقدر تلك النعمة بل كنا بلهاء لدرجة صدق بعضنا الكثير من دعايات الشيوعيين الفوضويين واكاذيبهم فيهم » .

وينظر حوله ليرى تحكم الشيوعيين وجو الارهاب الذي خلقوه واساليبهم . فهم يطلقون الاشاعات حول كل شخص غير شيوعي ويثيرون حوله الشكوك ويحيطونه بدوامة من الاكاذيب والاراجيف « وهل أسهل في تلك الفترة من ان يتهم الانسان بالخيانة والوقوف ضد الجمهورية !!» وسعوا لنسف القيم والمثل وخلقوا جوا من الشكوك والرعب ، حتى تخلى الصديق عن صديقه والقريب عن قريبه ان لم يهاجمه امام المناضلين ليتظاهر بما يرضيهم . ويدرك استاذ الانتربولوجي بتحليله ان الشيوعيين يريدون ان يعصفوا بالمجتمع القائم بتفكيك روابطه ، اذ « حطموا كل القيم الخلقية وعصفوا بكافة المفاهيم الاجتماعية ودفعوا بتحللهم واباحتهم وغوغائيتهم وعدم التزامهم بسنن المجتمع وقواعد السلوك والتقاليد الى

ازمة اجتماعية حادة » .

ويحاول الشيوعيون تحطيم معنوية خصومهم ، فيدفعونهم الى طريق خبيث وهو اعلان البراءة من معتقداتهم السابقة ونشر ذلك على صفحات جريدتهم الحزبية ليضمنوا بذلك اخلاء سبيلهم او رفع الضيق عنهم ، كما فعلوا مع سجناء الكوت .

ويرى الدكتور شاكر مصطفى في مدينة العمارة مثلا لسيطرة الشيوعية فالمدينة يحكمها ثلاثة من الشيوعيين لاسلطة لاحد سواهم ، مدير الشرطة الشيوعي ومعلم ريفي هو رئيس اللجنة المحلية للحزب الشيوعي ورئيس جمعية المعلمين ورابعهم انتهازي جعلوه مدير معارف اللواء .

ويقف الاستاذ متأملا ، فيرى ظروف مدينة العمارة ملائمة لهذا التغلغل. فهي « مدينة يتمركز فيها الاقطاع بشكل شاذ مرعب ، وتسكنها اقليات وافدة لا عراقية ولا عربية ولا ترتبط بتربة الوطن .. واقليات اخرى موتورة » فانتشرت الشيوعية بسرعة ، « وسرى الاضطراب والخراب سريان النار في الهشيم وعمت الريف الفوضى وساد الارتباك بشكل لا يستطيع انسان معه ان يتخيل وجود حكومة او دولة !! وكم سمع الناس عن انجازات اهل العمارة في تطبيق قانون الاصلاح الزراعي دون انتظار « الروتين الفكومي » ، وحين فحص صاحبنا هذا النجاح وجد امامه دكتاتورية البروليتاريا ، فقد « شاخ (تزعم) عدد من جياع البروليتاريا فاستولوا على الاراضي وطردوا اصحابها واحتلوا قصورهم .. وتصرفت عصابة الاصلاح الزراعي في اللواء ـ وكافةافرادها شيوعيون في مساحات شاسعة من الاراضي بيعا وتاجيرا دون سرر قانوني ودون ان يدخل ذلك في سجلات حكومية او يسجل في دوائر رسمية » . وهكذا تشهد العمارة ثورة فلاحية خارج قوانين الجمهورية واتجاهها المعروف . اما مدير معارف اللواء فحدث عنه ولا حرج . فهو يعمم منشورا للحزب الشيوعي في اطار كتاب رسمي على مدارسه ، ويخطب في المعلمين قائلا « ان من واجبات المعلمين ان يعلموا الطلاب المبادىء الماركسية وينشروها على الفلاحين » ، وهو يكره المعلمين والمعلمات على حضور مؤتمر انصار السلام في البصرة . وهو نفسه يرتدي ملابس المقاومة الشعبية ويشارك اعضاءها في تفتيش السيارات والتعرض للناس بالاذى وانتهاك الحرمة .

واستدعى الدكتور شاكر مصطفى سليم في اواخر الشهر الثالث الى وزارة الدفاع ليقابل مدير الاستخبارات العسكرية آنئذ ، ليجده لولب حركة الاعتقالات ومهندس صيانة الجمهورية ـ في تلك الفترة ، فيرى بحضرته جمعا من ارجاء العراق ويستمع الى اقوالهم فيخرج بنتيجة واضحة ، وهي « انهم اعتقلوا واحتجزوا بتدبير الحزب العميل وواجهاته بتهم ملفقة وحوادث مفتعلة » .

ثم يحدثنا من حواره الطريف مع ذلك المسؤول الكبير ، واخطر ما فيه انه يسمع تهليلا رائعا لمفهوم حماية الجمهورية ولفلسفة الاعتقالات، يقول المسؤول الكبير « بعد كل ثورة تتكون لدى الشعب حساسية قومية، هذه الحساسية تستطيع ان تعين وتحدد بصدق وبدون ادنى تحفظ كل متآمر وخائن وموتور ورجعي وكل من لا يساير الثورة ويستجيب لها.وعلى السلطة ان تفسح المجال امام الشعب ليستغل هذه الحساسية في تمجيد عزل كل هؤلاء . » اذن فالامر للشعب ولحساسيته ، وعلى السلطات الحكومية ان تتنمر للشعب ليقوم بمهمته . ولم يكن اعتقال الاساتذة الا عن هذا الطريق اذ يستمر المسؤول « ولا بد ان يكون اتحاد طلبة كليتكم او جهة شعبية ادنى ـوهذه ولا شك منظمات شعبية مخلصةـ شعرت انك من هذا الطراز فاعتقلوك . » وعاد المسؤول بعد فترة صمت ودهشة من الكاتب ليؤكد « الشعب حر في شل العناصر الرجعية والمتآمرة وفي تجميد الخونة وسحق نشاطاتهم . » وهكذا كانت الحساسية الشديدة للمنظمات الشعبية ، واجهات الحزب الشيوعي ، وراء تلك الاعتقالات الواسعة .

وكان من انشط تلك المنظمات (المقاومة الشعبية) ، فقد قامت بالدور الاساسي في التنكيل باهالي الموصل ، وفي الحراسات الليلية المشبوهة في المدن الكبيرة ، وفي تفتيش الدور بحثا عن اسلحة مزعومة ، وعن مستمسكات ووثائق او منشورات قومية تدين المشبوهين لاعتقالهم . وكانوا يفتشون دون تخويل في كثير من الاحيان وينتهكون حرمة المنازل ، هذا الى تفتيشهم كافة السيارات المارة في الطريق وقيامهم باعمال هي من صميم اختصاص رجال الجيش والامن ، فلم يبق امن او هدوء . وهي حرية بذلك ، فالمقاومة الشعبية (من اكبر مكاسب ثورتنا الخالدة) وهم ـ طليعة حماة الجمهورية و (الجيش الاحتياطي لها) و (العيون اليقظة الحارسة لهذا الوطن) . ولم يحرم الوطن من حرصهم وجهودهم الا في الصيف الماضي وبعد ان بلغ السيل الزبى .

وما جاء شهر ايار الا واصاب الحزب الشيوعي نجاحا ساحقا في كل مكان ، « فهذه المقاومة الشعبية مسيطرة تفتش وتلقي القبض وتتحرى البيوت » ، وهناك (حماة صيانة الجمهورية) التي نظمها الشيوعيون من صغار الموظفين والمستخدمين ، تتحكم في الموظفين و « تعيث في دوائر الدولة فسادا » فتتهم من تريد وتشل من تريد وكانها لا سلطة فوقها ، واحتجبت الصحف عن الصدور او حجبت «غير الصحف الحمراء العميلة» واصبحت الاذاعة « حمراء صارخة مسخرة الحزب العميل بشكل مخجل » مناهج التلفزيون وقف على ابطال المناضلين والمنظمات الشعبية .

وبعد ثورة الشواف اتم الرفاق (تعبئة كبرى) لكافة منتسبي وزارة المعارف فكسحوا كل مدراء المعارف واحلوا رفاقا محلهم واسندوهم بمعاونين ومفتشين على شاكلتهم ، ولم ينسوا تحدي لواء الرمادي لهم في انتخابات نقابة المعلمين ، فشتتوا معلميه ومعلماته الى زوايا الوطن وابدلوهم برفاق شرفاء ، ثم جمدوا عددا واسعا من المعلمين والمعلمات في ارجاء العراق حسب توصيات اعتمادات الطلبة واللجان المحلية للحزب الشيوعي وفروع نقابة المعلمين ومدراء المعارف ، واخضعوا الباقين لرقابة شديدة ومتى بدرت اية بادرة فهم اوعزوا باعتقالهم وعلى اتحاد الطلبة والمقاومة الشعبية التنفيذ فورا .

وتراءى للحزب الشيوعي انه مهد بما فيه الكفاية وانه اصبح متهيأ لاخذ السلطة . فطلب المشاركة في الحكم وطرح شعاره « حزب الشيوعي بالحكم مطلب عظيم » ، و « سبع ملايين تريد حزب الشيوعي بالحكم . » وهنا يدخل الكاتب في عملية حسابية ـ تذكر بقصة النحوي مع حرف الجر ـ ليرى سلامة الاحصاء وينتهي بعد جهد الى نتيجة منطقية واحدة وهي سلامة الادعاء مع بديهية حتمية وهي ان شعب العراق ١٤ مليون لا سبعة ملايين .

ولا اراني بحاجة لمتابعة الفترة بعد ايار ويكفي ان اقول ان طلب المشاركة في الحكم سحب في الظاهر ليتخذ شكلا اخر واستمرت مسيرة الحزب الشيوعي المظفر حتى ١٤ تموز سنة ١٩٥٩ حين حصلت مجازر كركوك الدموية الفوضوية وظهرت مخططات في نفس الاتجاه الدموي لانحاء متعددة من العراق اوقفت في حينها ، ومنها ما وجد في مقر اتحاد الطلبة العراقي في بغداد من خرائط ومخططات لبيوت تنسف وتحرق وتهدم وقوائم باسماء الالوف في بغداد يجب ان يقتلوا ويسحلو ويدفنوا احياء.

واهتز العراق كليا وكان رد الفعل شاملا وقويا ، وبان صداه في تراجع شكلي للحزب الشيوعي في بيانه في اب سنة ٥٩ وعادت بعض الصحف القومية للصدور وكان مجال نشر هذه المذكرات ..

وقد يتساءل القارىء بعد هذا : وأين المنظمات القومية ، وكيف وقفت من الحركة الشيوعية ؟ واين عروبة العراق وهل صمدت القومية العربية؟ والكاتب يعرف انها قوية في العراق وان القوى في غنى عن تعريفها بنفسها . انما اراد ان يعرض جوانب من الخطة الشيوعية ، واراد ان يفهمها الناس كما ادركها هو ، يكفيه انه قدم اول محاولة جدية من نوعها ، ومعرفة الخصم بداية طريق جديد .

ع . د

الهاوية

بقلم صلاح كامل

مسرحية في ثلاثة فصول — دار الطليعة بيروت — ١١٢ صفحة .

« الهاوية » مسرحية فلسفية جديدة ، صدرت حديثا عن دار الطليعة بقلم الناقد الفنان « صلاح كامل » وقد اضاف بها الى القابه لقبا جديدا هو « الكاتب المسرحي » . والذي يكسب هذه المسرحية قيمة في ادبنا المسرحي ، انها اول مسرحية فلسفية توضع باللغة العربية حتى اليوم .

والمسرحية الفلسفية بين فنون المسرح اصعبها جميعا لانها لا تعتمد على الحدث والصراع ، بل تعتمد عنصري الحوار والشخصية . وفي مسرحية صلاح نتبين هذه الخصائص بوضوح . ان المسرحية تسير في خط مستقيم واحد ، دون ان ترتفع الاحداث الى قمة ، ودون ان تتأزم المواقف ، لتفضي من ثم الى النتيجة او النهاية . لذلك فالمسرحية الفلسفية تتناول اول ما تتناول مشكلة انسانية تعالجها على الصعيد الفلسفي . ويقتضي ذلك دراسة عميقة لشخصية الابطال وعملية اغناء واسعة للحوار. تعالج مسرحية الهاوية مشكلة لها اهميتها البالغة . الا وهي مشكلة الاخر l'autre اعني ذلك « الغير الذي نحيا معه ونعمل له حسابا ونميل الى تحقيق ضرب من المشاركة معه » وهي المشكلة نفسها التي اختار الجحيم مكانا لمسرحيته ، اما صلاح فقد اختار « غرفة بسيطة .. زاويتاها الخفيتان غارقتان في الظلمة ! » اشخاص المسرحية خمسة ثلاثة منهم رئيسيون هم نتنائيل بطل المسرحية المنقسم الشخصية ، الذي يبحث دون جدوى ، عن معنى الوجود والحياة ، وملاخي صديقه الطيب الوفي .. وسارة ، الفتاة التي تحب نتنائيل ، ولا يشعر هو بمجرد وجودها ، اما صفنيا وراحيل ، فهما خادمان عند نتنائيل !..

■ يقدم لنا الفصل الاول من المسرحية مشكلة نتنائيل الانسان المنقسم الشخصية الذي تعذبه الحيرة ، في حوار مع صديقه ملاخي ..

■ يقول ملاخي سائلا نتنائيل : « ما يربطك بالحياة ؟ . »

يقول نتنائيل : «ايماني بالقيم علة وجود الانسان » .

وبذلك الحوار الممتع ترسم لنا شخصية نتنائيل ، وهي الشخصية ذات الاستقامة الذهنية العنيدة ، الشخصية التي تقدس الاخلاق ، وفي الوقت نفسه تقف مشدوهة امام احداث الحياة ، لا تدري لها تعليلا ان نتنائيل يرفض الاخرين ، لانه لا يستطيع ان يفهمهم . لكن هل عدم الفهم هذا هو الذي يبرر الكراهية ، هل يحتاج الحب الى الفهم .. ذلك ما يبحث عنه نتنائيل بطل المسرحية . وتجري الاحداث ، ملاخي ونتنائيل لا تتفق اراؤهما ، فيودعه ملاخي ، ويغادر الدار ، في حين ينبعث صوت الصدى ، يحدث نتنائيل ، انقسمت شخصية نتنائيل حتى تجسد ذلك الانقسام بشخصية جديدة هي .. « الظل » . وتدخل سارة ، الى بيت حبيبها نتنائيل .. تحدثه .. تعرض عليه قلبها .. ولكنه يرفض . يريدها صديقة تصغي اليه . الى حديث عقله . يقول لها : « سارة تشبهي بي عيشي بعقلك . » فتجيبه « اتعرف ماذا تطلب مني .. ان اكون صخرا يطحن من يفيء الى ظله .. آه .. قلبي معك . كلي معك وانت غائب لاتعي كلمة مني .. لا تشعر بوجودي . »

في الفصل الثاني يتجسد الظل حقيقة ثانية لبطل المسرحية . انه الانسان الاخر ، الشرير ، الشهواني ، الانتهازي ، يغري سارة ويحتضنها .. ثم يخرج ، ويدخل نتنائيل .. الحقيقة الاولى للانسان بطل المسرحية ، فتكاد سارة تصعق وتجن . تهرب منه . بعد ان تيأس ، وتلتصق « بعاد » الشخصية التي لا تظهر على المسرح بينما تثير في الفصول كلها حركة نشيطة . « عاد » هذا يأخذ سارة ويغتصبها . ثم يعود الى بيت نتنائيل ، فيلقي الخادمة ، فيغلق الباب عليها ويغتصبها هي الاخرى ، انه الذئب يفترس الضحايا دون وازع ولا ضمير . انه انسان الملذات . الانسان الوحش ..

وفي الفصل الثالث ، يغادر الجميع بيت نتنائيل . ملاخي يغادر الدار ليأخذ سارة بعد ان عرف بخطيئتها . وصفنيا يأخذ الخادمة راحيل ويرحل . ويبقى الانسان نتنائيل يحاور ظله .. دون ان يجد اي مخرج على الاطلاق . وبذلك تنتهي المسرحية لتقول لنا ان لا امل للانسان الوحيد ، ان صخرة سيزيف ستظل تنحدر ثانية وسيظل الانسان يحملها الى الابد .

وشخصيات المسرحية « الهاوية » هي شخصيات نمطية ، عكس شخصيات مسرحية سارتر ، التي تقدم لنا شخصيات مريضة ، « فساراجان » جبان هرب من خطوط القتال ، و « استيل » امرأة تخون زوجها وتقتل طفلتها ثم تصاب بالسل . اما « انيز » فهي امرأة منحرفة « لا تهوى الرجال » تقتل ثلاثة اشخاص . كل هؤلاء اصناف من « الكلاب الملعونة » فهل كانت شخصيات مسرحية « الهاوية » من الصنف نفسه ؟ ان شخصيات الهاوية كما قلنا نمطية ، ليست شاذة ولا مريضة ، ولا منحرفة . نتنائيل في الحوار كله لا نستطيع ان نتبين ماضيه ، كل ما نعرفه ان مشكلة الوجود تثقله . مما يجعلنا نعتقد انه مقطوع الجذور . وكذلك الامر مع « ملاخي » و«سارة » .

وقد رسمت الشخصيات بواسطة الحوار دون ان يكون للمواقف التي يقفها الابطال ما يفسرها .. وذلك يرجع الى طبيعة الموضوع الذي تعالجه المسرحية ، الذي هو في الحقيقة موضوع فلسفي والفلسفة كما نعرف تدرس الكون بوجه عام دون نظر كبير في الحياة الانسانية. وليس من المصادفة ، ان يختار المؤلف اسماء اسطورية لابطاله . ان الشخصية الاسطورية لها من السمات المعروفة العامة ، ما يجعل القارىء يتقبلها ويفهمها مع اضافة المحتوى الفلسفي لها ، بالطبع .

شيء اخر تنفرد به « الهاوية » عن الجلسة السرية ، هو المكان . فالمعروف ان جان بول سارتر اختار الجحيم مكانا لمسرحيته والجحيم الذي اعده سارتر هو غرفة صغيرة ليس فيها نار موقدة انما بعض الاثاث البسيط . لا نوافذ .. لا مرايا .. اما المكان الذي اختاره صلاح كامل فهو مكان ما في هذا العالم ، وغرفة بسيطة تغرق زاويتاها الخلفيتان في الظلام . وقد اختار صلاح كامل شخصيات حية ، لم يختر

الحب والمطر

احس ان في دمي الهة
تسكن في عروقي . .
لذيذة نكهتها . .
احس ان مقلتي صارتا كجرتي
نبيذ
وانني سرقت من عينيك خصلة من
الجمال
وان زورقي حائرة أضلاعه
تحلم باللال . .
تبحث عن شواطىء عميقة عميقة
طعامها المحال . .
كمقلتيك يا رفيقتي . .
احس ان وهمنا ، جرحنا
وربما رؤاه عنبت ،
وعسلت . .
وان خطوك الوسيم يهصر العنب .
بخيلة أعناب وهمنا

وربما ستجهض السراب . .
احب يا رفيقتي ان يأكل الشتاء من
اعناب وهمنا
احب ان يسحقه الضباب
ان تصلبه المطر
لنلتقي . .
واتقي بقلبك المجدول من حنين . .
عربدة الضياع . . والانين . .
رفيقتي
احس ان بيتنا الصغير قد غدا
جزيرة
مغروسة باضلع المياه
واننا نوزع الحياه . .
لاخوتي الصغار موجة . .
وموجة للارض امنا . .
وللرفاق الف موجة وموجه
شفاهها لا تتعب . .

احس ان دربنا
موله بحبنا . . .
وربما احس ان الرمل سوف
يورق . . .
وانه في بعده ، على هوانا
يشفق . .
وان تموز الذي يلمنا
يبكي على آهاتنا . .
تموز عندنا حكاية تغلي على الشفاه .
تموز خصب . .
تموز حب . .
ونسغه النضال . .
فمزقي آهاتنا . .
واورقي في الرمال
يا رفيقتي . .

عدنان كيلاني — جامعة دمشق

شخصيات ميتة كما فعل سارتر . لان سارتر يعتقد ان الاخر لا نستطيع القضاء عليه لانه ميت بالفعل ، وهو خالد في عدميته ، واقف بالمرصاد . وتقديم الهاوية لشخصيات حية عكس لهذه النظرية « ففي كل مرة تزاول الانا انيتها ، تجد ذاتها جبرا حيال الاخر ، ان الانا تدرك ذاتها في ذات سواها ، عن طريق الاخر ، حينما تحتضن الام طفلها انما تحتضن ذاتها في ذاته . تحضن جسم جسمها . وهكذا حين يقبل العاشق معشوقته . »

ولكن من هو « الاخر » . . هل هو فرد قائم بذاته ؟

ان الاخر في مسرحية الهاوية ليس « ملاخي » الانسان الطيب فقط ، بل انه ايضا « عاد » .لذلك فاذا كان « الجحيم هو الاخرون » كما يقول سارتر ، فليس الاخر دائما هو الانسان المحب الطيب . انه مزيج من هذا جميعا . والحقيقة ليست صوره واحدة بيضاء او سوداء ،انها تحتوي كثيرا من الالوان .

«لكي نفهم الانسان ، يجب ان نحب الانسان » هذا هو هدف المسرحية. ولفظة « الانسان » مطلقة هكذا .. لا تفيد معنى محددا . ان الانسان انواع . ونوعية الانسان تحددها في الغالب ظروف الفرد الداخلية والخارجية . لذلك « فملاخي » هنا في مسرحية الهاوية نموذج نادر . وقد اغفل المؤلف ان يبين العلاقات البشرية والظروف التي كونت هذا النموذج للانسان الطيب المحب . اننا لا نطلب من الانسان في عصرنا ان يكون قديسا ، او ان يرفض الحياة ، كل ما نطلبه منه ان يكون عدوانيا ، ان لا يكون شعار « عاد » كن ذئبا والا اكلتك الذئاب .

ولا استطيع اخيرا الا القول بان الهاوية قد سدت فراغا كبيرا في مسرحنا العربي . وتلك اقل كلمة يمكن ان تقال فيها .

سمير تنير

حوار

هي : رأيتك بالامس

هو : لكنني رأيتك في غدنا المرتقب

هي : وماذا تريد من الغد اني اخاف غدي تائها .. محتجب
وأمس .. ألملم اطرافه وأحياه .. أ عشقه ذكريات

هو : ولكن أمس نثرت له دمي لينضر جذع الحياة

هي : وما شأننا بالحياة اذا بعدت .. ولم يبق غيري هنا

هو : ومن قال ان غدي تائه واني سأهجر أحلامنا
دعي غدنا يا حبيبة قلبي دعيه .. فلسنا غداً وحدنا
ولكنه أمل .. ذكريات وشعب سعيد وخصب ونور
وفيه حصاد الاماني فيه .. مزامير افراحنا والسرور
وفيه سيخضل عود الربيع .. ويندى جبينك مثل الزهور

***

هي : وماذا عن الغد غير الكلام .. وغير الاماني .. غير النواح
افي كل يوم تقول : غدا .. وفي كل ليل تقول : الصباح
انا الليل حتى يجيء الصباح .. انا الامس حتى يهل الغد
مللت الفراغ .. كرهت الضَياع .. سئمت وقلبي لظى يحقد
فعد ياحبيبي من الغد حتى .. أذوب ثغري في شفتيك
واطوي جناحي بين ذراعيك .. أشرب كأسي في راحتيك

هو : وما ذا عن الشعب ؟

هي : ماذنبنا ؟!

هو : أليست له كل أيامنا ؟ !

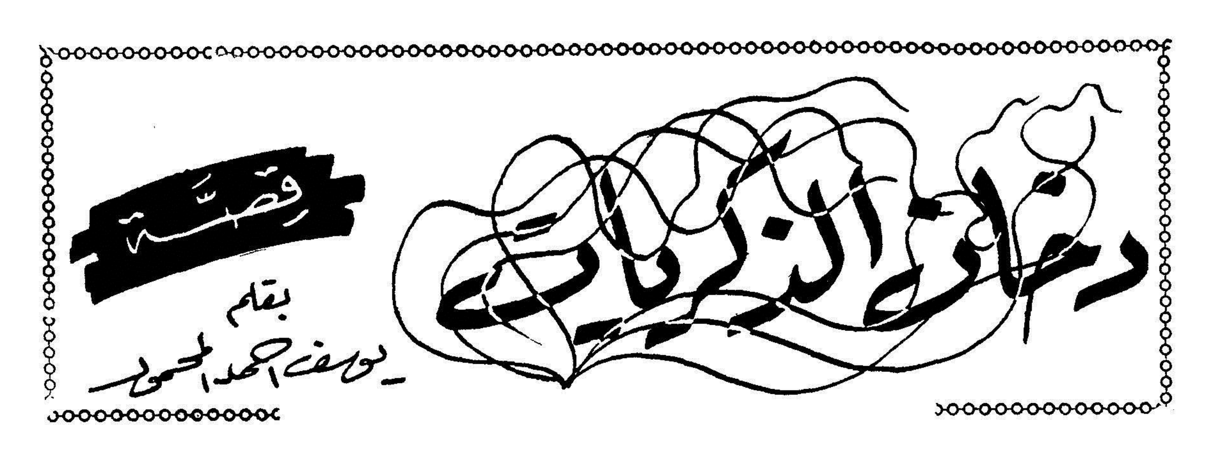
هي : وماذا عن الحب ؟ !

***

هو : ياويله بجوف الضباب .. بأرض خراب
سيورق حتى تهب الرياح فتعصف بالغصن هوج الرياح
ويذوي .. يموت كما ينتهي على الصخر في الليل زهر الاقاح
تعالي لنبني معا للغداة لنصنع تاريخنا .. مجدنا
تعالي لنروي ارض الخراب ليهدم معولنا حدبنا
تعالي لنصنع مستقبلا ونغرس في عمقه حبنا
هلمي فان الربيع غدا .. سيخضر .. يخضر في أرضنا
وتمشي مواكب اجيالنا .. ونسعد في ظل راياتنا
ونهصر كل عناقيدنا .. ونجني معا كل اشواقنا

القاهرة

عبد العزيز عبد الفتاح محمود



نظرت الي وفي ابتساماتها مالا يعلمه الشقيق الذي عرفها على قائلا :

ـ الاديب الكبير ... الشاعر ...

فقالـــت :

ـ اعرفـه

ثم التفتت الي بالباقي :

ـ كنا معا ... اظنك لم تنس ؟

ولعل فمها لم يكن كبيرا الا ليضحك هذه الضحكة الكبيرة . وكان الباص قد وصل ، فصعدا اليه ، بينما بقيت انا في مكاني انظر الـى مؤخرة الباص حينا ، والتفت الى كتفي حينا اخر ، وكان دوائر شبيهة بالدوائر التي تنبعث من الماء الذي القي فيه بحجر ، كانت تنبعث من وراء الباص وتزداد اتساعا ، حتى اتصلت بذلك الماضي الذي لو قدرته بقامتها الرشيقة وباناقة ماترتديه من ثياب وبما تحمله يداها وصدرها واذناها من حلي ... لو قدرته باهداب عينيها التي لها دقة شوك الصبار وبملامحها التي تشبه ادوات الساعة الصغيرة ، لو قدرته بهذه الاشيـاء لبدا ماضيا بعيدا كانه من اجيال سحيقة .!

ولو لم ارها مع شقيقتها .. لو لم تقل « كنا معا » لما عرفـت بانهـا قد ركبت على ظهري اكثر من مرة ، وباني قد رحت وجئت بها في ذلـك الممر الطويل بين صفين متوازيين في تلك القاعة المستطيلة بين الضحك والتصفيق ، وكلما ظننت بان العقاب قد انتهى نهرني المعلم قائلا : « ياللّه شوطـا اخر ... »

وعلى واحدة من تلك الدوائر رأيت معطفها البرتقالي ... واحسست بنعومة جنبيها اللذين لا بد لي من امساكهما لئلا تسقط، كمـا احسست ايضا باظافرها التي كانت تغرزها برقبتي التي تمسكني منها !.

كنا في الصف الثالث الابتدائي ... وكان ذلك اول عهدي بالدراسة .

كنا اربعة صفوف في تك القاعة .. وكانت هي الانثى الوحيدة في صفنا الذي لايقل عن الثلاثين تلميذا .. وكانت المدرسة كلها كانها ملكها هي ، فشقيقها الكبير رئيس الصف الخامس ، والثاني رئيس الصف الرابـع، وشقيقتها التي تصغرها رئيسة الصف الثاني ، وهي رئيسة الصف الثالث وشقيقتها الكبيرة النحيفة ذات السمرة الكالحة والانف النافر كقرن الموز في أعلى السلة ، كانت يداها تنسج صوفا مختلط الالوان ، وهي تتحدث في قاعة الصف الخامس مع اولئك الشباب الذين يرون بانفسهم طليعـة الجيل المتعلم الذي سيتقدم هذا العام لشهادة السرتفيكا التي كانت هـي قد نالتها بقسميها الافرنسي والعربي منذ سنتين ..

كانت المدرسة تتصل ببيتهم ببوابة صغيرة ، وهي والبيت ملك لمديـر المدرسة الذي يقوم عليهم مقام ابيهم الذي هاجر الى الارجنتين ، بعـد ان نقلهم الى هذه البلدة التي يكثر فيها من يناديهم « ابناء خالتي » ولم ادر مدى صحة تلك القرابة ، ولكن الذي علمته فيما بعد بان جدتهـم لامهم تمت ببعض اصولها الى هذه البلدة .. .

واشقاؤهم هم وحدهم كانوا يرتدون البناطيل القصيرة بين كل اولئك التلاميذ ، كما كنت وحدي الذي ارتدي شروالا ابيض فضفاضا طويـل الذيل ، فيما يجعلني اظهر كالكلب الابيض بين قطيع من الماعز الجبلية .

كانت تجلس في اول مقعد مع انها في الصف الثالث الذي يتأخر حتى منتصف القاعة ، وتجلس الى جانبيها ابنة الجندرمة لطفي وابنة السائق الوحيد في البلدة وهما في الصف الاول ، واذا لم تجلب ابنة الجندرمة معها شقيقتها التي لم تستطع الكلام بعد ، فان هذا المقعد يبقى لهـن وحدهن ، مع ان الصبيان يرتصون عشرة عشرة في كل مقعد ..!

وفي الوقت الذي نكون نحن فيه واقفين كصفوف الحمير امـــام مطحنة مائية في يوم ماطر ، والمعلم ابراهيم ، ينتقل من طالب الى اخـر ناظرا في اذنيه بدقة النحلة التي تتقرى الازهار في سنة مجدبة ومقلبا ثنايا الشياب حول الاعناق ، ثم ناظرا الى اظافرنا .. .ونظافة الايدي التي يتراكم عليها الحبر كاننا عمال في مصبغة الف لون ولون ... فـي هذا الوقت تكون هي واقفة بجانب الباب تضحك منا ، كما يضحك منـا رجال تلك الحارة الذين لايزاولون عملا الا المجيء مع الصباح الباكـر الى هذا المقهى الذي يقوم امام المدرسة .. وعندما ينحى منا من ينحى ويؤذن بالدخول ، تكون هي اول من يدخل .

وكان هذا المعلم يطلب اليها والى ابنة الجندرمة ، ان تقفا على المقعـد الاول ، وتنشدان « موطني » و « بلاد العرب اوطاني » و « حماة الديار » ونحن واقفون ننتظر الاشارة بالتصفيق . وبالرغم من صغرهمـا ، فقـد كان انشادهما مؤثرا جدا يملأ اكتافنا بحمى ذات نشوة حماسية مثيرة .. وصار اكثرنا ينشد هذه الاناشيد التي كانت تنشد في مدارس البـلاد لاول سنة ، ليحس فيها بنبرة الصوتين اللذين كان فيهما كل ما في البلاد من حماس لنيل استقلالها ،سواء بطريقة الثورة التي مافتئت تنشب فـي البلاد منذ دخول فرنسا ، وسواء بطريق المفاوضة التي كان يجريها وفـد البلاد في باريس .. ربما في ذلك العام بالذات ..

وهذا المعلم كان اول مايبدأ بالصف الثالث ـ ربما لانها هي فيه ـ وكان « لايسمع » لها الا بالحاح شديد طويل ... اما اصبعها فانها لاتكـاد تخفض كانها السارية التي يرفع عليها العلم في صدر المدرسة .. فهـي ترفعها في القراءة .. وفي الحساب وفي كل ماتبقى من المواد .. وانكى من هذا انها كانت ترفعها ايضا عندما يعجز احد تلاميذ الصف الرابـع عن الاجابة على اسئلة المعلم ... وكانت تعرف الجواب الصحيح ممـا يجعلها تركب على ظهر الصوان وحرتيش من ذلك الصف .. وفي الصف الثالث ، فقد كانت ترتفع على ظهر « الداعي » اكثر من مرة في التسميعة

الواحدة .. ناهيك عن ظهر الباشا الذي لاتكاد تنزل عنه حتى ترتفع اليه من جديد الى حد جعل المعلم يامره ان يسمع وهي على ظهره .!

كان ذلك اهانة قوية ، اذ لايكفي ان تحمل على الظهر .. ثم الرواح والمجيء بها بين الصفين ، وانما كانت تقال كلمات دسمة من المعلم ولكن دسمها مر ذليل ، وهذا مادفع الزميل حرتيش ، ولعل هذا اللقب ماخوذ من كثرة حركته ورشاقته في الحركات ، الى الاقتراب ، في اليوم الثاني ، من مقعد الى مقعد حتى صار وراءها مباشرة دون ان يلفت نظر المعلم .. وفي غفلة من الجميع صاح بتقزز : « قمل .. قمل .. قمل .» ثم نهض وبصق ذات اليمين والشمال ..

التفت الجميع الى حيث تعودوا ان يلتفتوا اذا ماسمعوا مثل هذه الصيحة ، التي كانت تسمع كل يوم تقريبا ، ولكنهم لم يروا يده تشير الى محمد الديب من البلدة ذاتها ، او الى اولاد ضيعة القصيبية ، ولا الينا نحن ابناء ضيعة اخرى ، وانما رأوه يشير اليها هي .. الى كتفها.

حاول المعلم ان يكذب بقوة وهو لايزال على كرسيه وراء الطاولة مما يلي الباب ، ولكن حرتيش وضع يده على القملة .. وهي تسعى لتفرز نفسها في ثنية المعطف البرتقالي الثمين .. وقال للمعلم : « تعال.. انظرها .. كحلاء مذنبة ..! »

وقبل ان توجه هي اي اتهام .. وقبل ان تدافع ، اندفعت في البكاء.. فقام شقيقها من الصف الرابع .. وجاء الاخر من الصف الخامس ، وكادت تأتي الام ايضا من البيت .. وربما كانت قد اتت .. فقد اخرجنا نحن من القاعة ، لنسمع صراخ الزميل بعد فترة ، ثم رأيناه يخرج من الباب حبوا على يديه وركبتيه وقدماه مرتفعتان الى الاعلى كساقي بعض الجنادب ، ولكن لسانه منطلق باتهامات جريئة شنيعة .. ويتهدد المعلم في القريب العاجل .. ثم اطلقت الصفارة بغضب .. وبعد ان وقفنا في الصفوف قال المعلم بان حرتيش استحق هذا العقاب لانه نقل القملة اليها من تلميذ اخر .. ثم قال : « كل تلميذ يوجد عليه قملة بعد اليوم فهو مطرود من المدرسة طردا نهائيا .. فكونوا على حذر ! »

كان لنا - ابن خالتي وانا - نصيب وافر منها هي بالذات ... فقد كانت المدرسة تترك مفتوحة لنا في الظهيرة لنتناول طعام الغداء الذي كنا نحمله في الكيس المربع المفتوح من الاعلى ، مع الدفاتر مع مااعطيناه من كتب ، ونعلقه بالكتف ، او اذا كان الهواء شرقيا جعلناه بعد العنق مما يلي الكتف الثانية .. ثم نضعه في « درج » المقعد الى ان ينصرف التلاميذ فنخرج ارغفة الشعير السمراء التي يرسم فيها القش خطوطا كملامح النورية الجذابة ... ومن فوقها الادام الذي اكثر مايكون زبدة لاتخلو من صلابة .. وكانت اول مرة تخرج فيها من البوابة فوقفت لحظة كالفارة التي ترى صاحب البيت .. وكانت تاكل شيئا ما .. التفتنا اليها ، ولكنها رجعت واغلقت البوابة .. ولا ندري ان كانت قد سمعت دعوتنا لها لمشاركتنا ذلك الطعام .. ام ان صوت اغلاق البوابة السريع كان اعلى من اصواتنا .!

وفي بعض الايام كنا نتقاسم الطعام مع اولئك الذين يحرمون من الغداء ويبقون تحت حراستنا .. وفي ذات الوقت نمنع ادخال الطعام الذي تأتي به امهاتهم خوفا من المعلم .. ولكن هذا لم يمنع بعضا منهم في احد الايام ، وكانوا حوالي الستة ، ان يكمنوا لنا في طريق العودة ويفاجئونا برشق الحجارة وهم يقولون : « يافلاحين .. يااولاد الفلاحين انتم تأتون من الضيعة لتقفوا علينا حراسا .. ثم لتطعمونا خبز الشعير طعام الحمير .. كلوها .! »

وجاءت مرة ثانية .. اقتربت اكثر واكثر حتى وضعت يدها على المقعد الذي ناكل عليه ، ولكنها لم تقبل لقمة بالرغم من اننا غمسناها بالزبدة جيدا .. وبالرغم من ان عينيها كانتا ثابتتين بشدة على ما أمامنا ..

ظنناها ذهبت كالعادة .. ولكنها مالبثت ان رجعت وقالت :

- ماهذا الذي تاكلونه ؟
- محشيات بالقريشة البصل السمن !
- هل هو طيب ؟

وفتحت عينيها كالمريض الذي تجرع علاجا مريحا .. وعادت تقول :

- ومن اين تشترونه ؟
- اننا نصنعه في البيت ولا نشتريه ..!
- ساخذ لقمة لجدتي .. فانها تحبه ...

ثم لم تلبث ان عادت ضاحكة ... وقالت لي :

- هذا اخوك ؟
- ابن خالتي .
- ولكن اسم ابيه كاسم ابيك تماما وهو اسمر مثلك ... واحيانا شرواله ابيض مثل شروالك .. ثم طعامك مثل طعامه .!
- كلانا نشرب من ماء واحد ...

ولكن الرباط المباشر مالبث ان انفصم .. فقد نقلت الى الصف الرابع نظرا لكبر سني خسر ظهري هذا الراكب الخاص .. وصار وقت الغداء هو كل ما انتظره لا لاكل وحسب ، وانما لتأتي الينا هي .. وكانت تنقل الينا اعجاب امها وجدتها بلذة طعامنا ونظافته .. وتقول ، بل لعلها تردد ماتقوله الام والجدة : « كيف يقولون بان الفلاحين لايجيدون صنع الطعام !. »

وتوقفت افواهنا ذات مرة .. اذ جاءت الام بالذات ، وكان غداؤنا يومئذ لحما مسلوقا ونقانق ... فقالت :

- هذا اللحم طيب .. هل تاخذونه من السوق ؟
- لا ... امس كان عاشوراء ..
- ها ... هل انتم اولاد مشايخ ؟
- ....
- الا يحسبان ؟

واجبت انا :

- بلى ..! ان لدى زوج خالتي « حكمة »
- ويكتب حجابات ؟
- نعم ...
- هل ياتي الى هذه البلدة ؟
- انه في الفراش ... مقعد ..

وفي اليوم الثالث ارسلت اليه ردا على الحجاب الذي جئناها به شيئا من حلوى لانعرف اسمها وقد اكلنا اكثر من نصفها في الطريق ..

كان مدير المدرسة في بعض الايام يرجع قريبا من خروج الطلاب .. وجهه احمر وملامحه زاخرة باشياء كثيرة مختلفة ، ان كان كل شيء يعطي لونا خاصا في وجهه الذي يكون في ذلك الحين مائلا الى الغضب ... ولست ادري لماذا كنا نخرج اثر دخوله ونحمل ماتبقى من الطعام .. ومعظم الطلاب كانوا يرجعون وهم لايزالون ينهشون الطعام ليشاركوا بلعب الكرة الصغيرة الوحيدة التي كان يملكها شقيقها الثاني .. ولكنه لايسمح باللعب الا للذين يرضى عنهم .. او يدفعون مقابلا من الحمص او مايشابه.

اشتركت لاول مرة باللعب .. ظننت ان اللعب بالكرة كاللعب بالتكروعة

على بيادر الضيعة ... لايحتاج الا الى عصا .. ثم ضرب التكروعة الحجرية المكورة كمع البيض .. ثم اطلاق الساقين للريح.. وكان لنا قوة الموج .. فاذا ماسقط واحد سقط فوقه الاخرون كعربات القطار الذي يخرج عن الخط الحديدي ...

وكنت اخر من نهض لاني كنت اول من سقط ، ولم انظر الى ماوقعت عليه ، بل نظرت الى الاعلى لارى في اي جهة صارت الكرة ... ولكن عيني جمدت ... جمدت .. جمدت على رجل يقف على حافة الرصيف المرتفع الذي يمتد امام المقهى وكانه تمثال الحرية في امريكا او كولومبوس وهو يشير الى البلاد التي اكتشفها ... مسكني بقوة عينيه وبشاربيه الكثيفين .. وكرشه من امامه كانه بلكون مستدير في بناية من الهندسة الحديثة .. واخيرا تحركت شفتاه .. قال : « ولك مع من تلعب .. هؤلاء مثل اولادك ! »

عندئذ نظرت الى الخشبات اللواتي نصبن في طرف الباحة على مسافة متر من الحافة التي وقف عليها ... ويمتد عليهن اسلاك شائكة لتحمي البصل المغروس داخلهن .. وكن قد سقطن جميعا لان وقوعي كان على افواهن ارتكازا في الارض .!

اعتبرت هذا بيني وبينه .. ولكن ماجرى بعدئذ كان اشد ايلاما ..

كان بعد الظهر .. وقد نقل الصف الرابع الى قاعة الصف الخامس التي ترتبط مع الاولى ببوابة داخلية .. وتشاء الصدف ان لايجيد الصفان تسميع الدرس الفرنسي الذي يختص فيه المدير .. فما كان منه الا ان فتح الباب الخارجي ...وامرنا ان ياخذ كل واحد بيد رفيقه ويحني ظهره قليلا ليشبه الحمار .. ثم يدعو ذلك الرفيق : « تشو .. تشو .. تشو ... »

خرجنا في سلسلة الى الباحة ... ثم دخلنا القاعة الكبيرة .. لندور في الممر بنفس الكيفية .. ونردد نفس الكلمات ..

انفجرت العاصفة في القاعة .. ولم يكن ضحك الاطفال في ارجلهم ، كما يقول احد علماء النفس ، وحسب .. .وانما كان في كل شيء ، بايديهم .. بافواههم ، وبالمقاعد ايضا ...

وكنا نحن نضحك ... وازداد الضحك ، فقد امر المدير بذلك ... ثم طلب الى كل واحد منا ان يخبر بصوت مرتفع لماذا استحق ان يمسخ حمارا ..!

ومن مزايا الحمير ان تحفظ طريق العودة مهما كان خطرا ... وكان الخطر في رواد المقهى وصاحب المقهى .. اذ خرجوا جميعا الى حافة الرصيف .. وصدورهم تكاد تنشق من الضحك .. وكان تمثال الحرية يقول بصوته الجهوري : « ولك هنا اصطبل او خان ؟! »

كنت في اخر القافلة .. راسي منخفض .. ولكنني سمعته يقول : جلالك الابيض مائل يابتاع كفر شاغر .. شو ما في حد يمسك بدنبك .. ما في حد من ضيعتكم بالطاحون !

وكانت كل امراة واردة الى العين التي تتدفق في طرف الباحة الجنوبي.. او كل امراة راجعة في الباحة التي هي طريق في نفس الوقت .. كانت تضحك .. وكانت امراة قصيرة .. ثيابها نظيفة وفي صوتها خفة ساحرة .. كانت تقترب وتقول لي ايضا : « لاخفف الله عنك .. ألم تقنع حتى جئت الى المدرسة وصرت حمارا .! » كانت زوجة الرجل الذي انفقت عنده ثلاثة اشهر لتعلم الكندرجية .. ثم هربت منه الى المدرسة بالرغم من تهديده بانه سيحمل مدير المدرسة الذي يمت اليه بقربى نسائية على طردي ، وتارة يغريني بان يترك لي اجرة الاحذية التي اقوم بترقيعها ..!

ولكن هذا لم يكن الا الفصل الضاحك في المسرحية . اذ لم يكد ياخذ بنا الجلوس حتى تناول المدير قضيب الرمان الذي جاء به وهيب من بستانهم القريب واخذ يدعو كل واحد .. فيقف امامه يصرف « فرب افوار » .

وكان التلميذ اول ماينظر الى القضيب .. والى وجه المدير الذي يبدو كالمدفاة الكهربائية المتوهجة .. ثم لايعود يتجاوز « فوزافي » .

صار الاخرون لا ينتظرون ان يسالوا .. بل يخلعون احذيتهم ويركعون على المنبر الذي تقوم عليه الطاولة والمدير ... كانوا يبكون سلفا ..فالمثل يقول : « لم تمت .. ولكن ألم تر من مات . » .. وكانوا يتفرعون ... ولكن ذلك لايزيدهم الا ضربا ولا يزيد الضرب الا شدة ..!

وكانت المتناقضات ... فهؤلاء الذين يبكون ما ان يخرجوا من تحت الفلقة وياخذوا مكانهم ، حتى يخفوا رؤوسهم ويضحكوا .. ومن يستطيع ان لا يضحك من وهيب الذي كان يأكل حصته بالبقية الباقية من القضيب لانه كان لا ياتي الا بقضيب واحد في المرة الواحدة !

اخذ الضرب يخف بعد التلميذ الخامس عشر .. ربما لتعب المدير وربما لشفاء غيظه الذي كثيرا ما كان يرجع به بعد ظهر كل يوم كانه يغضب في البيت وينتقم من التلاميذ في المدرسة !.

وقطعت المسافة كلها ... ما يزيد على النصف ساعة ، من المدرسة الى الضيعة ، وانا اعيد لابن خالتي اعجوبة نجاتي من الضرب .. وكما كنت اخر حمار في القافلة، فقد كنت اخر تلميذ يسالني وهو يرفع المسطرة : « كس كسا » ؟ .. واصابت رمية غير الرامي !

* * *

بقيت الطريق لي وحدي .. فابن خالتي ترك المدرسة ليساعد اهله في الاعمال الزراعية التي تكثر بمطلع الربيع .. وكذلك هي بقيت لي وحدي ... صارت من حين لاخر تاتي بنصيبها من الطعام ... وتضعه بجانب طعامي ، فاتناول منه ، طيبا او غير طيب ، اذ كان ابي في بعض احاديثه يوجب معرفة مصدر الطعام ، ولكنها هي تصر على ان تنفرد بطعامي ..

مرة بعد مرة صارت تسالني عن الضيعة .. فاصف لها الجدايا والحملان والعجول وسقي البقرة من العين .. ثم الحمام الذي نملك منه خمسين زوجا والعصافير التي تبني اعشاشها في السنديانة الكبيرة التي تظلل البيت .. كانت تقف عن الطعام فترات .. وتقول : « يا ابت انا مثل هذا .. فهل تأخذني معك فالعب بالجدايا .. واركض وراء العجلة .. وآتي بزوج حمام ؟ »

كان الربيع في ريعانه ... واذا كانت تلك المنطقة تحمد لشيء فهو هذه الخضرة التي تكسو كل مكان ، وتلك الازهار التي تتخلل الخضرة حتى لكان نسيجا ساحرا انتشر على السفوح والاودية والجبال .. وانعكست خضرته وازهاره على السماء ..

وعرفت التجارة لاول مرة .. شاهدت التلاميذ يعلقون خيطا في حشرة كنت اعرفها باسم « الزمقاع » .. وكانوا يدعونها بالزيز .. ثم يدورون الزيز من طرف الخيط ، فتحدث دائرة ذات اطياف ذهبية ، ويتصاعد منها نغم شجي كالناعورة الصغيرة التي تبث اغاني الحياة في المياه التي ترفعها الى البساتين .. وفي اليوم الثاني اندفعت الى حومة من الصبيان ، كل يريد ان ياخذ زيزا قبل النفاد .. ولكن شقيقها قال بما يشبه الاسف الساخر : « ليس هذا النوع الذي نريد .. هذا

زيز خشبي.. انما مثل هذا!!» وفتح علبة صغيرة مزخرفة كعلبة التواليت واخرج زيزا يكاد يكون متساوي الابعاد قد رصع جناحاه ورأسه بالذهب ... الذهب الطبيعي الحي .. ذهب الربيع ... ذهب السماء الذي يطير وليس بذهب الارض القابع في التراب !

ولكن هذا لم يمنع ان ابيع الزيز الخشبي بثلاث ورقات بيضاء وللكتابة .. ثم ارتفع السعر الى الخمس وبعدئذ الى العشر .. وصار همي اذا ما انصرفت من المدرسة ان اذهب الى أشجار السماق لاصطاد هذا النوع من الزيز الخشبي ، لان النوع الذهبي لا يوجد الا نادرا كالذهب ... وكان لا يباع ، الا بنقود قد تصل بالمنافسة الى الليرة ..

وفي الصباح كنت اترك السير على الطريق لافتش بين الزرع الغض عن حشائش الضرميطة والحلباء وقرون الجدي والزقاق .. وهذه كانت لها حدها ... ادفعها اليها في الظهيرة وقد اصابها شيء من الذبول الذي يزيدها لذة ويزيد رائحتها انتشارا .. ولم تعد تأخذ لامها او لجدتها شيئا .. صارت تأكل كل شيء امامي وتتساءل عن كيفية زرع هذه الاشياء التي لم ترها في حياتها قط .. ولم تذق اطيب منها طعما ورائحة !

رأيتها تمتليء بالاخيلة الحارة ، وبدأت تفيض بالحب للمجهول .. لتلك الضيعة التي تنبت ارضها مثل هذه الاشياء الطيبة .. ونفرت ملامحها لاول مرة ، كأنها اصيبت بالاختناق ، وهي لا تستطيع ان تتخيل اعشاش العصافير التي تبني في السنديانة ، فتقول : « كيف يعلق القش على الغصون .. الا يسقطها الهواء بما فيها من بيض او فراخ ! » وعندما قلت لها بأن شكل العش كفنجان الشاي ، لم يظهر عليها انها فهمت ذلك، او صدقت ان تتمكن العصفورة من صنع هذه الكتلة المتماسكة ... واشتدت الدهشةاذ علمت بأن العش يبني بمنقار العصفور ... فقالت : « العصفورة تبني عشها بفمها .. ولكن الانسان لا يستعمل فمه الا للطعام ..! »

ضايقتها هذه الاخيلة ، فيما يظهر .. وكانت وراء البلدة مما يلي الشرق .. فقالت : « أين هي ضيعتكم ؟ » وهبطت عيناها وراء يدي التي تشير الى الطريق الملتوية على سفح الجبل الذي نقف عليه ، حتى اذا ما بلغت قرارة الوادي ، تصاعدت بالتواء اشد من الاول ... والتفتت الي تسأل بلهجة كان بها بعض التعب: « هناك .. هناك انتم .. كيف نستطيع الوصول الى الجبل .. ان السماء ، كما يبدو ، ترتكز عليه ! »

✶ ❋ ✶

كانت اول مرة اشعر فيها بالحياة .. فقد دعيت الى عيد النيروز كما يدعى في اصله الفارسي ، وعيد الرابع ، كما يدعى في الضيعة .. ولم اكن هذه المدة بين الصبيان كالعادة ، حاملا الملعقة الخشبية بانتظار البرغل المطبوخ باللحم ، والمروى بالسمن المذاب بالقشم والمرفق باللبن ، وانما ادخلت الى حيث يجلس الرجال .. وما كدت افرغ من تقبيل ايدي المشائخ منهم ، واجلس على كرسي ، حتى دفعت الي الجريدة التي تأتي باسم ابي ، وتدفع الضيعة كلها بدل اشتراكها باتفاق عقدها المتنفذ الذي كان يرافق صاحب الجريدة ذات الصبغة العشائرية .. كان الجميع ينظرون نحوي بابتسامة زادتني ارتباكا .. اذ ما عسى ان يكون في الجريدة هذه المرة ، بل ما هي الدوافع التي جعلتهم يطلبون الي القراءة ، وكنت فيما مضى احملها الى معظم البيوت ، ولكن احدا لا يصغي لما اقرأ ؟

لعل نظري يضعف عندما ارتبك .. فقلبت الصفحة الثانية .. ولكن شخصا قال : « اقرأ لنا مظاهرتكم .. في الصفحة الاولى .. »

حروف كبيرة لامعة .. في خطوط طويلة : « مظاهرة صاخبة في الدربكيش ! .. » طلاب المدرسة يحملون العلم السوري يهتفون بحياة الوطن ويندوون بموقف فرنسا ! » « اجراءات مشددة تتخذ بحق مدير المدرسة »

وانطلقت الجريدة تصف مظاهرة الاحتجاج على فرنسا التي كانت قد وعدت باستقلال البلاد مرة بعد مرة .. ثم نكثت في كل مرة بعد مفاوضات طويلة ... وعينت هذه المرة غابرييل بيو الذي رجع بالبلاد الى ما كانت عليه سابقا .. وابعد الوطنيون من الحكم بعد ان كانوا قد تسلموا شيئا منه .. ثم اشارت الى الاجتماع في جامع البلدة .. والى الكلمات الحماسية التي القيت على المتظاهرين ..

انتهت القراءة التي استغرقت بعض الصفحة الاولى وبعض الرابعة .. ولكن الحاضرين خاضوا بمناقشات فائرة .. بعض يقول : « هل تستطيع سوريا التي لا تملك خرطوشة واحدة ، ان تحارب فرنسا صاحبة الجيوش والطائرات والفواصات ؟ » وبعض اخر يقول : « فرنسا ! لولا الخيانة ، لكان الشيخ صالح العلي رماها بالبحر .. أرضنا جبال ، الحجرة فيها افضل من البارودة .. ولكن الله يلعن الخيانة ! » والذين كانوا قد قضوا شطرا من حياتهم هجرة في الارجنتين .. كانوا يقولون للذين لا يرون نفعا للمظاهرات وصراخ تلاميذ المدارس في الشوارع : انتم لم تروا بلاد العالم .. المظاهرات تقلب الدولة !.. »

وفي اليوم التالي رجعت وانا اتناول « زوادتي ، لقمة وراء لقمة .. لم اكن جائعا ولكنني عندما اغضب اريد تمزيق اي شيء.. كانت هي التي اخبرتني .. كانت على السطح فدنت من طرفه مما يلي الطريق وقالت بأن المدرسة قد اغلقت الى اجل غير معلوم .. وان تحريات واسعة جارية لمعرفة الذين خرجوا بالمظاهرة .. وقادوها بخاصة الذين كانوا يهتفون بسقوط فرنسا .. ولا بد ان يرد اسمها في القائمة فهي البنت الوحيدة التي كانت في المظاهرة .. ثم اضافت بهمس بأن المدير قد اخذ من داره في الليل .. وربما لا يعود ..

وصلت البيت وانا لا اشعر بالطريق .. فقد كنت اسمع الاناشيد والهتافات .. وارى حسنا واسكندر اكبر التلاميذ سنا يخرجان العلم الكبير من المدرسة ويجريان ومن ورائهما التلاميذ في الشارع ، والمدير واقف بالباب يتصنع مناداة حاملي العلم وتهديدهما ان لم يرجعا ... كنت افكر بيوم تان امشي فيه تحت رفيف العلم اردد الهتافات بحياة الوطن وبسقوط فرنسا .. واجد من السلطة ما يمكنني من اغلاق دكاكين البلدة حتى دكان الذي علمني صنع الاحذية .. واهل البلدة ومن يلم بالبلدة من القرى المجاورة يمشون من ورائنا وعن يميننا وشمالنا كما تمشي الام وراء طفلها في اول مشيه .. وامام عيني تلك الشريطةالحمراء التي تخفق في رأسها هي .. في ذلك الشعر الاشقر الفاهي !

✶ ❋ ✶

تغير مكان المدرسة .. الاناشيد الوطنية لم تعد تفتتح الدروس كما كانت في السنة الماضية ، زادت حصص اللغة الفرنسية .. وظهرت رعدة قوية في الاكتاف لعلها هي التي كانت تحرك التلاميذ في هذه الباحة الجديدة ، كان يوسف الدرويش في اولهم والاخرون يدورون وراءه كالامواج الصغيرة الحائرة امام ذلك القسم الملحق بالبناء الكبير الذي كانت فرنسا قد جعلت منه مدرسة اعدادية واكمالية اثناء احتلالها للبلاد .. ثم اهملتها عندما لم ترها تخدم اغراضها .. ثم حولت الملحق

الى مخفر للجندرمه ومدير الناحية .. وحولت البناء الكبير الى مدرسة ابتدائية في الطابق الاول .. والطابق الثاني نزلت فيه عائلة مدير الناحية والطابق الثالث ظل للشمس والهواء والسنونو والدوري ... وكان احمد كوي الذي يقوم بالعناية على خيل الجندرمه .. كان هذه المرة واقفا على سلم قصير ويمر بفرشاة صغيرة على زجاج الشبابيك الطويلة ، فيحيلها زرقاء غامقة بعض الشيء.. اما الامواج الصغيرة الحائرة كانت تهدر بصوت واحد وهي لا تزال تدور وراء بعضها بعض.. اصوات فيها طرب الصبيان الذين يهزجون للمطر الاول مهما كان عاصفا وقويا .. الصبيان الذين يهزجون وان كان سيل المطر الى ما تحت ركبهم .. كانوا يهزجون هذه المرة : « الحرب .. الحرب .. جاءت الحرب »

ولما اخبرت ابي في المساء بأن زوبعة هبت في باحة المدرسة .. وحملت ورقة كبيرة .. فراحت بها في الفضاء مرتفعة هنا ومنخفضة هناك ، وبقينا نتابعها بانظارنا عبر الوادي العريض ، حتى رأيناها تختفي فوق جبل الشيخ موسى في الناحية الاخرى من الوادي قال : « الله يستر – هذه ظاهرة غريبة .. المشتري يقترب من المريخ .. الله اعلم حرب !.. »

كنا لا نزال في الكلام .. اذ رفعنا رؤوسنا الى مختار الضيعة الذي دخل وقال : « امسكو حماماتكم .. مدير الناحية نبه على كل المخاتير بذبح الحمام – والذي توجد لديه حمامة واحدة لا يلوم الا نفسه ... التنبيهات شديدة .. الحرب وقعت ! »

واستمرت السهرة ... كان في بيتنا معظم اهل الضيعة .. وكان الشبان يضحكون من الحوادث التي اخذ يعيدها الرجال الكبار عن الحرب العالمية الاولى .. والامهات تعقب على ذلك قائلة : « اضحكوا ... ليس السماع كالعيان .. وحياة ذقون اباتكم ايام الحرب صعبة .. الله يذكرها ولا يعيدها ! .»

* * *

راحت ايام المدرسة ! سنة وراء سنة تمر كان ايامها مسامير حادة طويلة تنفذ من كل عضو من الجسم ... ويداي : واحدة مرفوعة فوق رأسي لا ادري لتحميه من شظايا القنابل التي نتوقعها في كل لحظة من الليل والنهار .. ويد ثانية احك بها جسمي واود لو ان لي عشرين يدا اخرى لتشبع شراهيته حكا .. تلك الشراهة التي كانت تفوق شراهتي انا للطعام الذي لم اعد اصيب منه الا حظا قليلا رديئا لا يكفي لتغذيه طفل صغير ، ولكن الجرب يزداد شراهة كلما زدته حكا .. كنت اشعر به يريد ان ياكل اعضائي .. كانه هو حيوان جائع ، وكنت اشعر بان شدة الحك وسرعته هي الوسيلة الوحيدة لتخليص اعضائي منه .. وهو نفسه كانه حرب شنت في كل جسد .. حرب بدأت في السنة الثانية لتلك الحرب التي بدأت سريعة كهذا الجرب ، ثم اخذت تتباطأ كأنها تخضع البلدان التي احتلتها اولا ، كما تباطأ ذلك الجرب ليمضغ بتأن ثقيل الاجساد التي احتلها بسرعة !..

لم أعد اسأل عن شيء .. فالحكومة تحتكر حتى الحرير الطبيعي الذي ما زال العنصر الاساسي في حياتنا الاقتصادية ، نحن ابناء هذه المنطقة القريبة من شاطيء البحر .. والحبوب التي ننتجها لا نملك حق الشبع منها ، فانها تقدر في الحقول ثم تقدر ثانية على البيادر ويوضع عليها الحراس .. واذا ما ذهبنا بشيء منها الى الطاحون ، فلا نستطيع ذلك الا بالحصول على بطاقة حمراء من الدولة يذكر فيها الكمية ونوع الحبوب والدابة التي تحمل عليها ، ثم ساعة التحرك من البيت واسم الطاحون التي يذهب اليها .. والا فيؤخذ الحمار الذي يحمل الحب بما عليه ويؤخذ صاحبه ايضا ..

والحمام الذي كان يطير في الفضاء ويلتقط الغذاء من الحقول ... ويحوله الى افراخ ، لم يعد يظهر في الفضاء.. وهو الاخر قد نقص الى اقل عدد لا يزيد على حفظ النوع .. هو الاخر منهم بالهاء الحمام الزاجل الذي تكلفه الدولة بنقل البريد العسكري السري !..

* * *

كانت نفسي خالية من الماضي كله .. البلدة هي نفس البلدة ... بضعة شبان يسيرون في اخر الشارع الذي يعتبر للبلدة بمثابة المصران الاعور .. كانوا من الذين اعرفهم .. واحد منهم فقط يميل الى الطول غير المنتظم .. وفيه نحافة مرتخية ، قدمت اليه كشاعر .. وقدم الى كسائق سيارة .. التفت اليه بقوة .. لا شيء فيه من ذلك المخطط الذي كان مخطط عظمة لشخصية فذة.. حتى الشامة الساحرة التي كانت في طرف شفته العليا ، بدت جافة صغيرة كانها احدى الطفيليات على برتقالة صغيرة هزيلة ... وعيناه مملوءتان بالنظرات التي تحمل معنى الخسارة فوق كثير من المعاني .. اهذا هو الذي كان رئيس الصف الرابع هذا هو الذي كان يضربني ذات مرة ، مع صغر سنه ، في باحة المدرسة... فاضطررت انا الى السكوت .. وهو يعيرني باني فلاح .. وكبير السن وحمار في الصف لا تكاد شقيقته تنزل عن ظهري ..!

وانصرف الي دون الشبان الاخرين .. لم يدعني اسأله عن شيء.. لا يزال شديد الذكاء كانه ادرك كل ما سأسأله عنه .. فالاب الذي سافر الى المهجر ليبقى بضع سنوات .. مات اثناء الحرب .. وطالت الهجرة الى الابد .. والجدة ماتت في طرابلس .. والشقيقة الكبيرة التي كانت تنسج الصوف ماتت في الولادة ايضا .. والشقيق الذي كان رئيس الصف الخامس ، هاجر الى البرازيل بعد ان امضى ثلاث سنوات في جيوش الحلفاء.. وكأني اشفقت من شيء فسألته :

– وسلمى ؟

ستتقدم هذا العام لامتحان البكالوريا فرع الفلسفة .

طلب شيئا من شعري ، فانه شغوف بالمطالعة كما قال .. ولم اكن احمل شيئا من ذلك الشعر لا في ذاكرتي ولا في جيوبي ، لاني اخاف من السخف الذي يصاب به بعض الشعراء فيقرأون شعرهم في غير مناسبة ، ولكن احد اولئك ، وكنا قد صرنا قريبين من بيته ، احضر مجلة تهرأت من كثرة التداول ..ووضعيينه على عنوان بحرف كبير « من روائع شعر الجلاء !. »

كانت القصيدة قد القيت في اول مهرجان لجلاء فرنسا عن

البلاد .. فرنسا الدولة ذات الجيوش والطائرات والغواصات قد اجليت عن سوريا التي كانت تقاوم بصدور ابنائها تلك الالات الجهنمية .. فرنسا التي قطعت المفاوضات .. والغت معاهدة الاستقلال التي احتفظت لها ببعض القواعد العسكرية وببعض الشروط الاقتصادية والثقافية في سوريا .. ست سنوات فقط من تاريخ الالغاء كانت فرنسا تجلو بلا قيد ولا شرط .. والبلاد التي كانت فرنسا تحظر كل شيء على اهلها.. صارت البلاد - صار اهلها - يحظرون على فرنسا حتى مجرد التفكير بشيء فيها !..

* * *

سنة بعد سنة تبدلت المصاعب ... كبرت المشاكل كما كبرت أنا ،ولكن مشكلة صغيرة كانت دائما وابدا تريد ان تجعلني صغيرا .. صرت في الجامعة .. وكانت الجامعة في مخيلتي وفيما أقرأه عالما خاصا لبناء الشخصية التي يفكر فيها الانسان .. كنت أعتقدها التحرر من كثير مما تحفل به الدراسة السابقة ، ولكن التصريف اللعين برز لي في وجه جديد وفي لغة قديمة - لغة الامبراطورية الرومانية .. ولم يكن من فرق بيني يوم كنت اصرف الفعل « ضرب » العربي وفرب افوار الفرنسي.. ثم فرب توبي الانجليزي وبيني الان بتصريف الافعال في اللاتينية ، الا انني في الجامعة استطيع ان اقول للاستاذ « اكسكيوزمي » دون ان اخاف ان تركب الزميلة ناديا التي ترفع اصبعها كما كانت سلمى ترفع اصبعها في الصف الثالث الابتدائي ، ان تركب على ظهري وادور بها في القاعة، وان كانت سنوات الرسوب التي تراكمت على ظهري اثقل من ناديا فيما لو ركبت عليه !

واشد ما تكون الذكرى الحاحا ، عندما يقف الانسان في الطريق التي يأخذ على نفسها شقها ، يقف كالشيخ الذي بلغ من العمر عتيا ولا يعود يبصر الا ما وراءه .. كنت استعيد هذه الذكريات مع فتاة من البلدة .. كانت تضحك مني .. من ذكرياتي من الجانب الذي استعيدها منه .. الجانب الذي لا يظهر الا الدخان فوق النار التي تحترق ببطء في حطب اخضر او مبتل بالماء.. واشارت بيدها ان اقف لتوفي كل جملة حقها من الضحك ، كما كانت تقول ... ولكنها هذه المرة اوقفتني لشيء اخر .. اوقفتني لتقول: « على ذكر سلمى .. دعني اخبرك شيئا عنها ... ارايت عندما دخلت المرة الماضية ، فقامت ثلاث فتيات كن عندي.. كانت سلمى احداهن .. ولما اخبرتها بعدئذ بانك انت الذي دخلت ، اسفت لخروجها .. احقا كنتما معا في المدرسة ..؟ كنت انا لم اولد بعد .. انها تحفظ بعض قصائدك .. وقد دفعت اليها ببعض اعداد المجلة التي تنشر فيها من شعرك .. ضحكت كثيرا لهذه الروح الساخرة وشبهتك ببعض الشعراء الفرنسيين... لا تزال هي ترسب في البكالوريا .. الحب والدراسة لا يجتمعان ، انهما الماء والنار في يد واحدة .. هي تدعي بانها صارت مدرسة .. كذابة .. غليظة .. فمها كبير والمرأة كثيرة الكلام مع ان افواه الكثيرات منهن صغيرة .. مسكينة ماتت امها .. اختها الصغيرة تزوجت قبلها .. هي تقول بانها تخطب كل يوم .. ولكن هكذا تحلم .. دعاية تغطية للاوراق !»

* * *

كنت الوك اخر لقمة من تلك الكعكة المنتفخة في ثلاثة ارباعها والدقيقة في الربع الباقي كذلك النوع من الاقراط النسائية .. لم اكن انتظر الباص في هذا الموقف لاذهب الى مكان معين.. كنت التفت كالجمل الذي اضاع رفاقه .. بلعت اللقمة لاخفيها ، ولكن شيئا من الخنة بقي في صوتي وانا ارد على هذا الذي اخذ يستقصي بالسلام بلهجة لبنانية ساحرة .. وكان في ردي من الحرارة ما يخفي جهلي بمعرفته .. وهي الحالة التي اضطررت اليها بعدما لم اعد اعرف شخصا انقطع عني مدة مهما كان موقعه مني.. والتفت الشاب الى جانبه قائلا :

- اختي سلمى .

ثم حول يده نحوي معرفا :

- الاديب الكبير .. الشاعر

فقالت بابتسامة اكبر من فمها :

- اعرفه ...

والتفت الي بالباقي :

- كنا معا .. اظنك لم تنس ؟

تذكر ظهري قبل ان يتذكر رأسي..! كان الذكرى تنبعث من حيث يتألم الانسان ...

سلمى .. ارتفعت نظراتي من حيث تقف قدماها على الرصيف.. الى الشعر الذي لم يعد اشقر فاهيا .. وقد اختفت الشريطة الحمراء.. انها طويلة ممشوقة كانها السارية التي حملنا عليها العلم في اليوم الذي برز في هذه الذكرى .. وجاء الباص فصعدا فيه .. وبقيت واقفا افرك عيني كانما مر بهما دخان حاد ، دخان الذكريات المبتلة بالالم البطيء الاحتراق !..

دمشق **يوسف احمد المحمود**

«من جمعية الادباء العرب»

مُناقشَاتٌ

((فرعون ومحمد)) ..

بقلم ابراهيم ونوس

.. في كتاب الجغرافيا للصف السادس الابتدائي الذي يدرس في مدارس الجمهورية العربية المتحدة . الاقليم السوري الصفحة ٢٥ فصل جاء فيه عند التكلم عن صفات العرب ما يلي : ((وقد انشأوا الحضارات الزاهرة في اليمن ، ووادي الرافدين ، ووادي النيل ، وعلى شواطيء البحر الابيض المتوسط)) أما في كتاب الجغرافيا الذي كان مقررا في العام الماضي فقد جاء فيه عند التكلم عن الحضارة العربية صفحه ٧ : كما يلي: ((فكان منهم البابليون بين النهرين ، والفينيقيون على شواطيء بلاد الشام والمغرب ، والفراعنة والاقباط في حوض النيل ، وكل من سماهم الاجانب الساميين ، وليسوا في الحقيقة الا عربا)) .

هذا ما يعرفه طلاب العرب في المدارس الابتدائية ، ثم نرى بعد ذلك من يكتب عن فرعون والفراعنة ، وكأنهم ليسوا من العرب وليسوا من الهيكسوس الذين وصلوا وادي النيل عبر البحر الاحمر وسيناء من شبه جزيرة العرب .

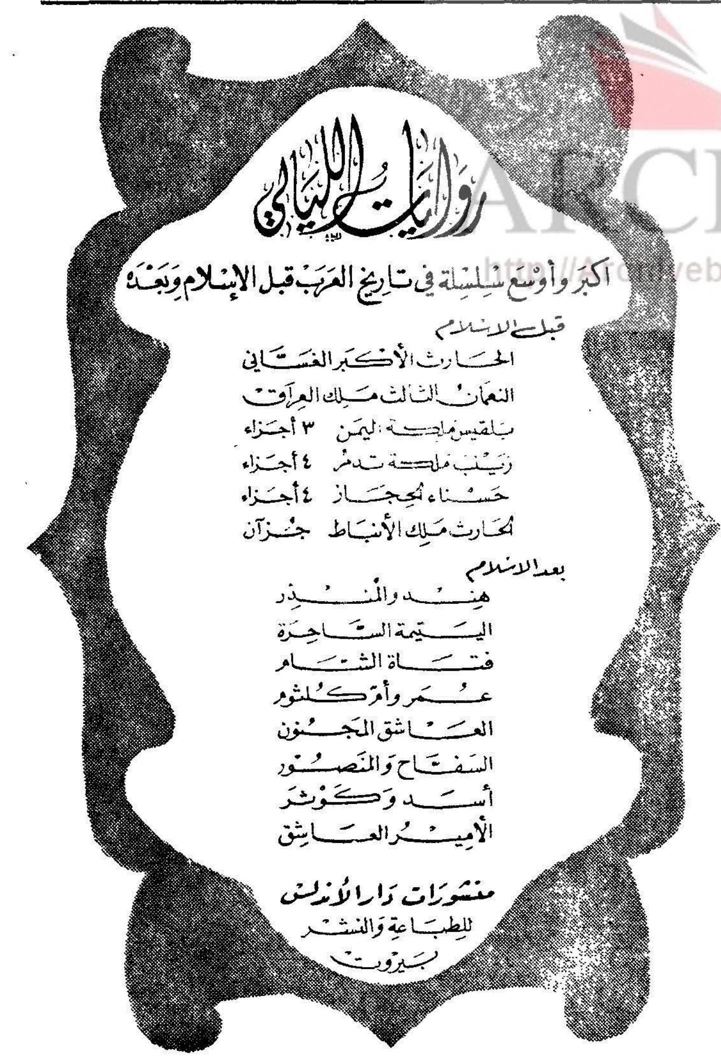
.. وسمعنا ـ وان كان هذا يحتاج لدليل ـ ان علماء الاجناس النازيين لاقوا شبها كبيرا بين جماجم المومياءات القديمة في وادي النيل (الفراعنة) والجماجم التي وجدت قرب مدينة ظفار باليمن ، وبطرا المدينة العربية القديمة في الاردن . مما اكد ان هناك رابطة عينية حقيقية بين هؤلاء وهؤلاء . ولكن اعداء النازية اعدموا هذه الكتب بعد انتصارهم على المانيا ، لان فيها تحطيما لكل المذاهب التي تتناحر اليوم في العالم . وخاصة : الشيوعية والرأسمالية وتفرعاتهما .

.. ثم لا نستبعد ان نكون الكتابة الهيروغليفية القديمه هي احدى تفرعات اللغة العربية القديمة ، كاللغه التي استعملها البابليون زمن حمورابي ، وقد ثبت بالدليل انها مع اخواتها الكلدانيه والفينيقيه والاشورية من اصل اللغة العربيه ، والخط الكوفي ليس ببعيد الشبه بالخط الهيروغليفي كثيرا ، ولولا الضوابط النحوية التي وضعت للغة العربية بعد الاسلام ، لكان اليوم لكل قطر عربي لغه الخاصه المشتقة من اللغة العربية الفصحى كما حدث للغه اللاتينية في اوربا ، وان كنا نفتقر الى الدليل لكي نقول واللغة العربية قديما ، وعلى العلماء العرب وحدهم ان يبحثوا عن هذا الدليل ، فالاجانب لن يكونوا مخلصين الا لمبادئهم وحدها ولاستعمارهم ومصالحهم . مع العلم ان مؤرخي العالم اجمع اكدوا أن البابليين ، والفينيقيين، والكنعانيين والانباط والفراعنة والاشوريين والتدمريين هم من النبع العربي (شبه جزيرة العرب) .. والذي يؤمن بالدعوة الفرعونية كما ارادها الاستعمار الانكليزي في مصر فهو يسير مع تيار الشعوبية حتما ، دون دراية منه ، كما سار قبله مدعو الفينيقية في لبنان والساحل الشامي والقومية السورية في بلاد الشام ، وهذه قد اثارها الاستعمار الفرنسي والايطالي ، وربما كان الاستعمار في مخططاته العامة متفقا عليها .. والكل يعلم ان لكل دولة من هذه الدول وزارة تسمى وزارة المستعمرات ، فيها كل الخبراء في التدجيل والتفريق بين الشعب الواحد وفيها كل علماء الافساد .. أثار الانكليز الفرعونية دون ربطها بالتاريخ العربي، وعزلوها عزلا تاما عن ميدانه وعن حوادثه . كما فعل الافرنسيون في تشجيع الحركات المعادية للقومية العربية في سورية ولبنان .

✶

.. والاستاذ غالي شكري في مقاله ((دفاع عن محمد)) برهن عن عدم اطلاعه حتى على مصادر التاريخ البسيطة، التي اصبح يعرفها كل العرب، واني اطلب من الاستاذ شكري قراءة القصيدة الرائعة التي جمعت فيها كل معاني التاريخ العربي قديمة وحديثه المنشورة بعدد تموز سنة ١٩٥٦ في مجلة الاداب صفحة (٣٢) وعنوان القصيدة (خلود) للشاعر شفيق الكمالي وفيها :

أنا بالامس قد عشت ..
ببطرا انطق الصخرا ..
وفي بصرى ..
أمد قوافل التجار بالماء
وآبائي على الشطين في بابل .
وقد سرت مع الهكسوس للنيل .
وفيها صاغ أزميلي ..
مقاصيرا واهراما ..



وفي روما ..
لبست التاج مقداما .. (فيليب العربي)
وذقت الجوع في الصحراء اعواما ..

✶

.. والاستاذ شكري لا يقع في هذا الخطأ وحده ، والحقيقة ان خطيئته الاخرى اكبر واسوأ لان الذي يسمي العرب الذين حرروا اخوتهم في الاقليم المصري من طغيان الرومان في بدء الاسلام غزاة . فهو واقع في احد امرين :

١ ـ اما ان يكون منساقا مع دعوات الاستعمار الذي حاول تجزئة الشعب العربي كي يسهل عليه اخضاعه والسيطرة عليه منذ قبيل بدء القرن التاسع عشر .

.. وليذكر الاستاذ شكري كيف كان الانكليز يؤيدون الدعوات الاقليمية، ويبثون البغضاء بين الشعب الواحد في وادي النيل ، وكيف فصلوا بين قسميه : مصر والسودان ، ومن ثم ابدوا بشكل ايحائي كل من كان يقول : « مصر للمصريين » وبهذا يضربون عصفورين بحجر واحد . يفصلون السودان عن مصر . ويفصلون مصر والسودان عن الوطن العربي، اما من كان يدعو ويشعر ولو بشكل بسيط وعفوي بان القطرين جزء من الامة العربية فقد كانوا يلقون النفي والتشريد وربما القتل من سلطات الاستعمار ، ومن ساعدهم في الحكم آنذاك ..

.. واما في الاقليم السوري فقد شجع الفرنسيون كل الافكار المضادة للقومية العربية ، وفصلوا بين الاقليم السوري ولبنان ، كما فعل زملاؤهم في وادي النيل تماما ، ووضعوا حدودا جديدة للوطن الواحد ثم أثاروا النعرات الطائفية التي زالت والحمدلله من الاقليم السوري ونراها ترتع بكل بشاعتها حتى اليوم في لبنان الشقيق..

✶

.. ولنسأل الاستاذ شكري هذا السؤال :

« هل قرأت لكاتب او مؤرخ عربي . او حتى من الكتاب الذين ظالهم الاستعمار قديمه وحديثه . من يسمي المصريين العرب الذين طردوا الترك من بلاد الشام خلال الربع الثاني من القرن التاسع عشر غزاة ؟

.. هذا بالرغم من القيادة الاجنبية (ابراهيم باشا) التي كانت تخضع لها القوات العربية المصرية آنذاك .

الم يلاق العرب في بلاد الشام اخوتهم عرب مصر بالزغاريد والافراح ؟ ثم التعاون معهم للقضاء على الجيش التركي المحتل ؟

الم يتعاون الاستعمار جميعه في تلك الايام في سبيل القضاء على الوحدة ؟ ثم انزلوا جيوشهم عندما شاهدوا تصميم العرب في بلاد الشام على حب ومساعدة الجيش العربي المصري على سواحل بلاد الشام ، واعطوا السلاح للموتورين والخونة من العرب انفسهم . هذا حدث فعلا رغم غموض فكرة القومية العربية والوحدة العربية في ذلك الوقت. ورغم الشك في القيادة التي كانت غير عربية . ان الشعور الذي دفع العرب في بلاد الشام لمساعدة اخوتهم في الجيش المصري هو القومية العربية آنذاك بمفهومها الساذج العفوي ..

✶

.. اما الاستاذ علي بدور ، فقد هاجم بشيء عن الالم : خوفو ومنقرع وابا الهول . وهنا خطأه الوحيد ، والحقيقة ان من يسمى العرب غزاة .. ويقرنهم بالاستعمار التركي الانكليزي ، مع العلم انه يصم الملايين العربية سكان الاقليم المصري كلها بهذه الوصمة ، ثم نراه يؤمن بشيء، فيجب ان نهاجم هذا الشيء . ولكن ليس بالاسلوب الذي استعمله الاستاذ بدور . وفي رأيي ان من يهاجم هؤلاء : اخناتون ، منقرع خوفو تحتمس الخ.. كمن يهاجم حاتم الطائي . حمورابي معاوية هنيبعل الخ .. ما دمنا عن ايمان راسخ بانهم جزء منا نحن القوميين العرب. وجزء من الامة العربية مهما بعدت الشقة التاريخية بيننا وبينهم . ثم ليتساءل الاستاذان الكريمان من أين أتى هذا الاسم : (ابو الهول) . وهذا (خوفو) وهذا (تحتمس)؟.. لنقارن هذه الاسماء ببساطة مع كلماتنا العربية الا نرى شبها . ولو بسيطا ؟

.. اما في المجال العلمي فهذا ـ كما قلت ـ من واجب العلماء العرب وحدهم وليس الادباء ..

✶

وفي النهاية اذكر الاستاذين ان العرب اقوى من هذه الدعوات وهذه الافكار الشاذة . وقد رأينا كيف استطاعوا تمزيقها اربا اربا بوحدة مصر وسورية وانتهوا منها تماما . وبقي عليهم ان يثبتوا للعالم اجمع ان الصعيدي في الاقليم المصري ما هو الا فرع للعربي في صحراء نجد او في جبال الاطلس في المغرب العربي ، واخيرا للاستاذين تحيتي العربية.. والى عمل ارحب من اجل الحرية والوحدة العربية .

ابراهيم ونوس

ليست فرعونية .. وانما علمية

بقلم عاطف احمد

يعاني مجتمعنا المعاصر عقائدية عميقة ، هي تعبير ايديولوجي صادق ، عن المرحلة الاجتماعية التي نحياها بكل ثوريتها وتناقضاتها الباطنة . والنظر الى الحقائق التاريخية من خلال عدسة الشعور القومي الساذج، هو احدى السمات البارزة ، لهذه الازمة . واخضاع الحقائق الموضوعية للحالة الوجدانية ، هو بلا شك خطأ فادح . فهو ليس جناية على الحقيقة فحسب ، وانما هو جناية على انفسنا ايضا .. ذلك ان الوعي العلمي بحقائق الطبيعة والمجتمع ، هو وحده ، القادر على اعطائنا المفتاح ، الذي نفض به مغاليق الحاضر ، لصياغة مستقبلنا على وجه افضل .

✶

وحينما نعقد مقارنة سريعة بين كلمات الاستاذ علي بدور ، تعليقا على مقال الاستاذ غالي شكري « دفاع عن محمد » ، وبين كلمات المقال نفسه ، نستطيع ان نلمس الى اي مدى يمكن ان تلتبس علينا الحقائق ، حينما ننظر من زاوية عاطفية محضة . فالدعوة الى حضارة فرعونية ،

نستمد منها القيم ، والافكار .. والمثل .. هو كل ما استطاع المعلق ان يفهمه من مقال الكاتب . وقليل من التامل ، يكشف لنا عن مدى خطأ هذا الفهم .

فحينما جعل الكاتب ، أخناتون ، اول من دعا الى التوحيد .. لم يكن يعني بذلك ان ((يتخلص الشعب في مصر من الاسلام والمسيحية ، واللغة العربية ليصل الى اخناتون)) .. والدليل على ذلك بين .فالدعوة الى الماضي هي دعوة خلفية .. بينما النظرة العلمية للمجتمع – التي يدين بها غالي – لا تلتفت الى الماضي ، الا بمشرط النقد والتشريع، لكي تجعل منه نقطة الانطلاق الى المستقبل .

والكاتب لا يستهدف من تحليله للدور التقدمي الذي قام به اخناتون، بدعوته الى التوحيد .. التي كانت ملتقى ديانة المسيح ومحمد ، سوى التدليل على ان الاديان ، قد نهلت كلها من منبع واحد ، منبثق من واقع مادي متقارب السمات .. ومن ثم كان التقارب بل التداخل والتماثل احيانا ، بين الديانات الثلاث .. المصرية القديمة ، والمسيحية ، والاسلامية .. شيئا طبيعيا ..

واخناتون هنا .. ليس الها لدعوة جديدة تدين بالفرعونية ، وانما هو حقيقة تاريخية جديرة بالتحليل العلمي . والنظرة العلمية للمجتمع، تؤكد لنا ، ان التكوين الفكري لمجتمع ما ، ينبثق من واقعه المادي ... وليس العكس . ومن ثم ، كانت الدعوة الى استجلاب ايديولوجيه قديمة، لمجتمعنا المعاصر .. غريبة تماما عن المفهوم العلمي الذي يرافق الاستاذ غالي ، في كل ومضات فكره .

وحينما فصل الكاتب ، بين الدين – اي دين – وبين الغزو الاجنبي للشعوب . لم يكن يتكلم بلسان التعصب ، وانما كان يستضيء بعدسة التحليل العلمي . فالغزو الاجنبي ، ليس سوى تعبير مباشر ، عن احتياجات مادية جديدة ، نامية في قلب المجتمع ، ونابعة من ظروف حياته ، تبحث عن حل لازمتها في جيوب الاخرين . والشعار الديني هنا ليس سوى قناع .. ولعل في نمو الطبقة التجارية ، ونزعتها التوحدية والتوسعية ، وفي ضعف موارد الجزيرة العربية ، تعليلا كافيا ، للغزو العربي للشعوب المجاورة . وليس يغرنا ان ينطق الشعب المصري بلغة الضاد ... ففي الانحلال اللغوي عند المصريين ، قبل الغزو العربي ، فضلا عن التفاعل الحضاري بين السادة العرب المهاجرين ، وبين المصريين .. تعليل كاف .

وان كل ذلك لا ينفي طبيعة الغزو ، وهو ايضا لا ينفي حقيقة الوحدة الجنسية الناتجة من التفاعل الحضاري على مدى الاجيال .. ذلك التفاعل ، الذي اكسب تلك الوحدة سمات ذاتية .. من نوع خاص وجديد .

ويتساءل المعلق ((لا ادري بحسب اي مذهب نقدي ، يفسر – الاستاذ غالي – حياة كاتب رواها بقلمه ، على انها رمز لكل ما في افكاره من معلومات عن المذهب الفكري الغريب العجيب الذي يؤمن به ويدعو اليه ؟))

واعتقد ان المسألة لم تعد تتطلب مثل هذا التساؤل . فالمذهب النقدي الذي يبحث عنه المعلق ، ليس سوى امتداد طبيعي للفلسفة العلمية ذاتها ، في ميدان النقد الادبي . و ((صبي في المسجد)) هي في حقيقتها قصة ، وليس بحثا . هي قصة حقيقية ، منحوتة بعمق ، من صخور واقعنا المباشر ، ومستمدة منه جذورها الضاربة في اعماقه . والعدسة العلمية وحدها ، هي القادرة على اكتشاف هذه الجذور ، وتحليلها ، وتعريتها عن حقيقتها . وحياة الكاتب ، والكاتب بالذات ، ليس سوى تجسيد بشري ، لوجه خاص من وجوه الواقع الاجتماعي العام ، هو الكيان للكاتب . وهي اذن .. ليست سوى رمز لشيء كبير .

والاستاذ غالي ، يقول لنا ، ان العناق بين الشيخ المسلم والتلميذ القبطي ، لم يكن سوى رمز لبداية العناق الكبير بين المسيحية والاسلام، بعد ان بدأت الرواسب التاريخية التي باعدت بينهما طويلا ، تذوب .. في بوتقة الايمان البشري الجديد . فلم تعد الانسانية الجديدة ، تنادي .. اخي المسلم . .اخي المسيحي .... بل اخي الانسان .

هي اذن ، ليست فرعونية . وانما علمية ، وليست تعصبا .. وانما بشرية جديدة ، ووعي جديد .

انني ادعو الاستاذ بدور ان يقرأ غالي ، مرة اخرى .

عاطف احمد

كلية طب القاهرة

حول مقال (الادب بين الواقع والوجدان)

بقلم حسين علي صعب

في العدد الماضي من الاداب الغراء قرأت مقالا بعنوان ((الادب بين الواقع والوجدان)) وقد حمل الكاتب فيه على العصر الحاضر لانه((قياسي)) يهتم بالمادة وابعادها وحدودها دونما التفات الى المثل والاعتبارات المجردة الخارجة عن كل تحديد ملموس : كالشرف والاخلاق ..

وليست قضية المادة والمثل بجديدة،فقد اهتم بها الفلاسفة اليونان،حتى كانت الدافع الفعال لخلق مذاهب عديدة تتبنى اراء متضاربة . فقد اعتبر السفسطائيون الحواس اساسا للمعرفة . وبما ان الحواس تختلف باختلاف الاشخاص تكون صورة الشيء الواحد مختلفة بين فرد واخر .. وذلك بالنسبة لتعدد حالات الادراك . وعليه فقد ابطلوا الحقيقة المجردة لانها في حكم غير موجود ، واقاموا مكانها حقيقة نسبية جعلوا مقياسها المدرك نفسه ، كما انهم اعتبروا الاقناع السبيل الوحيد للتعليم في العالم المادي .

وقد حاول سقراط ان يدحض آراءهم فاعتبر العقل وسيلة للمعرفة لانه يستطيع ان يدرك الكليات . وبذلك يمكن ان نصوغ تعريفا ، على اساس عقلي مشترك – لكل نوع من الحقائق الخارجية .. فالمعرفة والفضيلة توأمان .

اما افلاطون فقد اعتبر الوجودات ظلا لمثل كاملة لا يشوبها نقص او فساد . وقد دفعه الى هذا الاعتبار اعتقاده بان المحسوسات متغيرة متبدلة ، وان النفس قبل حلولها في الجسد كانت تعيش وراء الطبيعة ـ بصحبة الالهة ، وهي في وجودها مدركة تمام الادراك للحقائق الكلية ، حتى اذا احتواها الجسد اصابها شقاء وعذاب بدات تنفر من كل شيء محدود لانها تتذكر ـ عند رؤيته ـ العالم الكامل الذي كانت تعيش فيه فمعرفتها نوع من التذكر ، والمثال هو الصورة الحقيقية التامة للنوع لانه مؤلف من الاعتبارات الجوهرية .

ثم جاءت فلسفة ارسطو وابتدأت من النقطة التي انتهى اليها افلاطون مهدمة كل مابناه بشأن المحسوس والمطلق ، فجعلت منطلقها الموجودات ومضت صعدا تحلل وتشرح حتى شملت مظاهر الكون وانتهت الى علة العلل « الصورة المجردة الخالية من المادة .. الله » . ويعتبر مبدأ السببية من اهم الدعائم التي ركز عليها ارسطو فلسفته ، ولسنا بحاجة الى شرحه اذ المقصود منه الوصول الى نظرته في الموجودات . فقد قسمها الى قسمين : الكمال المحض وهو الصورة الخالية من الهيولى . والعدم المحض وهي : المادة المفارقة للصورة . والانسان في نظره عبارة عن صورة وهيولي والنفس هي صورته وعليه فهي خالدة . اما الجسم فهو متحول صائر الى الانحلال . فكلّ موجود عبارة عن صورة وهيولى يتحدان في المحسوس ولا ينفصلان الا في الذهن .

انني لم اطل هذه المقدمة الا لابين كيف شغل الذهن منذ الوجود بالمحسوسات والمجردات والكمال والنقص ، وكيف احتفل الادب والفلسفة بها . ولقد نجم عن هذا الاهتمام ظهور اتجاهات ادبية عديدة تختلف قربا وبعدا عن الواقع فمنها من تغنى بالميول فاشتد به الحنين الى الماضي الى الطفولة فراح يغني البراءة والكآبة والحنين . واخر اتخذ من الواقع قواعد انطلاق يبني على اساسها عالمه الافضل الذي يريده . واتجاه ثالث ظل مشدودا بقيود الواقع ينقله ببشاعته وروعته.

يتضح مما تقدم ان الانسان منذ كان اتخذ الموجودات الماثلة امامه كمواضيع استولت على تفكيره ، وجعلته يتساءل عن علاقته بها وصلتها ببعضها البعض . ولبث العقل البدائي يفشى ظواهر الاشياء من غير ان يلتفت الى المعاني المنكفئة وراءها . اي انه كان يتولاها بذهنه . اما العقل المتحضر فقد تولاها بعاطفته بعد ان نقلتها حواسه فلم يعد يبصر حدودها ومميزاتها البارزة ، بل اتخذها كرمز لما تجيش به نفسه ازاءها . وهكذا يظل الوجدان قاعدة لتأثير المادة ، اذ لولا المادة لما استطاع الذهن بفعالية الوجدان ان ينطلق الى افاق جديدة فوق المحسوسات التي يمكننا ان نسميها قواعد انطلاق .

وذات الانسان ، مصدر الخلق والابداع ، كما عرفها علماء النفس والميتافيزيقيون هي الوجدان الذي يعي ذاته ويدرك الاطوار التي يمر فيها ، وبهذا يفترق الانسان عن الحيوان الذي يحس ويتحرك ولكنه يفتقر الى الضمير المتعقل ولا يستطيع ان يقول مثلا «انا اركض بسرعة».

فهل قصد السيد يوسف الحوراني عندما قال ما معناه : ان الجيل الحاضر لا يتأثر تأثرا عاطفيا بالواقع ، بل لا يبصر سوى الارقام والاشياء المادية حتى في المظاهر العميقة التأثير ، ان يجرد الجيل العربي الصاعد الصامد من كل عاطفة صادقة ووجدان فياض ؟؟ هذا الجيل الواعي المتمرد .. المتطلع لافاقه الانسانية والذي استعرت في ضميره جذوة الكفاح فناضل ولا يزال يناضل في كل قطر عربي يرهقه الاستعمار ، وسيتم له ما يريد فينحط مصيره بيده ، وقد اورد بالعبارة الواحدة : « عيناه تنظران حينا لاناس محنيي الظهور يرزحون تحت ثقل كتب عليه وزنه » اصحيح ان الفنان العربي محصور في هذا الحيز الذي رماه به الكاتب ثم ما معنى ان يكتب الادباء فيخلدون بما يكتبون ابطال واقعهم ويرسمون للشعب العربي اهدافه وطريقة الوصول اليها ؟! هل هم بواد والواقع بواد ؟!.. هل السيد الحوراني لا يعاني مأساة العربي في سائر اقطاره ام انه تأثر ببعض الادباء الغربيين الثائرين على آلية حضارتهم وجاء يطبق آراءهم على شعب يكافح باصرار وايمان في شتى الاتجاهات الحياتية من استعمار خارجي وارهاب اذنابه في الداخل ، ثم ماله يؤكد ان الفن هروب من الواقع الناقص ؟! هل الفن هروب بالمعنى الشامل لهذه الكلمة او انه تجسيد لكل امل خصيب راود النفوس المحافظة على اصالتها التائقة للتحرر والانعتاق لبلوغ اهدافنا الانسانية السامية ؟! ولولا الواقع المؤلم والكفاح لتبديله وتحويره لما زخر ادبنا العربي في عصرنا الحاضر بالمعاني الانسانية الخالدة التي نحس بسريانها في الفنون ونستشهد في سبيلها في دنيا الواقع .

واذا كان يعتقد بان الفن تعبير عن احاسيس الفنان بمعزل عن مجتمعه فهذا خطأ فادح لان الحياة الاجتماعية تلعب دورا هاما في تكوين الشخص .. في ظهور مزاياه ونمو طاقاته التي تجعل منه انسانا . والشخص رغم حريته باعماله الخاصة وعالمه الداخلي لا يكون حقيقة مطلقة بل يظل دائما مشدودا الى وسطه ، كما وانه لا يتاح له ان يستخدم قدرته في تفجير طاقته خارج الدائرة الموجود فيها .. انه فاعل منفعل .

ويناقض الكاتب نفسه حينما يدعو الى المؤالفة بين الذاتية والموضوعية ليكون ادبه خالدا ، وكان قد قرر سابقا بان الفن هروب من الواقع وابتعاد عن الحوادث المتغيرة الزائلة ، فكيف يكون الفن ـ حسب هذا

الراي – خالدا وهو تعبير عن زائل متحول ؟

ويهاجم الغزل الحسي الذي يثير الغرائز الجنسية لانه كما ظهر من مقاله مثالي لا يعطي اي وزن للمادة . فاذا جاز استعمال هذه الاخيرة كلفظة فلسفية يتوجب علينا ان نعود الى ما قرره ارسطو بشأن الموجودات اذ اعتبر كل كائن مزيجا من صورة وهيولى ولا قوام لاحداهما بدون محرك . وعلى هذا الاساس نستطيع ان نقول بان العاطفة تظل في حالة ركود اذا لم يثرها محرك مادي . ولست احط هنا من قيمة العاطفة وادعو الى اثارة الغرائز وانما كدليل على اتحادهما .

ويختتم مقاله بالاشارة الى السبيل الذي يتوجب على الفنان اتباعه ليضمن البقاء لاثره الفني فيستشهد بجمهورية افلاطون لانها « فن في تعبير » ؟! ومع ان هذه الجملة مطاطة وغامضة فانها تشير – كاخواتها – من طرف خفي الى التعثر الذي وقع فيه الكاتب والى عدم وضوح دلالات الالفاظ الفلسفية في ذهنه ولقد رجع سبب خلود جمهورية افلاطون الى « اسلوب فني رائع قاوم الضياع » ما هو الاسلوب الذي يعنيه ؟!..

ولم تخلد جمهورية افلاطون الا لما تتضمنه من تخطيط مثالي لجمهورية متكاملة لا يشوبها نقص ولا يعروها فساد يستغني فيها الناس عن « القضاة والاطباء » . ومع هذا فان تطبيق مثل انظمتها حلم لان الانسان هو الانسان محصور في زمان ومكان . مع علم مني وجهل من الكاتب بان الدافع الرئيسي الى انتاجها هو الاضطراب والفوضى السياسية والاجتماعية التي عمت عصر افلاطون .

لبنان – بنت جبيل

حسين علي صعب

النشاط الثقافي في الوطن العربي

الجمهورية العربية المتحدة

لمراسل الاداب الخاص محيي الدين محمد

فلسفة الجوانية .. او البرجسونية الشائهة ..

يطيب لبعض المشتغلين بالفلسفة ان ينشئوا مذاهب ومدارس فلسفية يطلقون عليها الاسماء العربية ، محاولين اخفاء وجهها الغربي ، وحجب ملامحها التي ليست منا .. ومنذ مدة غير بعيدة ، اخذ الدكتور عثمان امين « احد الدارسين الكبار للفلسفة » يحاضر ويكتب ويناقش ويوضح فلسفة « اهتدى ! » اليها « بعد طول درس وتامل ومعاناة » .!! ووقعت هذه الفلسفة « الجديدة » في محظورين ، أولهما النقل عن الغرب ، وثانيهما النتيجة الحتمية لذلك ، وهو نسيان واقعنا ، والهرب من التاريخ ... ونود قبل ان نناقش « الجديد ... » الذي استحدثه الدكتور ان نعرض ـ بشكل عام وسريع ـ للقاع الذي خدم الى اقصى حد نظرية برجسون في المعرفة ، والتي اصطادها الدكتور في بحره الخاص .!

فالمعرفة في نظر افلاطون هي سمو ورفعة ورقي ، للوصول الى الحالة السابقة التي كان عليها النوع البشري ، فهو يتخيل ان النفس كانت تعيش قبل حياتها الارضية في عالم الهي ، تتامل فيه الحقائق السرمدية الدائمة الثابتة ، كالمعاني والمثل ، وكانت تنعم هناك بحياة سعيدة كاملة في صحبة الالهة ، ثم فقدت هذا الامتياز فهبطت الى الارض ، ومع هذا تشعر برغبة كامنة تدعوها للعودة الى حالتها الاولى ، وهذه الرغبة في السمو بذاتها تتجلى في المعرفة العلمية ، وهي تذكر عالم المعاني ؟ وهكذا فان المعرفة تهيىء لنا حالة الكمال التي حرمنا منها ، وذلك عن طريق اتصالنا بالعالم الالهي .. اي ان المعرفة هي نشدان للكمال عن طريق اتصالنا الداخلي بالله ...

ولا تختلف هذه النظرية الافلاطونية في المعرفة عن نظرية برجسون ، التي هي استمرار لنظريتي افلوطين وسبينوزا ، فبرجسون يدعي ان العمل الحقيقي العميق يرتبط ارتباطا لاانفصام له بمعرفة الانسان لذاته : فليست المعرفة والعمل سوى شيء واحد في عملية الحدس « نفس الكلمة التي سوف يستعملها بعد ذلك الدكتور الفيلسوف ... »

وذلك يعني ان المعرفة البشرية مفروقة الى اثنين : اولهما هذا الاتصال اللمسي بالاشياء لمعرفة قوانينها ، وثانيهما هو هذا الكشف الباطني المقدس للاتصال بالحكمة وبالسر وبالالوهية ..

وجدير بالذكر ان ننبه الى ان نظرية الدكتور عثمان امين ، ليست مكتملة كنظرية تفسر كل شيء ، انما هي مجرد ايماء سريع الى نظرية المعرفة الروحية التي ارقت الاذهان منذ افلاطون ، وظلت في ترجح وخفقان بين التسليم والرفض ، طيلة العصور الوسطى حتى تسلمها مطلع القرن العشرين ، ليرد بها على فلاسفة القرن السادس عشر الماديين ..

ففي نظر الدكتور عثمان امين ان « الجوانية » : « فلسفة تحاول ان ترى الاشخاص والاشياء رؤية روحية ، بمعنى ان تنظر الى « المخبر » ولا تقف عند « المظهر » وان تلتمس « الباطن » دون ان تقع في « الظاهر » وان تفحص عن « الداخل » بعد ملاحظة « الخارج » وان تلتفت دائما الى « المعنى » والى « الماهية » والى « الروح » من وراء اللفظ والحس والظواهر والاعراض .. » يستطرد الدكتور زيادة في الايضاح : « واذن فالفلسفة الجوانية تنطوي على ضرب من الميتافيزيقا يمكن ان نسميها ميتافيزيقا « الرؤية الواعية » ، وبديهي ان هذه ليست هي الرؤية الحسية الفزيولوجية ، بل هي رؤية جوانية نفسية ، او الرؤية « بعيون الروح » ، وهذه الرؤية الانسانية الواعية انما تتجلى فيها حكمتنا وتجربتنا وروِيّتنا . والفلسفة الجوانية اذ تروم معرفة الاشياء والاشخاص معرفة ميتافيزيقية حقيقية ، اي معرفتها عن طريق المبادىء ومن الداخل وبنوع من التالف الحدسي ، انما تنادي بما نادى به برجسون .. »

« ان الفكر الميتافيزيقي .. » كما يقول « هو في صميمه وعي متدبر العلاقة بين الروح والوجود لانزاع في ان غاية الميتافيزيقا ان تؤدي الى معرفة . ولكن لن يكون لدينا فكرة عن هذه المعرفة ، مالم يكن هنالك جهد يبذل للتامل والروية في خلوة روحية . واذن فاول شروع الفكر الميتافيزيقي هو مجاوزة المظهر . والنظر الميتافيزيقي التاملي الجواني يقربنا من الاشخاص ويدنينا من عالم الانسان ... »

وتنتهي محاضرة الدكتور التفصيلية الى ان مايفتقده الناس هو « الايمان بالله .. والولاء للانسان .. » !!

لا شيء يمكن ان يكون ادعى الى الصحة من ان الفلسفة تستطيع ان تستعيد ملامحها القديمة في اي عصر ، وفي اي مكان ، وباي قدر من القوة تشاء .. وذلك يثبت ـ لا قوة الفلسفة ذاتها ـ بل حاجة الناس الشديدة اليها ، لدرجة اختراعها احيانا ، وسرقتها في غالب الاحيان ..

فالرواقية يمكن ان تظهر مرة اخرى في القرن الحادي والعشرين ، كما يمكن للافلاطونية ان تظهر في القرن الثاني والعشرين ، اذا ظل العلم على ما هو عليه الان من تقدم بطيء ومشتت ، واذا ظلت الاسرار القديمة كما كانت ، اسرارا بدون تفسير ولا شرح ، كقضايا المادة من داخل ، ونشوء الحياة العضوية من المادة ، وهذا القرار الكوكبي للمجموعات السديمية في الفراغ ..

فلو استطاع العلم ان يفك هذه الرموز ، وان يشرحها ، ماتت الفلسفة الميتافيزيقية ، ودفنت بغير احتفال ، لان مايبقى عليها الان ، هو تقصير العلم وبطئه الشديد في الكشف والازاحة . وتاريخ الفلسفة الميتافيزيقية ، هو تاريخ الصراع ضد العلم ، وضد القوانين الرياضية الارضية ، وليس عجيبا ان هذه الفلسفة ، التي امكن لارسطو ان يطمرها وان يخفيها عن عيون الاجيال ، بدات في الظهور مرة اخرى ، وبحدة اشد في العصور الوسطى على يد اوغسطين وتوما الاكويني ، لان المسيحية استطاعت ان تاسر النفوس في عصر انحط فيه العلم انحطاطا شديدا ، ولان السلطة المسيحية استعملت اقسى واشد التدابير لمنع الاذهان عن التفكير ، لدرجة انها احرقت العلماء احياء ، واحرقت كتبهم ومؤلفاتهم وسجنت واوقفت عددا عظيما من التلامذة الذين رفضوا الانصياع للجواب المسيحي الميتافيزيقي ..

كان ظهور التيار الميتافيزيقي في العصور الوسطى طبيعيا جدا مع هذا الفشل الساحق للعلم ، ولقي هذا التيار تجاوبا مع ظروف

العصر التاريخية ، لان التناقض بين المادة والروح ماعاد قائما بعد ذلك الانتصار المعتم للكنيسة ..

اما في مطلع القرن العشرين فلم يكن ظهور التيار الميتافيزيقي طبيعيا الا لكونه ميلا نحو مقاومة الالية ، واقبالا صوب النزعة الانسانية ، كما بدأ في ملامح برونشفيج وبلوندل وبرجسون ..

واذن ، فالضرورة التاريخية ، والظروف المادية هي التي تؤهل الجو لطغيان تيار من التيارين اللذين تجاوبا ورافقا الانسان منذ القديم :المادية والمثالية .. وكانت احداهما تموت لان الظروف التاريخية تقتلها ، ولان نفس هذه الظروف تبعث الحياة في الاخرى ..

وفي منتصف القرن العشرين اصيبت المثالية بخيبة امل كبرى على اثر الانتصارات الرياضية والعلمية العظيمة التي سجلها الغرب وفتح بها عالما جديدا على الوعي الانساني ، فقفز به من صندوقه الاسر القديم الى رحابة دنيا واسعة فسيحة مجهولة .. وكان ذلك الانتصار يعني ان الارادة الانسانية لا حدود لها ، وان المنطلق المادي الكاشف ، لا بدله من اسبقية ، لان حاجتنا الاولى ليست الايمان ، بقدر ما هي المعرفة .. ان المعرفة الروحية ليست الا معرفة الله ، وفي هذا المقام لا نستطيع ان نجاري الهند اوفارس او الصين ، واذا شئنا الاطلاع على ما تؤديه هذه المعرفة من بلبلة وابتعاد عن الانسان ، يمكننا ان نرجع الى الباجافادكيتا واليوبانيشاد ، وكتب التصوف الهندية والفارسية ..

ففيها اكثر من غيرها ، هذا الانفتاح الحدسي الداخلي على الانسان وعلى الاشياء ، وفيها هذا النظر الكشفي (الجواني) ... وفيها مجاوزة للمظهر ، وفيها اكثر من ذلك ... فيها الحض على الحب الاخوي بين الانسان واخيه الانسان ، وفيها نلتمس الادراك والتعاطف للمخطىء والمسيء ، وفيها اخلاقية مسيحية ، وبالاختصار ... فيها جوانية حقيقية ..!

ان الاسترشاد بالغيبيات يعيدنا الى طريق الجهل واللامعرفة والضعف ، لان الفلسفة الميتافيزيقية لا تعرف الارض ولا تعرف الظروف التي تخلق الانسان الارادة . الفاعل . الثوري ، الذي يدرك ان عليه ان يحمل عبء الارض وعبء ان يكون حرا ، وان يغرس مفهوم الاشتراكية.

وهذه الدعوة التي يجريها بعض المثقفين ، ويجربون تأثيرها في تلامذتهم ومريديهم ، لا تثمر الا في ابعاد الاذهان عن الظروف التي نحياها الان ، والامجاد التي نطمح اليها في هذه اللحظة من تاريخنا الانبعاثي .. وان الحض على هذه الروحية لا يسهم الا بعرقلتنا وبوضع الخوازيق في طريقنا بأمثال هذه الكلمة : « لانزاع في ان غاية الميتافيزيقا ان تؤدي الى معرفة .. » نعم .. ولكن الى اية معرفة .. ؟!

الى اية معرفة تؤدي الميتافيزيقيا .؟! اليس الى الروح والى الخلود والى الايمان بالتراث اللاعقلي واللامنطقي للانسان في اشد حالاته تعصبا للمجهول ؟

لقد شبعنا طيلة تاريخنا كثلكة وروحانية وافلاطونية وبرجسونية ..

فاذا كان بعض مثقفينا يظنون ان نقل الفلسفة يوازي ارتجالها ، او ان سرقتها تساوي خلقها فان علينا نحن ان نرد بان وجهنا العربي يرفض المسحوق الاوروبي ، وان رأسنا واسعة على القبعة .. وليس الدليل على جهل هؤلاء الاساتذة بواقعنا العربي الا اصرارهم على ابتداع او نقل فلسفة آمنوا بها وحدهم في عزلة عن الارض التي تميد من تحتهم ، وترجوهم ان يحسوا بها وان ينظروا اليها .. وسوف تموت هذه الجوانية ، لانها سمكة ولدت فوق الارض ، يلزمها البحر لتعيش وتتنفس، ويضربها هذا الهواء الذي نتنفسه نحن ونشمه ..

لان ما نطالب نحن به الان ، ليس العودة الى الغيبية ، بقدر ما هو اتاحة الفرصة للمجتمع العربي، لان يؤمن بالعلم وبالتحول وبالعدالة ..

وفي طيلة المدة التي كانت الفلسفة الاسلامية رائدة فيها للذهن العربي ، كان يصحبها السفسطة واللغو والاحاديث الخرافية البعيدة عن العقل ، كالبحث في ماهية الروح ، وفي شكلها هل هي ضوء اخضر ام اصفر .. الخ .. لان الفلسفة الاسلامية كانت بحثا في الميتافيزيقا ولم تأذن لها السلطات ، ولا التقاليد ، بان تتحول من شكلها الطبيعي ، الى النقيض الطبيعي خوفا من حدوث حركة فكرية ثورية ، تغير الارض ومن عليها ...

والان ...

لا نستطيع ابدا ، ولا يمكن ابدا ، ان نسمح في هذه الفرصة الدقيقة التي سنحت في تاريخنا ، ان تعيدنا بعض الاذهان المشتغلة بالفلسفة ، والتي تفصل باستمرار الواقع الارضي ، وبين الدراسة الحلوة المشوقة الرائعة في المكتبات والمنازل الدافئة ، لا نستطيع ان نسمح لها بان تعيدنا الى جمودنا القديم ، بكل ما يصحب ذلك من خطأ وموت وعدمية وانتهاء ...

الارتجالية في السينما المصرية ...

ماذا تعني السينما ؟ ولماذا وجدت ؟ ولمن تتوجه ، وهل لها رسالة ام لا ؟ وما هي رسالتها ..؟! وعشرات من الاسئلة الاخرى الهامة جدا ، والتي لم تخطر على راس مخرج او منتج او دارس لهذا الفن الذي يقتله كل صباح ميلاد فيلم جديد .. ، مادامت الارباح متوفرة ، وما دام الكسب المادي هو النتيجة الاولى والاخيرة من وراء هذا الطوفان الفضي .

اذا وجد الممثل الجيد ، افتقد المخرج او المصور الجيد ، واذا وجد هؤلاء اختفى المنتج او ضاعت القصة والسيناريو ، وبالاختصار ، فان ضياع ملمح من هذه الملامح او ضياعها جميعا شيء متوفر جدا في السينما المصرية ، لان الامر في اذهان القائمين به هو عملية تهريجية موجهة الى مهرجين جهلاء .! فلم العناء اذن ، والنصب في محاولة تقديم افلام نظيفة من كافة وجوهها ..؟!

فن السينما هو فن القرن العشرين ، بصفته التعبير الاكثر قدرة بالوصول الى أغوار الناس ، والى اكبر عدد منهم ، وبصفته المذبح الذي تتحول فيه الغرائز المنحطة الى عواطف طبيعية معلقة ونظيفة ، اذا لاحظنا أن السينما هي الخلفية الطبيعية للمسرح ..

ولا يمكن ان تقوم لهذا الفن قائمة اذ لم يتفق بالتبادل مع كافة الفنون الاخرى ، على ان يستخدم ميادين نشاطهم جميعا ، فالسينما لا تعني شريطا به صور ، انما هي الرسم والموسيقى والديكور والاضاءة والالوان وعلم النفس والاخلاق والفلسفة والاجتماع والرياضة .. وكل ما يشبه الذهن والعاطفة ، وكل ما يخطر على البال من فنون وعلوم تتقدم بالانسان وتسهم بتطويره واعلاء شانه .. من هذا المنطلق تصبح السينما هي وجه المجتمع من ناحية ، وبواسطة هذا الكشف عن ملامح مجتمعها وتقديمه وتطويره ، ومشاركتها بتوطيد صلة الفرد الحديث بكل ما يربطه بالعالم من اختلاف واتفاق ، تصبح وجها للعصر من جهة اخرى ، اي انها بتقديمها للعناصر الخاصة جدا في الوطن ، وشرحها ، تسهم باضافة شيء جديد الى المعرفة الانسانية من حيث شمولها ..

ولذلك اختلفت ملامح السينما السوفيتية عن الايطالية وعن الامريكية وعن الفرنسية ، بل ان السينما اليابانية المعاصرة ــ لانها الدولة الوحيدة التي جربت عذاب الانفجار الذري ولاانسانيته ــ تهتم بان تقدم للجمهور غذاء سلاميا يهدف الى تطوير فكرة الحرب والنزاع وتحويلها الى فكرة الخير والحب والعمل من اجل السلام والمصالح الاخوية المتبادلة ..

ان فكرة الرباط بين الانسان ومجتمعه ، والانسان وعصره ، لا يمكن ان تغرب عن بال المهتمين بالسينما ، فمن اجل ذلك وجد هذا الفن العظيم وليس من اجل اية قيم اخرى . .

وصحيح ان الفيلم يمكن أن يكون مادة سيئة وشريرة ، كما هو صحيح ان الكتاب يملك هذه الامكانية ، ولكنه يبقى صحيحا أن امكانية المشاركة في التقدم الانساني مغلقة في الطابع الاساسي لفلسفة السينما ..

فالتاكيد على أن الصورة تظل صورة في ذهن الناظر ، وأن القيمة الاخلاقية تظل باستمرار قيمة عينية وحسب ، لانها معروضة في رسوم ، هذا التاكيد يبطل فورا اذا لاحظنا مدى تاثير السينما السيء والحسن في نفسية المشاهدين ..

ان السلطة تقبض على الشخص الذي يملك سلاحا غير مرخص به ، وتحاكم الاخر الذي يطلق الرصاص على الجمهور ، او على فرد واحد ، ولا نجد نحن اي غرابة في ذلك ، لان ما تفعله السلطة هو السلوك الطبيعي ازاء كل ما من شانه ان يفسد المسار الطبيعي للافراد وللجمهور.

ولكن نفس السلطة تترك هذا السلاح الهام في ايدي الجاهلين به ، تطيش ضرباته هنا وهناك ، فتفسد النشء ، وتعطل الاذهان ، وتكيلها في الجنس والمخدرات ، والتهريج والرقص ..

هذه العناصر التي هي اهم ما يشغل بال السينمائيين المصريين ..

فهل يمكن للدولة او للنقاد او للناظرين او لاية سلطة اخرى أن تقوم من هذا الاعوجاج الخطير الذي يعطل امكانيات فن يجد ارضه الطبيعية في بلاد اخرى ، ويشغلنا عن ارضنا في بلدنا ذاته ؟! هل يمكن لسلطة ما ان تقول لهذا الفن : قف .. لقد ذهبت الى بعيد .. !

الافلام النظيفة في تاريخنا الفني نادرة بنفس النسبة التي لامكانية وجود عطيل فوق القمر .؟ وفي نفس الوقت تظهر في الموسم الواحد عشرات من الافلام المكررة السمجة المعافة الشائنة : جنس . خمر . رصاص . تهريج . جنس . جنس . رصاص . خمور . رقص .جنس . وهكذا على التوالي لكان عملنا كشعب في الجمهورية العربية المتحدة هو هذه الاشياء الفاحشة .. لكانها نحن حقيقة .!

والمتفرج المصري يشبه الى حد بعيد ، نملة لا تخرج من جحرها ، تتصور ان العالم جميعا هو هذا الجحر ولاشيء سواه ، واذا قيل لها أن بالخارج أشياء اخرى عظيمة ورائعة ، فان خجلها يمنعها عن الرفض

الحاسم ، فتظل تهز راسها في انكار وابتسام .. ولا يمكن ان ننسى ما للغة من تاثير هام يمنع المتفرج المصري العادي من مشاهدة الافلام الاجنبية ، لا ليتاثر بها ، بل لمجرد ان يوازن ويقابل بينها وبين افلامه .. واذن فهو يعود الى ذلك العذاب ، لانه على الاقل ناطق باللغة العربية .. ولا يمكن لهذا المتفرج المسكين ان يتكلم او يصرخ ويعلن انه شبع زيفا ، وانه يطالب بقيمه الخاصة ، اولا ، لان الصراخ يعني ادراكا ، والادراك يعني الوعي ، وهو مفقود بالمرة ..

ثانيا ، لان التيار قوي ، والفرصة بالتفكير معناها ان يقف ضد التيار ، وذلك مستحيل ..

ثالثا ، البعض العارف يعلم ان الصراخ لا يبلغ احدا ..

رابعا ، البعض العارف اصيب بالياس نهائيا ..

فهل يمكن لهذا الداء الشديد الوطاة ، ان ينقلب ترياقا ؟

هناك عشرات الاسباب التي يمكن ان تكون سدودا في وجه فن السينما المصري ، ولكن الاسباب الكبرى معروفة تماما ، اذ تساعد الخلافات على ظهور بعض المقالات في المجلات والجرائد ، تعرى بعض الاستار عن صندوق القمامة هذا الذي لا يحسن حتى تغطية عريه ..

اولا : ليس هناك مستوى معين دراسي للوجوه الجديدة ، فما أن يكتشف صوت جديد ، حتى يصبح فتى اول للسينما .. وما دخل الصوت بالتمثيل .؟

ثانيا : الامر متروك تماما لتقدير المخرج او المنتج الشخصي ومدى (استظرافه) للفتاة او الفتى ، للدور الاول في الفيلم ..

ثالثا : ليس هناك مرجع واحد مكتوب باللغة العربية عن هذا الفن ، وكل ما يوجد في المكتبة العربية ، انما هو بعض الترجمات السيئة لبعض الكتب الغربية ..

رابعا : النقد السينمائي مفقود بالمرة ، والنقاد المثقفون معدومون تماما بسبب من هذا التطلب الشديد للمؤلفات المكتوبة من ناحية ، وبسبب صداقتهم الحميمة للممثلين والمخرجين من ناحية اخرى .

خامسا : لا يفهم هذا الفن على انه وحدة متكاملة من عدة فنون اخرى يجب ان تترابط وتتحد وتتلازم ، كفريق الكرة ، لتقديم شيء له كيانه .. وبعكس ذلك ، نجد احيانا اهتماما بالغناء ، واحيانا اخرى اهتماما بالسيناريو .. وهكذا ...

سادسا : يجب ان تتجه السينما الى القصة المصرية بالدرجة الاولى، قدر اهتمامها بجمال الفتى الاول وخلاعته ، يعني ان تتحول السينما من الاجرام والجنس والميوعة والتنكيت ، الى عرض واقعنا الارضي ، والى تكليف كتابنا وروائيينا بتقديم اعمال تصلح للشاشة ..

سابعا : المستوى الحالي من حيث التكنولوجيا فقير للغاية ، ذلك لان الكسب يغري بالتسويق ، لابالاجادة ، وفي الواقع ، هناك عشرات من الاسباب الكبيرة التي تعطل هذا الفن عن ان يكون صوتا لشعبنا وجوابا ..

والمطلوب أساسا ان نفكر في تجربة السينما الايطالية التي اذهلتنا واخرجت لنا افلاما عظيمة : كسارق الدراجات ، والارزلمر ، وروما مدينة مفتوحة .. ، بدون اية تكاليف على الاطلاق ، فلم يقم ديكور ، لان القاع كان المدينة باسرها . المدينة الحية النابضة ... وكان الاهتمام موجها الى القصة والى التعبير .. اقول للسينمائيين المصريين : اسألوا الشعب المصري الذي راى هذه الافلام ، اتريد قصصا من هذا النوع ..؟ اسالوه واحتفظوا بجوابه .. عله يهديكم .!!

واذا عجز المسؤولون الفنيون ـ وهم عاجزون حتما ـ نتوجه نحن الى وزارة الثقافة بتكليف مجموعة من العناصر الطيبة ، لتختار بعض الامكانيات الشابة وترسلها في بعثات علمية لدراسة السينما كفن وعلم في امريكا والاتحاد السوفييتي والمجر وفرنسا وايطاليا ، وذلك يستتبع ان تهتم الوزارة بالتخصص وتفتيت هذا الفن الى جزئياته المعروفة ، فكثيرا ما نلاحظ ان مخرج الفيلم هو بطله وكاتب قصته وكل شيء فيه ..

ارأيتم الى عبقرية مثل هذه ..؟!

ان المعهد العالي للسينما لا يمكن ان يصنع المعجزات ، فالمطلوب هو أن تمهد الارض أمام فئة الممثلين الذين يعتبرون الصلة بين الفنون المشتركة جميعا ، وبين الجمهور ..

والخلاصة ، ان هذا الفن الجدي العميق ، يشوه بواسطة هواة ومحترفين لا يفهمون فيه شيئا .. ، فاذا شئنا ، ونحن نشاء ، ان يتحول هذا الفن وان يبدو لنا وجهه الرائع ، وجب ان نبدأ دراسة فورية وشاملة لفلسفة السينما قبل كل شيء ، ووجب أن نسال انفسنا : لماذا نمارس هذا الفن ؟ وما هي رسالة السينما .. ولمن تتوجه .. ومن اجل ماذا .. ؟؟؟

محيي الدين محمد

التاريخ بين القومية والانسانية

ـ تتمة المنشور على الصفحة ٦ ـ

او القمر ، ام تساموا الى موجدها ، فان المصدر واحد والغرض واحد .

شعور بالضعف امام القوى الكونية ، وعجز عن تفهم الذات المعقدة الا بارجاعها الى القوى البارئة القديرة ، وانصهار للافراد في خشوع جماعي يوحد المشاعر والمصائر ويستدر الخيرات ويدرأ المكاره . ولسنا نعرض هنا لامر الدين انسياقا مع فلسفة اللسان ، وانما لان الدين ، اي دين ، كان عنصرا هاما في العملية القومية والانسانية .

وقد لاحظ « برغسون » تلازم الديانة مع المجتمعات جميعها دون استثناء ، وتساءل : كيف يضطرد ذلك مع نمو العقل البشري ؟ وهو يجيب : ان الديانة هي ضرورة حيوية ، بل هي ملازمة للحياة نفسها ،انها جزء من « النزوع الحيوي » . ذلك ان الحيوان ينقاد اجتماعيا بغريزته وحدها ، اما الانسان فينقاد بعقله . وتخشى الحياة ان ينحرف العقل الى النوازع الفردية فيعطل المجتمع او يعوق مسيره ، ولذلك كانت الديانة رادعة للعقل ، رادة له الى الطريق الاجتماعي .

هذه « الديانة الساكنة » طبيعة مركبة في النفس تؤدي وظيفة اجتماعية وقد خلقت حين خلق العقل ولا بد ان تلازمه دائما .

ويقول « برغسون » ايضا : ان الانسان ، كل انسان ، قد يشك في كل شيء الا في الموت ، وحين يضع الموت المؤكد نصب عينه قد تفتر فيه دفقة الحياة وتخور عنده عزيمة البقاء . ووظيفة الديانة ان تسمو به الى آفاق خلابة حافزة ، افاق الحياة الثانية .

لاشك اذن ان الانسان حيوان متدين ، ولذا فان الوظيفة التقديسية عنده وظيفة أزلية . والتجربة الانسانية السابقة للتاريخ كانت حتما متدينة قبل كل شيء ، متدينة باي شيء ..

ان القصص الطريفة المحبوكة التي بقيت لنا من بداية عهد التاريخ ، والتي تعلل الكون وما فيه فتزوج من تزوج من الكواكب مع الريح او الماء او الفضاء ، وتفرق من تفرق ، وفي كل مرة تنفلق البيضة عن اله ، اله حرب او اله حب .... ان كل هذه المجموعة من التصورات العلوية لايمكن ان تنشأ في يوم واحد ، يوم عرف البشر الكتابة ودونوا التاريخ . ولا بد انها وليدة تخمر طويل في روع البشر السابقين ليوم التاريخ .

وحتى الشك في الدين هو في النتيجة نوع من التدين ، لانه في غالب الامر محاولة لتعويض آلهة بآلهة اشد والوصول من ذلك الى الاله الاقوى الاقوياء .

نستشف ذلك في عصور التاريخ من حيرة ابراهيم التي قصها علينا القرآن الكريم في سورة الانعام :

« فلما جن عليه الليل رأى كوكبا ، قال هذا ربي ، فلما افل قال لا أحب الافلين ، فلما رأى القمر بازغا قال هذا ربي ، فلما افل قال لئن لم يهدني ربي لاكونن من الضالين . فلما رأى الشمس بازغة قال هذا ربي ، هذا اكبر ، فلما أفلت قال ياقوم اني بريء مما تشركون » .

اعود الى انسان ما قبل التاريخ لاقول مرة اخرى انه كان شاعرا بانسانيته ، ينتسب الى مجموعة من الاقران يستغلون بقعة واحدة من الارض ويؤمنون بقوى واحدة في السماء ويتعاونون فيما بينهم على مقارعة الطبيعة في عتوها والكاسر من الحيوان في غائلته ، أتراني اسرفت في التمدح به ، انسان ماقبل التاريخ ، ونسبت اليه مالم يتوافر فيه ؟

الامر الذي لاشك فيه هو انه تميز عن الحيوان منذ البداية ، فتعامل الرجل مع جاره الرجل واشتركا معا في مهمة الحياة دون ان تفسد بينهما غيرة الجنس والرغبة في الانثى . والقطيع الحيواني على غريزته الاجتماعية لايستطيع ذلك ، ويكاد يتناثر تماسكه الجماعي في موسم الشوق الى الجنس الاخر ..

٥ ـ قد اخرت عن عمد العنصر المفروض بالبداهة ، وهو عنصر التفاهم بالاصوات ، اعني اللغة ، فاللغة منضافة الى الحركة العضلية ، تكمل طقوس العبادة سواء كانت صراخا مدويا ام ترانيم او تمتمات ، وباللغة يتم الجهد المشترك سواء كانت اصواتا بسيطة معبرة ام تراكيب طويلة معقدة . واذا كان الماضي يقاس بالحاضر ، فبشر ماقبل التاريخ ، كالبدائيين في مجاهل افريقيا اليوم ، كانوا يتكلمون لهجات لاتحصى كل لهجة تعين حدود قومية من القوميات ..

وانه لمن العسير ان نوازن بين ركائز الاجتماع في بنوره الاولى ، وان نعطي الوزن الاوفى لعنصر ما قبل اخر في نشأة الجماعة اللاتاريخية : هل هو التساند في تأمين الغذاء والكساء والمأوى ، ام التعارف بالاصوات، ام التآلف في ظل المقدسات ؟ الحق انها كلها عناصر ذات وزن ، ثم انها متداخلة متشابكة . والعنصر المادي ليس اخفها . وبهذا الوجه يجب ان نفهم ابن خلدون حين يقول :

« ان اختلاف الاجيال في احوالهم انما هو باختلاف نحلتهم من المعاش ، فان اجتماعهم انما هو للتعاون على تحصيله وابتداء بما هو ضروري منه » ...

لعلنا قد ورثنا ، دون ان ندري ، الكثير الكثير عن الذين لم يخلدهم التاريخ ، ورثنا عنهم هيكل البناء الذي ستسبغ عليه الازمان المقبلة الطلاء الخارجي ، وتوسع او تضيق من حجراته وتزودها ببعض الاثاث الجديد فلنقوم الان ماترك لنا المؤرخون .

الدولة والقومية في فجر التاريخ

ولست ازعم ان اقواما ما قبل التاريخ قد عبرت كلها باب التاريخ ، وحملت معها رصيدها الاجتماعي . فالواقع ان بعض السلالات التاريخية قد باد ، وبعض الجماعات انفرط عقدها ، واكثرها قد نزح عن مهده الاصيل وجرى على سطح الارض توزيع جديد للبشر بفعل الهجرات الجماعية التالية لتبدل المناخ .

الا ان الجماعات التاريخية لم تلد من العماء ، اقصد انها لم تتكون عن غير اجداد ، ومع ارثها العضوي اللاتاريخي اخذت المكتسبات والمقومات المتحصلة في الدهر السحيق .

كان هنالك اذن مرور اجتماعي الى التاريخ .

واذا رجعنا الى القليل الذي جاد به علينا علماء التاريخ عن احوال الدول الاولى ، وجدنا في قصة القومية والانسانية بعض الجديد في التفرعات والتفاصيل ، وفي بلورة عدد من المظاهر ، كانت سديمية من قبل .

من ذلك :

١ ـ ان الدول المنظمة اصبح لها ارض معينة ذات حدود بينة لها صفة القدسية ، وبتعبير اخر ، ان الجماعات المتنقلة لم تكن تمنح ارض الوطن المعنى العميق الذي اصبح له في نفوس الجماعات الثابتة . فالوطن ـ بمعناه الترابي ، ومن حيث هو مستقر للقومية ـ اضحى في المكانة بمنزلة العبادة ، وبمرتبة لغة التخاطب وتراث الحضارة .

وقد ذهبت بعض الدول في حماية حدودها الى حد اقامة الاسوار

المنيعة في الجهات التي تخشى منها زحف القوميات الاخرى عليها ، كسور الصين الكبير والسور الشرقي لدلتا النيل .

٢ ـ ازدادت فاعلية اللغة في الترابط القومي باكتشاف الكتابة ، وبالتالي تسجيل المشاعر والتقاليد الجماعية بالحروف اضافة الى الاصوات والنقوش والتماثيل .

٣ ـ انصهرت الديانة في الدولة ، وأصبح لكل مجتمع مستقل دين قومي مستقل الى جانب اللغة القومية . حتى ليصح القول بان تاريخ الشعوب القديمة كلها ليس الا تاريخ ديانات تلك الشعوب .

وجاءت الكتابة عونا على دمج عامل اللغة بعامل العبادة ، فظهرت الكتب القومية المقدسة كالفيدا عند الهنود والافستا في ايران ، والتوراة عند العبرانيين .

ولا بد ان نتريث بعض التريث عند ظاهرة انصهار الدين في الدولة ، لان هذه الظاهرة ستخطط تاريخ القوميات الزمن الاطول .

قلنا ان الانسان حيوان متدين منذ البدء ، وهو حيوان سياسي منذ البدء ايضا ، ومنذ اعرق الازمان عراقة نجد التضافر بين الدين والحكم .

خطان برزا منذ الخفقة الاولى في حياة البشر :

خط الانتقال في التماسك الاجتماعي من الاسرة الى القبيلة والرهط فدولة المدينة ثم دولة الامة .

خط الانتقال من العبادة القبلية والطوطمية الى عبادة الارباب المحلية ثم الى عبادة الرب او الارباب القوميين ..

خطان متوازيان في كل منهما نزعة الى التعميم والتوحيد .

ولكنهما التقيا بعد قليل وشكلا خطا واحدا .

قد لايمكن ان نقتنع بنظرية التعاقد الاجتماعي التي ركبها « روسو » وغيره من الفلاسفة ، وجعلوا فيها نشأة الحكومات الاولى من صنع الاتفاق الطوعي بين الناس . على ان ظلا من حقيقة يتبقى لهذا الغرض .

في عصور الانسانية المبتدئة قدس البشر القوى العجيبة الخارقة في الكون . وكل انسان تميز بالقدرة العضلية والقوة البدنية والشجاعة في قهر الحيوان المفترس والمهارة في اصطياد القوت ، هابه الاخرون وأطاعوه وأحاطوه بمظاهر التجلة ومراسم التبجيل .

في القديم واءم الادميون بين السحرة والحكام ، بين القوة الغيبية والقوة الانسانية وجمعوا بينهما ، فصنعوا للحكام الاقوياء نسبا آلهيا ، او على الاقل توهموا فيهم تجسيد الارباب على الارض .

وعندما تسمو المدارك البشرية وينزه الناس الهتهم عن التجسيد ، يبتكر الحكام شكلا اخر من اشكال التاليه ليربطوا دوما بين الدين والدولة ، فيطلعون على رعاياهم بنظرية الحق الالهي ، التي تجعل من الملوك طائفة اختارها الله لتنفيذ أوامره واقامة شعائره .

منذ بزغ التاريخ ، اتحد التاج والقلنسوة ، في اذهان الناس وفي نفوسهم ، وارتبط الصولجان بالطيلسان .

وسنرى بعد قليل كيف ينفصم هذا الزواج في بعض البلدان خلال العصور الحديثة .

٤ ـ كان من نتائج الثنائية المدنية والروحية في قوام الحكم ، انه تجمع حول الحاكم نفران من الناس : المحاربون الاقوياء الذين يشدون حكمه بالسيف ، وسدنة الدين الذين يأزرونه بالصلاة . النبلاء من جهة والكهنوت من جهة . ومهمة سائر افراد الامة العمل لاعالة المحاربين والمصلين . نوع من تقسيم العمل في المجتمعات الاولى . وفي كل ذلك كان هنالك تطابق تام بين الدولة والامة او الشعب . وحين تعمل الديموقراطية الحديثة على فصل الدين عن الدولة تعمل في نفس الوقت على الغاء ماكان تابعا لذلك اي نظام الطبقات .

النزعة العالمية والامبراطوريات الاولى

ولامر ما لم يستغرق عهد الدول الاولى زمنا طويلا من عمر التاريخ . ومنذ الالف الثالث قبل الميلاد ـ بل وقبل ذلك ـ عم الدنيا نظام الامبراطوريات .

ولقد ذكرت عن اقوام ما قبل التاريخ انهم مروا من مرحلة التبديد الى مرحلة الاستثمار في انتفاعهم بالطبيعة ، اما اقوام التاريخ فقد دخلوا في مرحلة ثالثة ، وهي استثمار شعب لشعب ، اي الاستعمار .

ولا بد ان نتساءل لماذا تسيطر دولة على اخرى ؟

هل السبب مادعاه الفلاسفة : النزوع الى العالمية اي استمرار نزعة التعميم والتوحيد ؟ او حرص الاقوياء على افادة الضعفاء بنعم المدنية ؟

ام لسبب هو المجد وحب المغامرة عند الحكام ؟

ام اخيرا الرغبة الملحة في السيطرة على موارد جديدة ؟

لنترك الاجابة للتاريخ .

الفيلسوف الانساني أرسطو ينصح الاسكندر بتوحيد العالم ونشر آلاء الحضارة الهيللينية فيه ، وقد يكون المعلم الاول مدفوعا بعامل النزوع الى العالمية الانسانية ، اما الاسكندر فانه يتخذ من ذلك ذريعة لارضاء حاجات التوسع عند الاغريق المحصورين في رقعة جبلية ضيقة . والحثيون في هضابهم القاحلة كانوا ينظرون الى الغلات الزراعية الموفورة عندما عزموا على الهبوط نحو بلاد الهلال الخصيب .

والفراعنة لم يكن الهدف من بعوثهم العسكرية الى الشام غير الخشب والماعز والغنم ودنان الزيت والخمر ، والفضة والحديد والجلود وما شابه ذلك .

وقد تبدو لدى الفاتحين رغبة في نشر لغة او تعميم دين او بسط الرخاء والامن .

الاسكندر بذر المستوطنين المقدونيين في المدن الكثيرة التي انشاها لكنه لم يكن يرمي من وراء ذلك الا امتصاص قومية السكان المحكومين. وقد فشل في ذلك .

والفرعون امنحوتب الرابع بدل ديانة اجداده ، ونبذ الاله القومي آمون وأحل محله الها اضفى عليه صفة العالمية وهو آتون ، وأنتسب اليه فدعا نفسه اخناتون وكان يقصد عن طريق الدين الى توطيد حكمه في الامبراطورية المصرية الواسعة .

والرومان جعلوا شعارهم في الفتح والتوسع : السلم العالمي . السلم العالمي بقيادتهم ولمنفعتهم وحدهم ..

يصف المؤرخ الروماني « أرستيد » ذلك السلم الروماني لمواطنيه فيقول لهم :

« من كافة جهات الارض تحمل اليكم منتوجات كل موسم . واذا رغبتم في مشاهدة هذه المنتوجات ينبغي ان تطوفوا حول العالم او تقيموا في روما . انكم واجدون في روما ، كل اونة وبمقادير وفيرة ، جميع ماتجود به الطبيعة او تخلقه الصناعة لدى شعوب العالم اجمع . ففي كل فصل من السنة ترسو السفن على ارصفة التيبر حاملة لروما من السلع مايجعلها سوق الدنيا ، ان ثمار الهند وبلاد العرب السعيدة لغزيرة عندكم حتى يظن انها قطفت كلها لكم . واذا شاء الهنود والعرب اقتناء منتوجات ارضهم وجب عليهم ان يجلبوها من لدنكم .. »

ان النزوع الى العالمية قد اخذ في ظل الامبراطوريات القديمة شكل

التسلط بالقوة ، لارضاء مطامع اقتصادية محضة ، وهو عين الشكل الذي يتخـذه الاستعمار الحديث .

ولعلنا نعدق فلاسفة النزوع الى العالمية الانسانية حين نقرأ صفحـة اخرى من صفحات التاريخ القديم ، تلك الصفحة التي سماها « كـارل ياسبرز » : العهد المحوري للتاريخ :

حول القرن الخامس قبل الميلاد تفتحت في بقع عديدة من العالم باقة من الفلاسفة والمصلحين ، ارادوا تعميم انسانية الانسان وتحرير البشرية من الشرور والاثام . وضم هذا العهد المحوري امثال كونفوشيوس ولاوتسه في الصين وبوذا في الهند ، وزرادشت في فارس وهوميروس وافلاطون وغيرهما في بلاد اليونان ..

التجربة المسيحية

والتجربة المسيحية في عهودها الاولى مثال رائع على النزوع الانساني الـى العالميـة .

انتشرت المسيحية دون تسلط ، بل قامت ضد التسلط ، وقدمت الشهداء على مذبح الايمان الخالص . وطالما لم تحاول امتصاص القوميات تقبلتها تلك القوميات بصدر مفتوح . وبتعبير اصح تخلت الشعوب عن دياناتها السابقة بدافع النزوع الى التوحيد ، ولكنها لم تتخل بأية حـال عن لغاتها . ثم ماذا حدث ؟

حدث ان الملوك تبنوا المسيحية ، كما تبنوا الديانات الاخرى من قبل ، وقرنوها بحكمهم ، وجعلوا منها آلة للتسلط الداخلي والخارجي .

مثال واحد استمده من « جان دوشه » في كتابه الطريف « تاريخ فرنسـا كما قصته جولييت » ، يقول : « آلى الملـك شـارلمان ان يدخل السكسونيين في نعمة المسيحية ، فخصهم باربعة وثلاثين حملـة عسكرية . واني لاتساءل فيما اذا كان قد اراد اخضاعهم من اجل تعميدهم ام تعميدهم من اجل اخضاعهم ...

والذي حدث انه اردف بجيشه مااستطاع حشده من القساوسـة والرهبان ليجعلوا نيره اقل مرارة ... »

وحدث ايضا انه حين جرب الاباطرة والملوك قهر القوميات باسـم الدين المسيحي ، ثارت القوميات باسم الدين ايضا ، وحاربت المتسلطين بسلاحهم . على هذا الوجه يفهم التاريخ الهرطقات والبدع التي انتشرت في كل مكان من الامبراطورية البيزنطية ، لهذا الغرض القومي كافـح آريوش ونسطور ويعقوب البردعي وعشرات غيرهم لا لاختلافهم مـع القياصرة على قضايا ناسوت ولاهوت ...

والبروتستانتية في المانيا وسويسرا وبريطانيا وغيرها من بلدان اوروبا هل كانت في حقيقتها شيئا اخر غير التعبير عن قومية الشعوب ورفض انصهارها في الروح اللاتينية ؟

ثم ان الكنيسة المسيحية ، بالاضافة الى تعضيدها الملوك على الشعوب اصبحت تنعم بثروات ضخمة ، وتملك الارضين الواسعة ويعيش سدنتهـا معيشة الامراء المترفين .

لكل ذلك تكون رأي عام لايدافع ، يطالب بفصل الدين عن الدولة ويعني هذا انزال العبادة الى المرتبة الفردية في التكوين القومي وتجريـد الحكومات من قوة الدين . والثورات الديمقراطية هي التي حققت هـذا التبديل . وفي حصر الدين في نفوس الافراد صيانة له من عبـث الحكومـات .

التجربة الاسلامية

والاسلام ايضا يمثل النزوع العالمي الانساني باجمل معانيه . وذلـك لانه دعوة خالصة الى التوحيد فهل انتشر الاسلام بالقوة وغلى جـاءت القوميـات ؟

قيـل ذلـك .

ولكن عملية حسابية بسيطة تبطل هذا الزعم .

عدد المسلمين في العالم اليوم نحو ٤٠٠ مليون ، كم منهم اعتنـق اجدادهم الاسلام بحكم الفتح والاستيلاء ؟

هل حكم العرب المسلمون اندونيسيا وسيلان والملايو والهند الصينية وبرمانيا وسيام وافريقيا السوداء ؟

هل دخلوا فاتحين الى الصين ؟ هل كان لفتوحاتهم مدى يذكر فـي الهنـد والباكستـان ؟

اذا احصينا سكان هذه البلاد نجد انهم لايقلون عن ثلثي مسلمـي العالـم .

ومن الحقيقة التاريخية ان الاسلام قد لقي النجاح الكامل من حيث هو دعوة روحية ، ولكنه لم ينشر القومية العربية في ايران وافغانستان وتركيا والقوقاز وازربيجان وبلاد التركمان والاوزبك والقرغيز والكثير من البلاد الاخرى ذات القوميات الراسخة .

فلماذا نجح الاسلام دينيا وقوميا في حدود الوطن العربي القائم اليوم ؟

لنذكر اولا انه لم يحارب شعوب هذه المنطقة وانما حارب حكامهم البيزنطيين الغربـاء .

ولنذكر ثانيا ان اقوام المنطقة قد تلقوا المسلمين كمنقذين لا كفاتحين .

ولنذكر اخيرا ان الاتصال الثقافي والاجتماعي كان موجودا بالفعل بين العرب واولئك الشعوب قبل الاسلام .

لهذه الاسباب نجحت هنا الدعوة العربية في كنف الدعوة الاسلامية .

وقد تجنب الاسلام في بنيته الاصيلة ان يفسح المجال لاستغلال الدين من قبل كهانه ، فلم يخلق طبقة كهان ..

وحل بالاسلام ماحل بالمسيحية . حاول الاتراك باسمه ان يقتلـوا القوميات ، فقتلتهم القوميات في النهاية . واصطنعوا طائفة مـن المسلمين على شكل اكليروس ، فكان ان نفر الناس من حكمهم لهـذا السبب ايضا ، فطالبوا بفصل الدين عن الدولة ليتهيأ لهم محاربة الدولة مع الحفاظ على قدسية الدين .

الديمقراطية والاستعمار والامية الجديدة

ليس لي ان اختتم هذا المقال ، دون ان ارسل بعض السهام المسمومة الى هذا الضرب من الديمقراطية الحديثة التي تقصم ظهور الشعـوب بوقر استعمارهـا . لم هذا التلازم بين الديمقراطية والتسلط ؟

مع نشأة النظام البرلماني في انجلترا بدأ استعمار الهند . والملـك الديمقراطي الفرنسي لويس فيليب ارسل حملته المشؤومة على الجزائر العربية ، ومن قبله نادت الثورة الفرنسية بالحرية والاخاء والمساواة ، وعاثت في اوروبا ، وانتهبت ممالك وأذلت قوميات ، ومن بعد ذلـك امعنت الجمهورية الثالثة والرابعة والخامسة في سفك دماء الشعـوب واغتصاب قوتها ...

هل كل ذلك ايضا تطبيق لمبدأ الوحدة والشمول ؟..

نعم . شمول الجشع ووحدة النهب والتدمير .

الديمقراطية في بلادها أطلقت العنان للطاقات الشعبية المكبوتة ثـم عجزت عن ضبطها ، فشقت لها اقنية نحـو الاستعمار .. خشيت الديمقراطية على نفسها من الديمقراطية فألهتها عن نفسها بغيرها ..

وشكل اخر للديمقراطية يحمل لواء الامية .

بدلا من قومية اللغة والحضارة والدين ، يريد أن يخلق رابطة الصراع بين الطبقات في جميع القوميات . من رابطة الصراع وحدها يحاول ان يقيم مجتمعا عالميا متزنا متحابا مترابطا فماذا صنع ؟

لم يستطع اقتحام حصون القوميات فدار حولها .

تبنت بعض الحكومات ــ ولا اقول الامم بل ولا الدول ــ العقيدة الشيوعية ، ولكنها اضطرت ان تضعها تحت ابط قوميتها . البولونيون لايزالون يعتزون ببولونيتهم وبالتالي لايزالون يحرصون على الاستقلال ، وكذلك الهنغاريون والرومانيون واليوغسلاف والصينيون .

وفي الاتحاد السوفياتي قومية روسية راسخة مهيمنة ، تفرض سلطانها على مائة وثمانين قومية اخرى ، تماما كما كان الامر في عهد القياصرة ... ولا عبرة بوجود المجالس والجمهوريات اذا كان الوحي القيادي يتنزل على الروسيين وحدهم وباللغة الروسية وحدها ..

الدولة والامة والتراث الاجتماعي

في اخر مؤلف لاستاذنا الكبير ساطع الحصري « ماهي القومية » روز لعوامل القومية حسب درجتها في التأثير : لغة ، مشيئة تعايش ، مصالح اقتصادية ، وحدة دينية الخ .. وكل ذلك معالج بيد خبيرة واعية .

والذي أراه ان واقع التاريخ يحملنا على شيء من الاحتراس ، فليس لاي اثر قيمة مطلقة في جميع الظروف والبيئات ، وحسبنا القول بان العناصر المذكورة تدخل كلها في التراث الاجتماعي بنسب تزيد أو تنقص، والقومية هي التراث الاجتماعي .

قد لاتكون الولايات المتحدة الاميركية أمة بالمعنى المتعارف عليه . لانها دولة تضم عناصر بشرية من قوميات مختلفة المهاد ، وقد يكون التحدث عن امة بلجيكية او أمة سويسرية ضربا من خداع التاريخ . هنا تعايش ارادي طويل الامد ينتهي بمنح الدولة بعض ماللقومية من مقومات .

ولكن الولايات المتحدة وسويسرا او بلجيكا لاتصلح مثالا على امكان تحول القوميات الى أممية بلا قوميات . حدث هنا تعاقد اجتماعي بالفعل من أجل بناء الدولة . غير ان لكل دولة منها ظروفا استثنائية خاصة . ففي امريكا وحد بين الانجليز المتأمركين الفرار بالدين الى ارض لايضطهد دينهم فيها ، ولما وفدت عليهم جموع المهاجرين المنوعين الطامعين بالذهب طبعهم الانجليز الامريكيون بطابعهم الغالب ، بذلك سيطرت على المجتمع الحديث لغة واحدة وحضارة واحدة ومشيئة واحدة للعيش المشترك ، وهي عوامل كافية لقيام دولة واحدة ، وفي المستقبل لنشوء امة واحدة .

وفي سويسرا ألمان وفرنسيون وايطاليون ، وكان ادنى الى مفهوم القوميات ان ينضاف الالمان الى دولة المانيا والفرنسيون الى دولة فرنسا والايطاليون الى ايطاليا . والواقع انه لم يحدث هنا انصهار قومي ، ولم ينغلب عنصر على اخر ، وبقيت كل قومية شبه مستقلة سياسيا في ظل الاتحاد الفدرالي . والواقع الذي حمل المتجاورين السويسريين على التوحد السياسي المخفف هو اشتراكهم في بيئة جبلية صعبة تقتضي التضافر على ترويضها وتسخيرها لمنفعة المتشاركين .

وفي بلجيكا ايضا لم تنصهر قومية « الوالون » بقومية « الفلامان » ، وانما حدث بين الفريقين تواطؤ سياسي على العيش معا ، لتداخل العنصرين في اكثر من موضع على ارض بلجيكا ، بسبب الظروف التاريخية القديمة . وقد اعان على استبقاء هذا الوضع الشاذ رغبة انجلترا التاريخية في خلق دولة على بحر الشمال تقف بينها وبين المسدس المصوب الى قلبها من فرنسا ..

اعود مرة اخيرة الى التراث الاجتماعي لاتمثل ببعض مظاهرة في دنيا العرب :

الشاميون الذين هاجروا الى امريكا ، بقيت افئدتهم عربية مابقيت السنتهم عربية ، وبالتالي طالما صانوا التراث الاجتماعي العربي الذي حملوه معهم . ولكن الاجيال الجديدة المولودة في المهجر تصبح امريكية حتما ــ وقد اصبح الكثير منها ــ حين تفقد ذلك المعين .

واللغة العربية صانت الامة العربية اربعة قرون في ظل الحكم التركي مع انه حكم اسلامي .

وفي الجزائر يلم الدين الاسلامي عزائم المجاهدين ، لانه المقوم الابرز في صلب تراثهم الاجتماعي .

بهذا التراث يصمد اخواننا الابرار في الصرود والوهاد والسهول قبالة العتو الاجنبي .

فلتكن خاتمة المقال تحية عربية ملؤها الحب والاكبار لهؤلاء القديسين نسور القمم في تاريخ القومية العربية .

ولتكن اخر كلمة لنا : قومية كل امة تعني قبل كل شيء وحدتها السياسية . وليس قوميا عربيا بل ليس عربيا ابدا من يقبل بالقومية المفككة الى وحدات سياسية منعزلة . (✱)

دمشق — **عزة النص**

(✱) محاضرة القيت في المركز الثقافي بحمص

